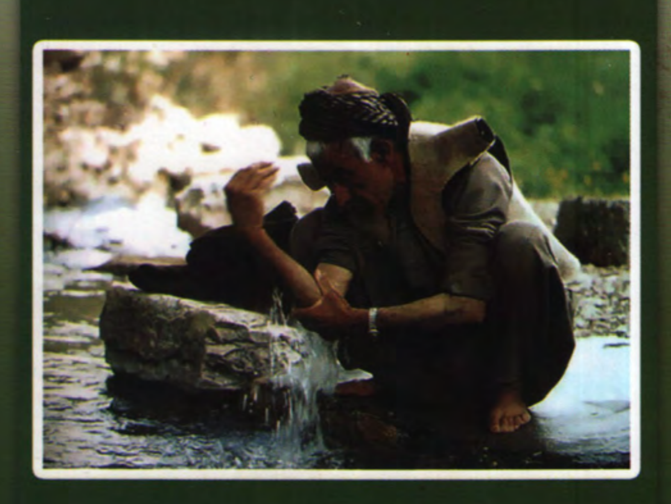
أبو علي الكردي
منتدى سور الأزبكية

الدكتور أحمد محمود الخليل



# صورة الكرد
# في
# مصادر التراث الإسلامي




منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

# صورة الكُرد
# في مصادر التراث الإسلامي

بالإشتراك مع مؤسسة
سما
للثقافة والفنون في دبي

# صورة الكُرد
# في مصادر التراث الإسلامي

الدكتور أحمد محمود الخليل



دار اراس للطباعة والنشر

أربيل - اقليم كردستان العراق

دار اراس للطباعة والنشر
شارع گولان - اربيل
اقليم كردستان العراق
البريد الألكتروني aras@araspress.com
الموقع على الانترنيت www.araspublishers.com
الهاتف: 35 49 224 66 (0) 00964
تأسست دار اراس في (٢٨) تشرين (٢) ١٩٩٨

الدكتور أحمد محمود الخليل
صورة الكُرد في مصادر التراث الإسلامي
منشورات اراس رقم: ١٢٤٥
الطبعة الاولى ٢٠١٢
كمية الطبع: ١٠٠٠ نسخة
مطبعة اراس - أربيل
رقم الايداع في المديرية العامة للمكتبات العامة ٢٣٧ - ٢٠١٢
الاخراج الداخلي: زياد طارق
الغلاف: آراس أكرم
التصحيح: أوميد البنا

ردمك:
ISBN: 978-9966-487-14-0

# فهرست الكتاب

# تقديم

لم أفكر مسبقاً في تأليف كتاب بهذا العنوان، وإنما وجدتُني أسير بإتجاهه من حيث لا أدري، وكانت البداية أنني رغبت في معرفة ما جاء حول الكرد في التراث الإسلامي، فعدت الى كثير من المصادر والمراجع، لجمع المعلومات المتعلقة بالكرد، وصار بعض تلك المعلومات مادة لكتاب (تاريخ الكرد في الحضارة الإسلامية)، وصار بعضها الآخر مادة لسلسلة إنترنيتية بعنوان (مشاهير الكرد في التاريخ)، ونشرت بعضها في كتاب (عباقرة كردستان في القيادة والسياسة)، وبعضَها في كتاب (سِير أعلام الكرد في التراث العربي: اللغويون- الأدباء- الموسيقيون).

لكن لفتت انتباهي- وأنا أجمع المعلومات- لَغَطٌ وخَلْط شديد بشأن هوية الكرد في التراث الإسلامي، ولم ينحصر ذلك اللغط والخلط في كتب التاريخ، وإنما وصلت عَدواه الى كتب الدين والبلدان واللغة والأدب أيضاً، والغريب في هذا المجال أمران:

- الأول: أنني لم أجد ربع ذلك اللغط والخلط فيما يتعلق بهوية جيران الكرد (العرب، والفرس، والكلدان، والآشوريين، والأرمن، والترك).

- والثاني: أن ذلك اللغط والخلط كان مقبولاً حينما بقي في دائرة تنسيب الكرد الى العرب تارة، والى الفرس تارة أخرى، والى أشتات من الناس تارة ثالثة. لكن المشكل أنه دخل في باب التلفيق والتخريف، فنسب بعضهم الكرد الى الجن، ونسبهم آخرون الى شيطان اسمه (جَسَد)، وجعلوا أمهاتهم في الحالين من الجواري المنافقات الفاسقات.

ولما استرسلت في تتبّع ما جاء بشأن الكرد في مصادر التراث الإسلامي، تأكد لي أن الأمر لم يقتصر على التشكيك في أصل الكرد، وأَبْلَسَتهم وتجريدهم من الهوية البشرية، وإنما شنَّت عليهم حملات قاسية، بقصد تبشيع صورتهم في الذاكرة الغرب آسيوية، وتقديمهم الى الأجيال بشكل منفّر، وطمس معالم مساهماتهم في التراث الحضاري لهذه المنطقة العريقة من العالم؛ علماً بأنها مساهمات كثيرة وقيّمة، وهي تتوزّع على مجالات الدين، والأدب، والعلوم، والسياسة، والقيادة.

والغريب أن القرآن وحده- من بين مصادر التراث الإسلامي- ظل بمعزل عن ذلك اللغط والتلفيق والتخريف، أما سواه من مصادر التراث الأساسية فقد تمّ توظيف معظمها لتحقيق الغرض المنشود، سواء أكانت كتب تفسير القرآن، أم كتب الحديث النبوي، أم كتب التاريخ، أم غيرها، كما أن الشهود الذين وُظّفت أسماؤهم لأبلسة الكرد، وتبشيع صورتهم، هم من المراتب الرفيعة في الذاكرة الإسلامية، فيهم النبي، والخليفة، والصحابي، والتابعي، والإمام، وشيخ الإسلام.

وكان من الطبيعي والحال هذه أن أتساءل مستغرباً: لماذا الكرد تحديداً؟ ولماذا كل هذا اللغط والتلفيق والتخريف؟ ولماذا التبشيع والأبلسة؟ وكي أصل الى إجابات شافية كان عليّ أن أبحث عن هويّة الملفِّقين والمخرِّفين، وأتتبّع مسارات الروايات ذات العلاقة بالموضوع، وإذا بي أجد أنه لا دخل للنخب العربية بإختلاق روايات الأبلسة والتبشيع، فكل ما فعلوه أن فريقاً منهم نسب الكرد الى العرب القَحْطانيين، ونسبهم فريق آخر الى العرب العَدْنانيين، وكان ذلك التنسيب- بمعايير القرون الهجرية الأولى- تكريماً للكرد، وليس تشويهاً ولا تبشيعاً ولا أبلسة.

وبعد مزيد من البحث والتنقيب، تأكد لي، وبالأدلة الموثَّقة، أن الروايات المتعلقة بتبشيع الكرد وأبلستهم، تعود الى منتسبي مدرستين ثقافيتين، احتكرتا تصنيع الروايات وتسويقها في القرنين الهجريين الأول والثاني، هما مدرسة اليمن، ومدرسة الحِيرة في العراق. وكان القائمون على هاتين المدرستين إما فرساً أو من خرّيجي الثقافة الفارسية، ومنهم على سبيل المثال وَهْب بن مُنَبِّه، ومحمد بن إسحاق، وطاوُوس بن كَيْسان، ويَسار أبو نُجَيْح، ومُجاهد بن جَبْر، وإسماعيل السُّدّي، وشَهْر بن حَوْشَب؛ هذا إضافة الى دور الروايات اليهودية (الإسرائيليات)، والروايات المسيحية النسطورية، في مجال التبشيع والأبلسة.

وللوصول الى رأس الخيط، عدت الى المصادر والمراجع الخاصة بتاريخ غربي آسيا قبل الإسلام، بل الى ما قبل الميلاد أيضاً، وتحديداً الى أحداث القرنين السابع والسادس قبل الميلاد، وسقوط إمبراطورية آشور على أيدي الحلف الميدي البابلي (الكلداني) سنة (٦١٢ ق.م)، وسيطرة كورش الثاني الفارسي على مملكة ميديا سنة (٥٥٠ ق.م)، وعلى مملكة بابل الكلدانية سنة (٥٣٩ ق.م)، ثم محاولات بعض النخب الميدية استرداد الملك السليب، ووصيّة الملك الفارسي قَمْبَيز بن كورش، سنة (٥٢٢

ق.م)، للنخب الفارسية بالقضاء على كل محاولة لإحياء دولة ميديا.

حقاً، إن (وصيّة قمبيز) كانت بداية تأسيس المؤامرة على الكرد (أحفاد الميديين)، وظلت كلمات تلك الوصية خالدة في ذاكرة النخب الفارسية طوال القرون التالية، وحرصوا على تنفيذها بحذافيرها، مستعينين، في فترة ما قبل الميلاد، بالجهود الثقافية والدعائية للعبرانيين الذين كان نَبُوخَذ نَصَّر (بُخْتُنَصَّر) البابلي قد سباهم، ونفاهم الى بلاد الرافدين (العراق). ومستعينين، في فترة ما بعد الميلاد، بالمسيحيين النساطرة الذين خرجوا على المذهب المَلْكاني البيزنطي الرسمي، واحتموا بالنفوذ الفارسي في بلاد الرافدين.

ولتوضيح ملابسات ومسارات هذه المؤامرة الخطيرة على الكرد- وهي مؤامرة متشعّبة الأطراف- كان هذا الكتاب، وآمل أن يتمكن القارئ، على ضوئها، من الربط بين الحالة الكردية القديمة والمعاصرة. وباللّه التوفيق.

أحمد محمود الخليل

السبت: ١٢ - ١٢ - ٢٠٠٩

١

# مصالح وصراعات في تاريخ العالم القديم

**جوهر التاريخ:**

التاريخ أحداث وقعت في كنف الجغرافيا، وأركان تاريخ البشرية ثلاثة (مصالح، ثقافات، سياسات)، والبحث في أيّ حدث تاريخي، بمعزل عن هذا الثلاثي المتحالف منذ فجر الوجود البشري، وعن علاقة هذا الثلاثي بالجغرافيا، لا يكون بحثاً صائباً، ولا يمكن أن يؤدي، بأية حال من الأحوال، الى نتائج منطقية وواقعية.

أما المصالح فهي اقتصادية في الدرجة الأولى، وتتفرّع جميعها عن محور واحد؛ هو (الاحتفاظ بالبقاء)، وأول متطلّبات (الاحتفاظ بالبقاء) هو امتلاك (المكان الأفضل)؛ أقصد امتلاك الجغرافيا التي تتوافر فيها مقوّمات الحياة على النحو الأفضل (مُناخ مناسب، تربة خصبة، مياه كافية)، وليس هذا فحسب، بل من الضروري أن يكون (المكان الأفضل) ذا قيمة جيوسياسية أيضاً.

وأما الثقافات فهي، من حيث الأصل، نتاج علاقة الإنسان بالبيئة، وهي تتجلّى في شخص النخبة على شكل أديان، وعقائد، وفلسفات، ومُثُل، ومفاهيم، ومبادئ، وقيم، ودساتير، وتشريعات، وقوانين، وضوابط، وموجِّهات، وبتعبير آخر: الثقافات تجلّيات معنوية (روحية/فكرية/شعورية) للمصالح، لكنها تمتاز بأنها تمتلك خاصية التحوّل من موقع (المنتَج) بفتح التاء الى موقع (المنتِج) بكسر التاء، من حالة (التأثّر) الى حالة (التأثير).

وأما السياسات- سواء أكانت سياسات سلِم أم سياسات حرب- فهي تجلّيات عملية (ميدانية) للمصالح، إنها فن التنافس والتصارع بين أصحاب المصالح، وكل موقف سياسي هو تكريس لخطوة نحو الهدف (المصلحة)، وترتكز السياسات على الثقافات لغرضين اثنين:

- الأول: تحشيد المجتمع، وتجنيد الأفراد، وتوظيف جميع الطاقات، للسير نحو الهدف (المصلحة).

– والثاني: تبشيع صورة العدو (من يحول دون الهدف)، وإضفاء طابع الأَبْلَسة عليه، إقناعاً للرأي العام بحتمية محاربته، وتبريراً لضرورة إزاحته جانباً، أو القضاء عليه تماماً.

ولكم أن تختاروا أيّ حدث من أحداث التاريخ، قديمها أو حديثها، صغيرها أو كبيرها، شرقيها أو غربيها، وتفكّكوا مفاصله الأساسية، وتحلّلوا ظروف نشأته، والنتائج التي تمّخضت عنه، ستتضح لكم في طيّاته العلاقة الوثيقة بين الثلاثي المتحالف (مصالح، ثقافات، سياسات).

وقد يُظن أن الأديان- مثلاً- لا تخضع لهذه القاعدة التاريخية، بإعتبار أنها مشاريع روحانية مكرَّسة لمصلحة واحدة فقط؛ هي الإيمان بالله وعبادته، وأن الثمن الذي يقبضه المؤمنون لقاء ذلك هو الفوز بمُلكية جزء من جغرافيا العالم الآخر (الجنة/الفردوس). والحقيقة أن النصوص الموثَّقة في الديانات السماوية الثلاث تؤكد خلاف ذلك، وتدلّل على أن الترغيب في مُلكية جزء من جغرافيا الأرض كان يمشي بموازاة الترغيب في مُلكية جزء من جغرافيا العالم الآخر (الجنة)؛ وإلا فبماذا نفسّر قول الرب للنبي أَبْرام (إبراهيم)، بعد أن استقر في أرض كنعان (فلسطين بعدئذ): "ارْفَعْ عَيْنَيْكَ، وَانْظُرْ مِنَ الْمَوْضِعِ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ شِمَالاً وَجَنُوباً وَشَرْقًا وَغَرْبًا، لأَنَّ جَمِيعَ الأَرْضِ الَّتِي أَنْتَ تَرَى لَكَ أُعْطِيهَا وَلِنَسْلِكَ إِلَى الأَبَدِ"[1] ؟

وبماذا نفسر قول النبي عيسي: "طُوبَى لِلْوُدَعَاءِ، لأَنَّهُمْ يَرِثُونَ الأَرْضَ"[2] ؟ وبماذا نفسر قول الله سبحانه وتعالى للمسلمين في القرآن بمناسبة انتصارهم على يهود يَثْرب (المدينة): {وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا}[3]؟ وبماذا نفسّر الآية القرآنية: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ}[4] .

تلك هي الحقيقة فيما أرى، وعلى ضوئها ينبغي البحث في التاريخ قديمه وحديثه، وللمزيد من التوضيح دعونا نستعرض أبرز الأحداث التي دارت في العالم القديم عامة، وفي غربي آسيا على نحو خاص.

---

١٠ العهد القديم، سفر التكوين، الأصحاح ١٣، الآيتان ١٤ – ١٥ .

٢٠ العهد الجديد، سفر متّى، الأصحاح ٥، الآية ٥ .

٣٠ سورة الأحزاب، الآيات ٢٥ – ٢٧ .

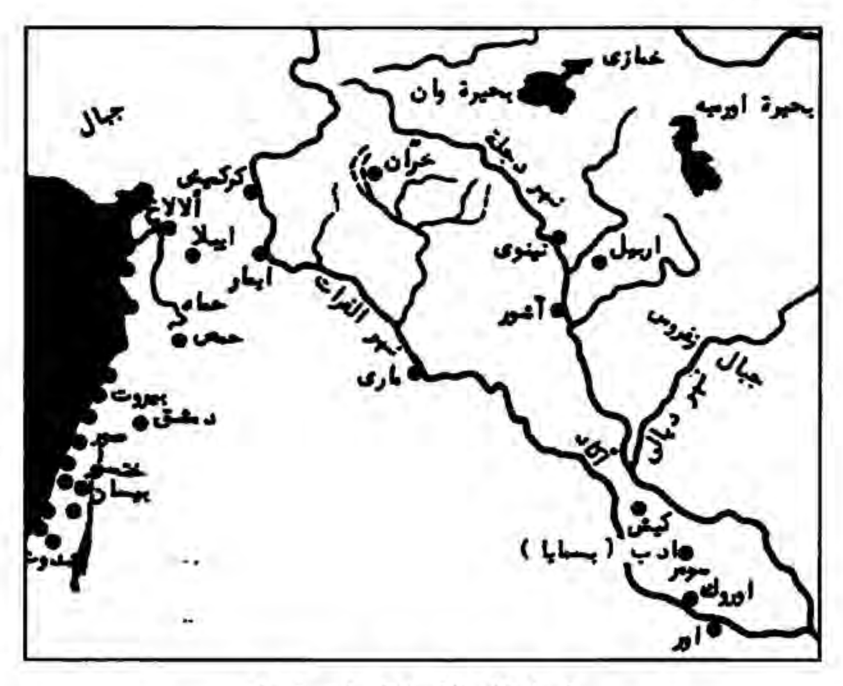
٤٠ سورة الأنبياء، الآية ٥ .

**العالم القديم جيوسياسياً:**

حينما نتفحص جغرافيا العالم القديم نخرج بالحقائق الآتية:

١ - الحقيقة الأولى: ثلاث قارات فقط كانت معروفة قبل الربع الأخير من القرن (١٥ م)، هي آسيا وأوربا وإفريقيا، ويطلق المؤرخون عليها مصطلح (العالم القديم)، وما كانت قارتا أستراليا وأمريكا معروفتين.

٢ - الحقيقة الثانية: كانت آسيا هي مركز الثقل الحضاري الأكثر أهمية في العالم القديم، ففي أقصى الشرق ظهرت الحضارة الصينية حول نهر هوانغ هي (النهر الأصفر) ونهر يانغ تسي، وفي الجزء الجنوبي ظهرت الحضارة الهندية حول نهر الغانج، وفي غربي آسيا ظهرت أقدم الحضارات على سفوح جبال زاغروس (كردستان حالياً)، وفي جنوبي بلاد الرافدين (سومر) حيث يمر نهرا دجلة والفرات، وفي آسيا الصغرى (غربي تركيا حالياً)، وفي شرقي المتوسط، وخاصة سوريا وفلسطين.




خريطة المدن القديمة في غربي آسيا

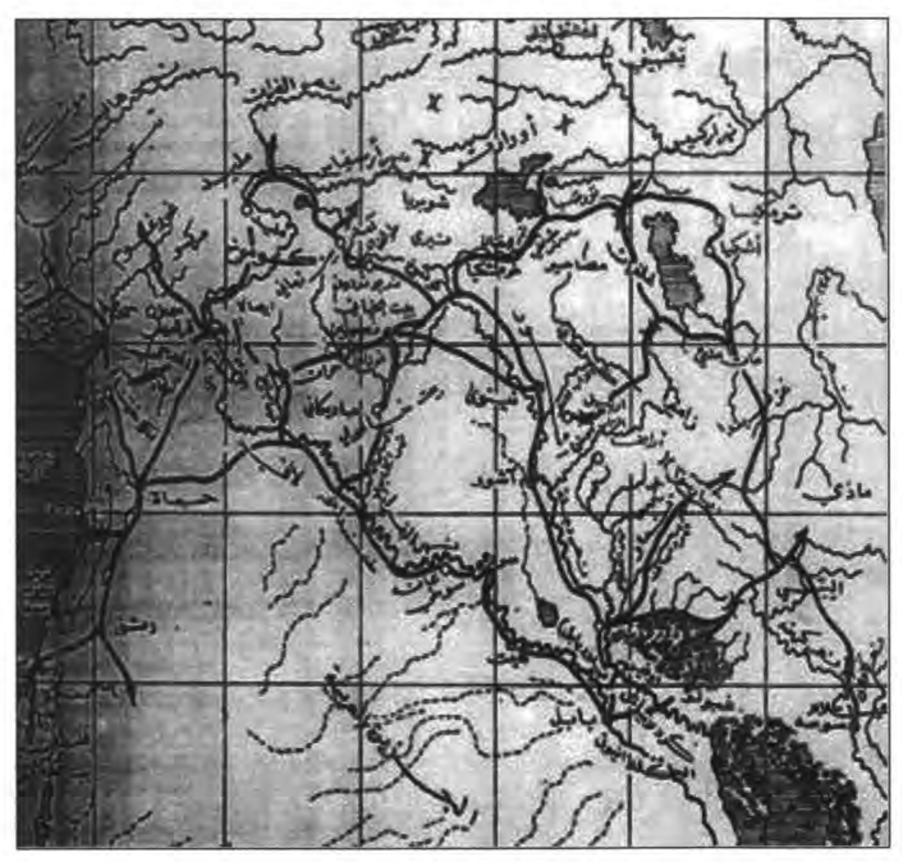
أما المناطق الشاسعة الواقعة في وسط آسيا فكانت موطناً للقبائل البدوية الطورانية، في حين كانت مناطق شمالي بحر قزوين موطناً لقبائل بدوية تعيش في حالة شبه بدائية، أبرزها قبائل السكيث.

٣ – الحقيقة الثالثة: كان شمالي إفريقيا، ومصر تحديداً، يشكل مركز الثقل الحضاري الآخر، وصحيح أن مصر هي جزء من إفريقيا جغرافياً، لكنها كانت قد أدارت ظهرها لإفريقيا السوداء، وأقصى ما كان يهم الدول المصرية المتعاقبة من إفريقيا هو السيطرة على مناجم الذهب في بلاد النُّوبَة وإثيوبيا، والتمدد نحو منابع النيل، ونحو الساحل الغربي للبحر الأحمر، باتجاه مضيق باب المندب، في حين أنها كانت متوجّهة باهتمام الى الدخول في علاقات اقتصادية وثقافية وسياسية مهمة مع غربي آسيا (سوريا، فلسطين، الأناضول، كردستان، بلاد الرافدين) من ناحية، ومع جنوبي أوربا (اليونان، إيطاليا) من ناحية أخرى.

٤ – الحقيقة الرابعة: كانت أوربا تشكل مركز الثقل الحضاري الثالث بعد كل من آسيا والجزء الشمالي الشرقي من إفريقيا (مصر)، وكان الجزء الجنوبي من أوربا، وهو المطل على الساحل الغربي للبحر الأبيض المتوسط، وخاصة بلاد اليونان، هو الذي يمثّل مركز الثقل الحضاري لأوربا، أما وسط أوربا وشماليها فكانت مسكونة بقبائل هندو أوربية تعيش في حالة شبه بدائية.

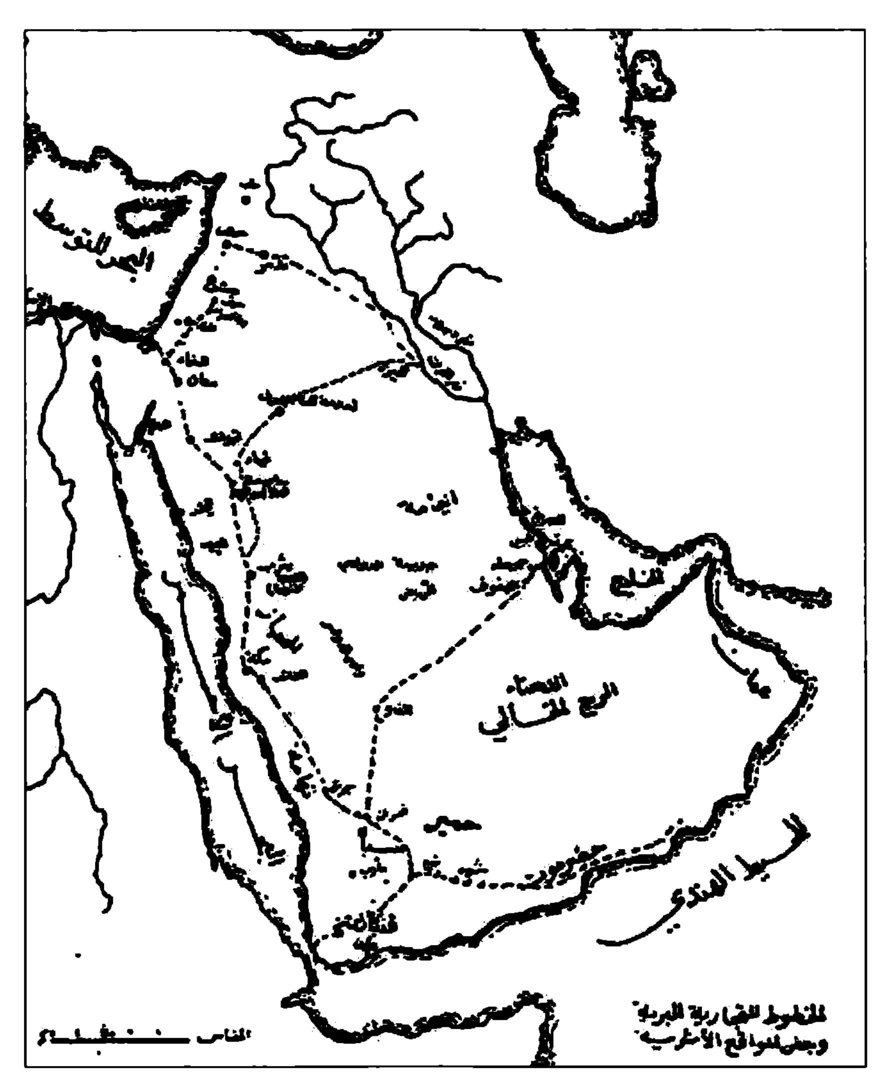
٥ – الحقيقة الخامسة: كانت العلاقات الاقتصادية بين مكوّنات العالم القديم نشيطة، كما هي الحال الآن، وكان ثمة طريقان تجاريان عالميان رئيسان يربطان جنوبي أوربا، وآسيا الصغرى، ومصر، بجنوبي آسيا ووسطها وشرقيها:

الأول طريق الحرير: كان ينطلق من الصين شرقاً، ويتجه غرباً، فيمر بأفغانستان، فالهضبة الآريانية، فجنوبي كردستان (جنوبي ميديا قديماً)، فجنوبي بلاد الرافدين (العراق حالياً)، ويتفرع بعدئذ غرباً باتجاه سوريا، وشمالاً باتجاه آسيا الصغرى. وكان فرع من هذا الطريق يمر بشمالي ميديا (على التخوم الجنوبية لبحر قزوين)، حيث تقع مدينة رَغَه (رَكه) Ragae، أي (الطريق)، باعتبارها كانت تقع على واحد من أهم فروع طريق الحرير، وتسمى في مصادر التراث الإسلامي (رَيْ)، ونُسب إليها كثير من العلماء بلقب (الرازي)، منهم الرازي الطبيب، والرازي المفسِّر، وتقع آثارها جنوبي (طهران) عاصمة إيران حالياً.




خريطة طرق تجارة الشرق الأدنى

الثاني– طريق البخور والتوابل: كان ينطلق من جنوب شرقي آسيا، ويتجه غرباً، فيمر بجنوبي الهند، ثم بجنوبي شبه الجزيرة العربية (اليمن)، ويتوجّه شمالاً عبر الحجاز (غربي شبه الجزيرة العربية)، حيث تقع الطائف ومكّة ويَثْرِب (المدينة) وتَيْماء، ويصل الى موانئ سوريا وفلسطين على البحر الأبيض المتوسط، ويتوجّه فرع منه الى مصر عبر سِيناء، وكان فرع آخر منه يتوجّه عبر الخليج نحو جنوبي بلاد الرافدين.




( خريطة طريق البخور التجاري العالمي )

٦ – الحقيقة السادسة: يقع غربي آسيا في قلب العالم القديم، ونقصد بغربي آسيا بلاد فارس، وكردستان، وأذربيجان، وأرمينيا، وبلاد الرافدين (العراق)، والأناضول، وآسيا الصغرى (غربي تركيا حالياً)، وسوريا، والأردن، ولبنان، وفلسطين، وشبه الجزيرة العربية. وفي غربي آسيا كانت تلتقي شبكة الطريقين التجاريين الرئيسين في العالم: طريق الحرير، وطريق البخور.

٧ – الحقيقة السابعة: على ضوء الأهمية الاقتصادية لطريقي الحرير والبخور يمكن تفسير التحوّلات الثقافية في العالم القديم، وخاصة ظهور الأديان الكبرى، ويتضح الأمر أكثر إذا دققنا التفكير في الأديان التي ظهرت في غربي آسيا: فالميثرائية (الأزدائية) ظهرت على حوافّ طريق الحرير المار بهضبة آريانا، وظهرت سليلتها (الزردشتية) قرب أُورميا (في شمالي ميديا)، ونجد أن حركة النبي إبراهيم (الجد الأعلى لأنبياء اليهودية والمسيحية والإسلام) انطلق من حرّان (حُوران = هاران= أوران) واتجه جنوباً نحو فلسطين، ومنها انحدر الى مصر، ثم رجع الى فلسطين، وباختصار: ظهرت الحَنيفية في شمالي كردستان على يد النبي إبراهيم، والزَّرْدشتية في ميديا (شمال شرقي كردستان حالياً)، واليهودية والمسيحية في فلسطين، والإسلام في غربي شبه الجزيرة العربية.

٨ – الحقيقة الثامنة: على ضوء الأهمية الاقتصادية لكل من طريقي الحرير والبخور يمكن تفسير الأحداث السياسية الكبري في العالم القديم، وخاصة الحروب الكبرى، وكان من أهم الأهداف الإستراتيجية لأية قوة سياسية (دولة، إمبراطورية)

تظهر في العالم القديم أمور خمسة:

١ . شمالاً وغرباً: السيطرة على شرقي المتوسط، حيث تتجمع فروع شبكتي طريق الحرير وطريق البخور، وحيث تقع الموانئ التي تربط تَيْنك الشبكتين بجنوبي أوربا، ومن ثَمّ بوسط أوربا وشماليها.

٢ . غرباً: السيطرة على البحر الأحمر، وعلى الطريق البرية الموازية له في غربي شبه الجزيرة العربية، حيث تقع تَيْماء، ويَثْرِب، ومَكّة، والطائف.

٣ . جنوباً: السيطرة على موانئ اليمن وساحل عُمان.

٤ . جنوباً وشرقاً: السيطرة على رأس الخليج العربي (خليج فارس).

٥ . شرقاً: السيطرة على معابر جبال زغروس في كردستان.

**مصالح وصراعات:**

وكانت السيطرة على شبكتي طريق الحرير وطريق البخور تتخذ شكلاً سلمياً، من خلال عقد الاتفاقيات، وإلا فإن القوة العسكرية كانت هي السبيل الى تحقيقها، وإليكم بعض الأدلة التاريخية:

١ - الدليل الأول: في الألف الثالث قبل الميلاد كانت بلاد سومر (من جنوبي بغداد حالياً الى الخليج) تتألف من دول- مدن، وبسبب الصراعات فيما بينها لم تستطع التمدد والهيمنة على غربي آسيا. لكن تغيرت الحال عندما أسس لوگال - آنّ - مُندو Lugal- Anne - Mundu مملكة قوية في (أَدَب)، وسيطر على بلاد الرافدين، ثم توجّه بفتوحاته شرقاً، ففتح عِيلام في الجنوب، وبلاد سُوبار (سُوبارتو) في الجزء الشمالي من إقليم كردستان- العراق حالياً[1] .

٢ - الدليل الثاني: بين سنتي (٢٣٥٠ - ٢٢٩٤ ق.م) أسس سَرْجُون الأول Sharruken 1 إمبراطورية أكّاد على أنقاض دول- المدن السومرية، ثم مدّ نفوذ دولته جنوباً حتى وصل الخليج (البحر الأسفل)، ثم قاد حملة، براً وبحراً، نحو الشرق ضد عيلام، وسيطر عليها، ثم توجّه شمالاً وشرقاً ليسيطر على شعب لوللو الجبلي (من أسلاف الكرد) في جبال زغروس، ثم توجّه غرباً نحو الأموريين (العَموريين) في سوريا الحالية، رغم أنهم كانوا حلفاءه ضد السومريين، وسيطر على بلادهم، الى أن وصل الى الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط[2] .

٣ - الدليل الثالث: بين سنتي (١٧٢٨ - ١٦٨٦ ق.م) حكم حمورابي Hammurapet مملكة بابل، وبسط سيطرته في الاتجاهات الثلاثة التي سارت فيها الحملات الأكّادية؛ جنوباً نحو الخليج، وشرقاً وشمالاً نحو عِيلام وجُوتيوم (كردستان المركزية)، وغرباً نحو سوريا والساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط[3] .

٤ - الدليل الرابع: حينما ظهرت الإمبراطورية الحثّية القديمة (١٦٠٠ - ١٣٨٠ ق.)، والإمبراطورية الحثّية الحديثة (١٣٧٩ - ١١٩٠ ق.م)، في الأناضول (وسط تركيا حالياً)، حاولت بإصرار التمدد شرقاً باتجاه الخليج وممرات زاغروس، والتمدد

---

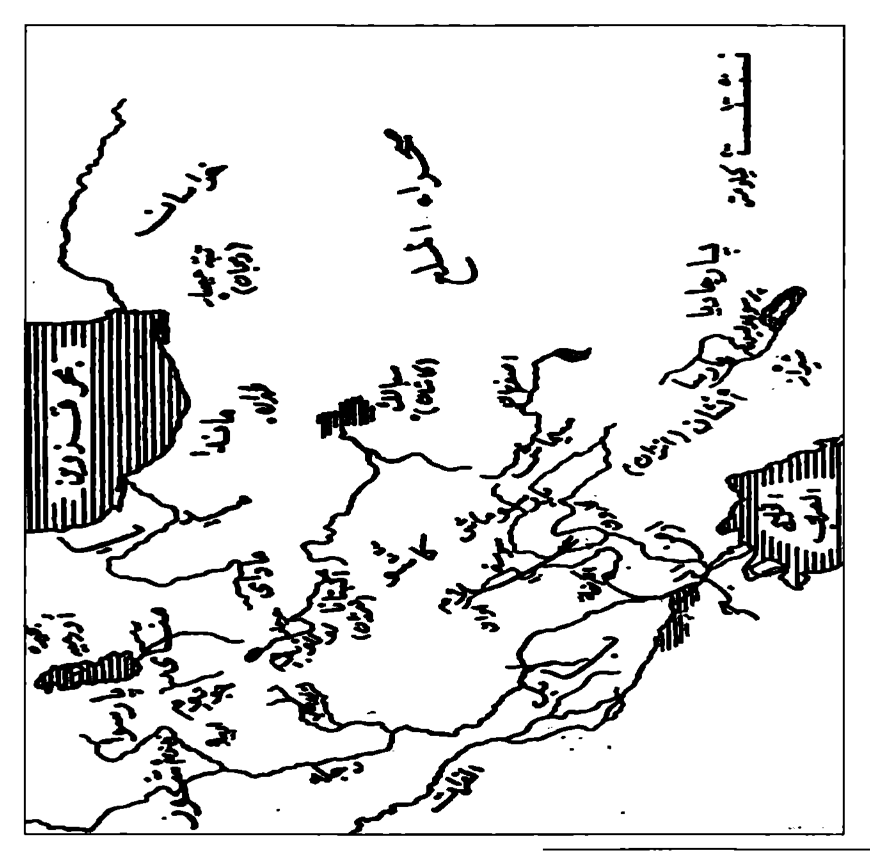
١. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٤٢ .

٢. توفيق سليمان: دراسات في حضارات غرب آسيا القديمة، ص ١٢١ - ١٢٣ .

٣. المرجع السابق، ص ١٦٩ - ١٧١ .

جنوباً للسيطرة على سوريا، وخاصة الساحل الشرقي للمتوسط، وكان ذلك سبب الصدام العنيف بينها وبين مصر الفرعونية.

٥ - الدليل الخامس: بين سنتي (١٥٠٠ - ١٣٣٠ ق.م)، أسّس الحوريون (من أسلاف الكرد) المملكة الحُورية (المِيتّانية) في أعالي بلاد ما بين النهرين (دجلة والفرات)، وتحديداً في شمالي كردستان (شرقي تركيا حالياً)، وامتد نفوذهم من مقاطعة أرّابْخا (كركوك) شرقاً، حتى إمارة مُوكيش (ألالاخ) غرباً، وجدير بالذكر أن مقاطعة كركوك تقع قرب السفوح الغربية لجبال زغروس، وأن إمارة موكيش كانت تقع غربي حلب في شمالي سوريا، وكانت حدودها تصل الى البحر الأبيض المتوسط، واصطدم الحوريون نتيجة لذلك بمصر الفرعونية[1] .



١٠ جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٥٩ . توفيق سليمان: دراسات في حضارات غرب آسيا القديمة، ص ٣١٢ - ٣١٣ .

٦ – الدليل السادس: بين سنتي (٩٣٤ – ٧٤٤ ق.م) ظهرت الإمبراطورية الآشورية القديمة، ثم ظهرت الإمبراطورية الآشورية الحديثة بين سنتي (٧٤٣ – ٦١٢ ق.م)، وفي كلا العهدين حرص الآشوريون على التمدد في الاتجاهات الثلاثة؛ جنوباً نحو الخليج، وشرقاً نحو زغروس، وغرباً نحو سوريا، بل إن الملك الآشوري أسرحدونEsarhaddon (حكم بين ٦٨٠ – ٦٦٩ ق.م) لم يكتف بالسيطرة على سوريا، وإنما غزا مصر نفسها سنة (٦٧١ ق.م)؛ لأن الدولة المصرية كانت تتدخّل باستمرار في فلسطين وسوريا، وكانت تعدّ المنطقة الواقعة بين المتوسط ونهر الفرات عمقاً إستراتيجياً لها، وكانت تقف ضد كل قوة إقليمية تسيطر عليها[١] .

٧ – الدليل السابع: منذ حوالي منتصف القرن (٩ ق.م) برز الميديون (من أسلاف الكرد)، وصاروا قوة إقليمية في غربي آسيا، وعمل الآشوريون– وكانوا قوة عظمى حينذاك– لطمس الظهور الميدي، لكن الميديين قاوموهم، وتحالفوا مع الدولة البابلية الحديثة (الكلدانية)، وقضوا على إمبراطورية آشور سنة (٦١٢ ق.م)، وتقاسم الحليفان مناطق النفوذ الآشوري السابق، فشمل النفوذ الميدي– إضافة الى ميديا– كلاً من فارس، وعيلام، وأورارتو (أرمينيا بعدئذ)، والقسم الشرقي من الأناضول حتى نهر هاليس (قيزيل إرماق). وامتد النفوذ الكلداني من الخليج شرقاً الى البحر المتوسط غرباً؛ الأمر الذي أغضب دولة ليديا (في غربي تركيا حالياً) ودولة مصر، وكانت الدولتان قد تحالفتا مع الآشوريين للوقوف في وجه الحلف الميدي– البابلي، ودارت صراعات مريرة بين الفريقين انتهت بعقد اتفاقية صلح بين ميديا وليديا، وانكفاء المصريين جنوباً[٢] .

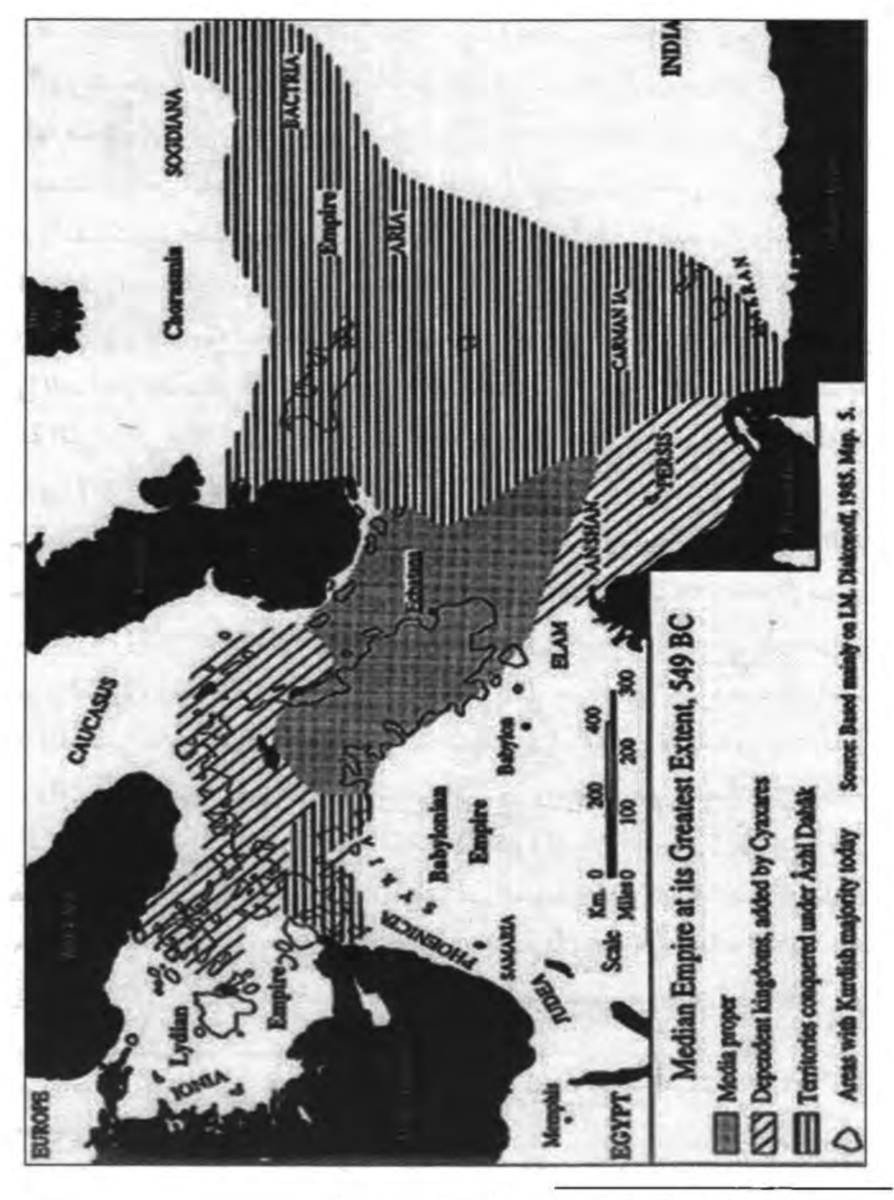
٨ – الدليل الثامن: سيطر الحلف الميدي – البابلي على طريق الحرير شرقاً، وعلى فرع طريق البخور الممتد من رأس الخليج، والمار في وسط بلاد الرافدين وسوريا، باتجاه موانئ البحر المتوسط، بل إن المَلك البابلي نابونيد Nabonidus كان قد سيطر على منطقة تَيْماء (في شمالي غربي المملكة العربية السعودية حالياً)، على بعد حوالي ١٠٠ ميل شرقي خليج العَقَبة)، لوقوعها على طريق البخور الممتد من

---

٠١ عامر سليمان، أحمد مالك الفتيان: محاضرات في التاريخ القديم، ص ١٦٢ . عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٨٣ – ٩٧ .

٠٢ هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٧٧– ٨٠ . طه باقر وآخران: تاريخ إيران القديم، ص ٤٠ . أحمد فخري: دراسات في تاريخ الشرق القديم، ص ٢١٤ .

اليمن جنوباً باتجاه الموانئ السورية ومصر شمالاً، حتى إنه أراد أن يتخذها عاصمة جديدة لإمبراطوريته، وذلك إبّان سيطرة كورش Cyrus الأخميني على دولة ميديا، وتأسيس الدولة الأخمينية حوالي سنة (٥٥٠ ق.م)[١] .




١. عبد الحميد زايد،: الشرق الخالد، ص ٥٩٩ – ٦٠٠، ٦٠٣ .

**صراع فارسي- إغريقي:**

وقد دار بين الفرس والإغريق واحد من أكثر الصراعات شراسة وطولاً بين آسيا الغربية وأوربا الجنوبية، بسبب المصالح الاقتصادية، وتحديداً بسبب خطوط التجارة العالمية، ، فعندما سيطر الفرس على مملكة ميديا حوالي سنة (٥٥٠ ق.م)، كان ذلك يعني أنهم سيطروا على طريق الحرير وفروعه في جبال زاغروس وفي الهضبة الآريانية فقط، ولذلك لم يلبث كورش الأخميني أن هاجم مملكة بابل سنة (٥٣٩ ق.م)، وورث ممتلكاتها من الخليج شرقاً الى ساحل البحر الأبيض المتوسط.

ولم يكتف كورش بإخراج البابليين (الكلدان) من الساحة الإقليمية، وإنما هاجم دولة ليديا في آسيا الصغرى (غربي تركيا حالياً) ، وهزم ملكها كرويسوس Croesus (قارون)، ودخل عاصمته سارديس Sardis، وأخذه أسيراً، وبسط النفوذ الفارسي على موانئ الساحل الشمالي للبحر الأبيض المتوسط، وهذا يعني أن كورش صار سيّد المنطقة التي تلتقي فيها فروع طريقي البخور والحرير، وصارت تجارة آسيا مع أوربا في أيدي الإمبراطورية الفارسية[١] .

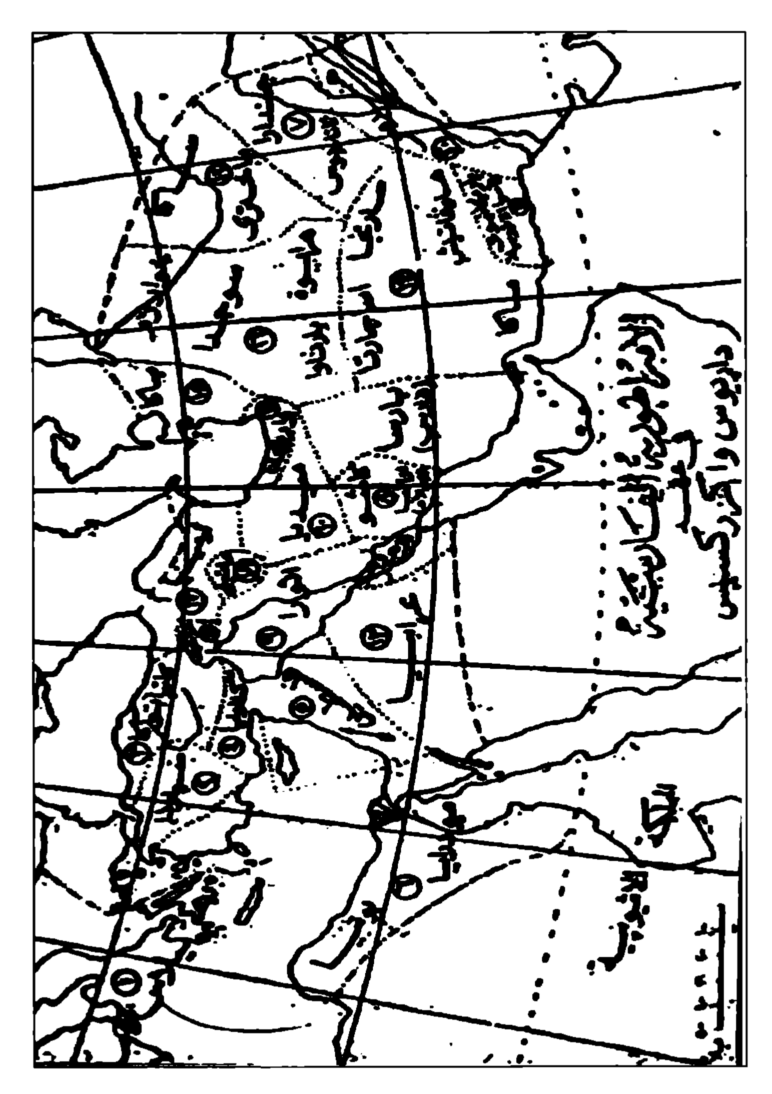
وقد استكمل خلفاء كورش توسيع النفوذ الفارسي، فاستولى ابنه قَمْبَيز Cambyses مصر، ثم تولّي داريوس (Darius دارا الأول) ابن هيستاسب Hystaspes عرش الإمبراطورية، وكان معنى ذلك أن يتولّي إدارة مشروع التمدد الفارسي على طريقي الحرير والبخور، وهذا ما قام به، ووصل المشروع في عهده الى أوسع درجة، وامتد النفوذ الفارسي من جبال هندوكوش (في أفغانستان) شرقاً الى البُوسفور والدَّرْدَنيل غرباً، والى مصر غرباً وجنوباً، ومن البحر الأسود وبحر قزوين شمالاً الى الخليج وشمالي شبه جزيرة العرب[٢] . وبقيت الخطوة الأخيرة لفرض السيطرة الفارسية على الاقتصاد العالمي حينذاك؛ وتتمثل تلك الخطوة في السيطرة علَى دول- المدن اليونانية، وإزاحة القوة الإغريقية التي كانت تشكّل رأس الرمح الأوربي في العالم القديم. وقد دشّن داريوس الأول تنفيذ ذلك المشروع، فعبر بجيوشه مضيق البوسفور على جسر من

---

١. هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٧٠ - ٧٢ . هـ. ج. ولز: معالم تاريخ الإنسانية، ٣٥٣/٢ عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٦٠٢ - ٦٠٣ .

٢. هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٤٠٥ , عبد الحميد زايد، الشرق الخالد: ص ٦٠٩ - ٦١١، ٦٢٢ - ٦٢٣ .

القوارب سنة (٥١٢ ق.م)، وسيطر على تراقيا (القسم الجنوبي الشرقي من البلقان)، ووصل الى نهر الدانوب شمالاً، ثم اتجه غرباً، وبسط سيطرته على مقدونيا، وأصبح القسم الشرقي من شبه جزيرة البلقان ولاية فارسية[١] .



(خريطة الإمبراطورية الأخمينية. Mehrdad Izady: The Kurds)

١. هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٥٣٦ . دياكونوف: ميديا، ص ٥١، ٢٩٧ . عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٥٩٩ – ٦٠٠، ٦٠٣، ٦١٦ – ٦١٨ .

وشرع داريوس في تنفيذ خطة السيطرة على بلاد اليونان سنة (٤٩٠ ق.م)، إذ وجّه حملة عسكرية بحرية ضخمة الى اليونان بقيادة داتيس Datis الميدي، ورست السفن الفارسية في خليج ماراثون Marathon، وتوجه الفرس براً نحو أثينا، فتصدّى لهم الإغريق قرب ماراثون، وألحقوا الهزيمة بالجيش الفارسي[١] .

وتوفي داريوس الأول سنة (٤٨٦ ق.م)، وتولّي العرش الفارسي ابنه إكسركسس الأول Xerxes (أحشويرش = أهاسويروس حكم بين ٤٨٦ – ٤٦٥ ق.م)، فكان عليه استكمال مشروع التمدد الفارسي في أوربا، بإخراج القوة الإغريقية من المعادلة الدولية حينذاك، فقاد بنفسه حملة برية وبحرية ضخمة سنة (٤٨١ ق.م)، وعبر الى البلقان براً وبحراً، ووصل الى أثينا في (١٧ سبتمبر/أيلول عام ٤٨٠ ق.م)، واقتحمت قواته المدينة، وفتكت بسكانها، وهدّمت دور العبادة، وأشعلت فيها النيران[٢] .

ومع ذلك لم يستسلم قادة الإغريق، وواجهوا الأسطول الفارسي بحراً، وألحقوا به هزيمة كبرى في معركة سالاميس Salamisفي (٢٠ سبتمبر/ أيلول سنة ٤٨٠ ق.م)، وألحق الإغريق بالفرس هزيمة أخرى في معركة ثلاتيا Plataeaسنة (٤٧٠ ق.م)، وعجزت الإمبراطورية الفارسية عن استكمال مشروعها التوسعي في جنوبي أوربا، بل إن الإغريق أخذوا زمام المبادرة، وانتقلوا من موقف الدفاع الى موقف الهجوم في عهد الملك الأخميني الخامس أرتاكسركسس الأول Artaxerxes (أرتحششتا الأول توفي سنة ٤٢٤ ق.م)[٣] .

ووصلت إستراتيجية الهجوم الإغريقية الى أعلى مستوياتها في عهد الإسكندر المكدوني (بين ٣٣٦ – ٣٢٣ ق.م)، إذ وحّد بلاد الإغريق في دولة واحدة سنة (٣٣٥ ق.م)، وأعدّ العدّة لغزو آسيا على ثلاث مراحل:

- الأولى غزو آسيا الصغرى (غربي تركيا حالياً).
- والثانية غزو سوريا وفلسطين ومصر.
- والثالثة غزو بابل وكردستان وفارس، أو ما يمكن أن نسميه مركز الإمبراطورية الأخمينية الفارسية.

---

١. وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٩٤/١ . عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٦٢٠ – ٦٢١ .

٢. هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٥٠٥ – ٥٢٢ . عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٦٣٢ – ٦٣٦ .

٣. وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٩٤/١ . عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٦٣٧ – ٦٤٠ .

ولا يخفى على المتأمل أن مسار الغزو الإغريقي كان يهدف الى السيطرة على فروع شبكة طريقي التجارة العالميين (طريق الحرير وطريق البخور)، وكان القضاء على النفوذ الفارسي هو السبيل الى ذلك[1] .

وكانت الإمبراطورية الفارسية تسير نحو الانحدار بعد وفاة إكسركسس (أحشويرش)، وتعاني من الصراعات والاغتيالات بين كبار القادة، وقد تولّى دارا الثالث (داريوس كودومانّوسDarius Codomannus) عرش فارس سنة (٣٣٥ ق.م)، وعبر الإسكندر بجيشه إلى آسيا الصغري سنة (٣٣٤ ق.م)، ولم يستطع الولاة الفرس هناك إيقاف الهجوم الإغريقي، وكانت الإدارة الفارسية تدرك أن سيطرة الإغريق على الساحل الشمالي والشرقي للبحر الأبيض المتوسط تعني السيطرة على النهايات الغربية لشبكة طريق الحرير وطريق البخور، وتعني وضع مصير الإمبراطورية الفارسية اقتصادياً في قبضة الدولة الإغريقية[2] .

وانطلاقاً من هذه القراءة- وهي قراءة صائبة- تولّي الشاه الأخميني دارا الثالث بنفسه معركة التصدي للإسكندر، لكنه كان أضعف من أن يقف في وجه القوة الإغريقية الناهضة، وفي سنة (٣٣٣ ق.م)، وبعد سلسلة من المعارك، أبرزها معركة إيسوس، انتزع الإسكندر آسيا الصغري من الفرس، ثم أتبعها بإنتزا ع سوريا ومصر، وكان ذلك تمهيداً لضرب القوة العسكرية الفارسية، من خلال تجفيف منابع مواردها الاقتصادية[3] .

وكانت معركة كوكاملا Gaugamela (في سهل أربيل Arbela خلال شهر أكتوبر/ تشرين أول ٣٣١ ق.م) حاسمة؛ فقد سدّد الإسكندر الضربة القاضية إلى القوة العسكرية الفارسية، وألحق الهزيمة بدارا الثالث، وتراجع دارا، ومعه بطانته وكبار قادته، إلى ميديا شرقاً، وأقام في أكباتانا (آمدان = هَمَذان) عاصمة الميديين العريقة، وتحصّن فيها[4] .

---

١. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٦٥٨ - ٦٦٠ .

٢. المرجع السابق، ص ٦٦٢ - ٦٦٣ .

٣. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٦٦٥ - ٦٧٥ . وجرت معركة إيسوس قرب جبل أمانوس، وهي تقع غربي منطقة عِفْرين Efrin الكردية في شمال غربي سوريا حالياً، واسم ذلك الجبل بالكردية: جيايى گور Çya ê Gewr.

٤. دياكونوف: ميديا، ص ٤١٥ . عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٦٧٦ - ٦٨٣ .

وجدير بالذكر أن مسار تراجع دارا الثالث يثير أكثر من سؤال، فلماذا لم يتوجّه الى بابل، مع أنها كانت عاصمة الفرس الثانية في بلاد الرافدين؟ بل لماذا لم يتوجّه الى العاصمة الإمبراطورية پرسيس Persis (ثرسيثوليس Persepolis /إصْطَخْر في التراث الإسلامي)، حيث مركز القيادة الإمبراطورية العليا؟ السبب أن ميديا كانت تشكل الستراب (الولاية) الثانية بعد ولاية فارس Persia من حيث المناعة والأهمية الإستراتيجية، ولوجود قوة قتالية كبيرة فيها، ولأهميتها اقتصادياً، باعتبار مرور طريق الحرير الرئيسي فيها (كان طريق الحرير يمر بأكباتانا ).

ولم تكن القيمة الإستراتيجية لمعركة گوگاملا تكمن في إلحاق الهزيمة بالملك الفارسي فقط، وإنما لأنها فتحت الطريق أمام أوربا- ممثّلةً باليونان- للتوسع جنوباً نحو الخليج الفارسي، وشرقاً نحو الهند وأفغانستان، وشمالاً نحو بحر قزوين، وبعبارة أخرى: إن معركة گوگاملا فتحت الطريق لأن يسيطر الإغريق على كامل الدائرة الجغرافية التي تقع فيها شبكة طريقي الحرير والبخور.

ولذلك لم يبدّد الإسكندر الوقت هدراً، وإنما توجه نحو مدينة بابل- عاصمة بلاد الرافدين- فسيطر عليها، ثم توجّه الى كل من سوسه وپرسيثوليس في ولاية فارس، وأمضى الربع الأول من سنة (٣٣٠ ق.م) في القصور الملكية الفارسية، ثم توجّه الى أطباتانا، ولما اقترب منها فر دارا شمالاً نحو بحر قزوين، على طريق أكباتانا - رَغَه (رَيْ)، فطارده الإسكندر على المسار ذاته، فتوجّه دارا شرقاً الى ولاية باكتريا (شمال غربي أفغانستان حالياً) عبر بارثيا، وظل الإسكندر يطارده، لكن رجال دارا سرعان ما قتلوا ملكهم، ووضعوا حداً لتلك المطاردة[١] .

والذي يهمّنا في هذه المجال أن الصراع بين أكبر قوتين عالميتين حينذاك (الإغريق والفرس) كان يدور في الجغرافيا التي تتوزع فيها شبكة طريقي الحرير والبخور، وكانت ساحة الصدام الأساسية بين القوتين هي آسيا الصغرى، وشرقي المتوسط (سوريا ولبنان وفلسطين)، ومصر؛ أي النهايات الغربية والشمالية لشبكة فروع طريقي الحرير والبخور، فقد كان من مصلحة الإمبراطورية الفارسية السيطرة على تلك النهايات، للقبض على أوربا - ممثّلة في الإغريق- من خناقها حينما تشاء، وكان من مصلحة الإغريق ألا يُمكّنوا الفرس من ذلك.

---

١٠ هـ. ج. ولز: معالم تاريخ الإنسانية، ٤٣٩/٢ . عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٦٨٣ - ٦٨٤ .

وهناك أكثر من دليل على أن هدف الإسكندر لم يكن مقتصراً على إزاحة الإمبراطورية الفارسية من طريقه، والحصول على كنوزها وخزائن أموالها، وإنما كان هدفه الأكبر هو السيطرة على فروع شبكة طريق الحرير في الشرق، فبذلك تضمن الإمبراطورية الإغريقية سيادتها على العالم القديم اقتصادياً.

ومن الأدلة على ذلك أن الإسكندر زحف بجيشه شمالاً وشرقاً حتى وصل الى سَمَرْقَنْد (تقع في أُوزبكستان) سنة (٣٢٨ ق.م)، كما أنه زحف شرقاً حتى عبر جبال هندوكوش، ووصل الى المنطقة التي تقع فيها كابول Kabul حالياً سنة (٣٢٧ ق.م)، وهذا يعني أنه وصل الى مشارف الصين، حيث تقع النهايات الشرقية لطريق الحرير[١] . وثمة دليل آخر على إستراتيجية الإسكندر، هو أنه توجّه من منطقة كابول جنوباً نحو پنجاب Painch Ab الأنهار الخمسة، وهي مقسّمة بين شمالي الهند وجنوبي باكستان حالياً، وقرر التوغل شرقاً، لكن الضباط والجنود رفضوا التقدم فلم ير بداً من العودة غرباً الى بابل، باسطاً سيطرته على بُلوشستان وغيرها من المناطق الجنوبية في إيران حالياً، علماً بأن الموانئ الواقعة على بحر الهند كانت حلقات في سلسلة طريق البخور المتوجّه من جنوبي شرقي آسيا الى اليمن عبر جنوبي الهند[٢] .

**صراعات أخرى:**

ظلت السيطرة على شبكة فروع طريقي التجارة (طريق الحرير، وطريق البخور) هي الهدف الذي دارت بسببه جميع الصراعات الكبري في القرون التي تلت الصراع الإغريقي – الفارسي، وتفادياً للإطالة أستعرض تلك الصراعات بإيجاز:

- البارث (برث= فرث= أشطان) شعب آرياني، كان يقيم في منطقة جنوبي بحر قزوين (شمالي إيران حالياً)، وقد ذكر الدكتور جمال رشيد أحمد أنهم من أصل سكيثي، وقضي البارث على الحكم السُلوقي (ورثة الإسكندر)، وسيطروا على مقاليد الأمور في غربي آسيا– وخاصة ميديا وبابل– حوالي خمسمئة عام، (بين ٢٥٠ ق.م – ٢٢٧ م)، وفي عهدهم كان الرومان قد حلّوا محل اليونان في قيادة أوربا، ودار الصراع بين القوتين الكبريين على شرقي البحر المتوسط، والمناطق العليا من بلاد الرافدين، ملتقي

---

١. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٦٨٧ – ٦٨٩ .

٢. المرجع السابق، ص ٦٩١ – ٦٩٧ .

شبكة فروع طريق الحرير وطريق البخور[1] .

– سيطر الساسانيون على غربي آسيا طوال أربعة قرون وربع القرن (٢٢٦ – ٦٥١ م)، وأسسوا إمبراطورية ضخمة شبيهة بالإمبراطورية الأخمينية، وكان الملوك الساسانيون مضطرين- بتأثير متطلبات الجغرافيا السياسية- الى تنفيذ إستراتيجية الأخمين تنفيذاً دقيقاً، في حين كان منافسوهم الرومان مضطرين بدورهم، وللسبب نفسه، الى تنفيذ إستراتيجية الإسكندر، وكان من الطبيعي أن يدور صراع طويل ومرير بين القوتين العظميين على الجغرافيا ذاتها التي تصارع عليها الأخمين والإغريق فيما سبق[2] .

والجديد في ذلك الصراع أنه امتد الى البحر الأحمر واليمن، بإعتبار أن طريق البخور كان يمر من تلك المناطق، ومعروف أن الأحباش (حلفاء الروم) سيطروا على اليمن بين سنتي (٥٢٥ – ٥٧٥ م)، وبني القائد أَبْرَهة الحبشي كاتدرائية فخمة اسمها القَلِيس (من اكليسيا اليونانية وتعني بِيعة)، وطالب العرب بالحج إليها بدل الحج الى الكعبة في مكة، وعمل لتنصير البلاد، فمدّ الساسانيون يد العون للزعيم اليمني سَيف بن ذي يَزَن سنة (٥٧٥ م)، ودحروا الأحباش، ثم سيطروا على اليمن، وظل الحكم الساساني قائماً في اليمن الى أن ظهر الإسلام[3] .

– بدءاً من حوالي سنة (٦٥١ م) حلّ العرب المسلمون محل الساسانيين في السيطرة على غربي آسيا، وكان عليهم- والحال هذه- مواجهة النفوذ الأوربي ممثَّلاً بالإمبراطورية الرومية (البيزنطية)، وكانت عاصمتها القسطنطينية (إستانبول حالياً)، وجدير بالملاحظة أن الجيوش الإسلامية سارت في المسارات ذاتها التي سارت فيها الجيوش الفارسية والإغريقية والرومانية سابقاً، وإليكم بعض الأدلة:

١ – أول ما بدأ به النبي محمد(عليه الصلاة والسلام) إقليمياً أنه أزال النفوذ الفارسي عن اليمن، وألحقها بالدولة الإسلامية الناشئة، وهذا هو التمدد على طريق البخور

---

٠١ بونغارد – ليفين: الجديد حول الشرق القديم، ص ,٤٨٧ وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٢١٦/١ . دياكونوف: ميديا، ص , ٢٥٠ مجموعة من الباحثين: كركوك، ص ١٦٥ . والسكيث قبائل بدوية، كانت مواطنه تقع شمالي البحر الأسود، وقد غزوا ميديا المركزية قبل عام (٦٧٤ ق.م.

٠٢ وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٣٤١/١ – ٣٥٠ . أحمد عادل كمال: الطريق إلى المدائن، ص ١٢٢ – ,١٢٦

٠٣ فيليب حتِّي وآخران: تاريخ العرب ص ٩٩ – ١٠٢ .

جنوباً، فموانئ اليمن كانت مراكز هامة للتجارة العالمية، ومن غير السيطرة عليها لا تبقي الحركة التجارية في الحجاز (مركز الدعوة الإسلامية) بمأمن من الاختناقات.

٢ - الخطوة التالية التي قام بها النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) هي التوجّه الى جنوبي بلاد الشام، حيث النفوذ الرومي، فوجّه حملة بقيادة زَيْد بن حارِثَة الى جنوبي بلاد الشام (الأردن حالياً) عُرفت بغزوة مُؤْتَة سنة ( ٨ هـ - ٦٢٩ م)، ولما أخفقت الحملة في تحقيق الهدف، قاد النبي بنفسه حملة أخرى عُرفت بغزوة تَبُوك سنة (٩ هـ - ٦٣٠ م)، وهذا يعني التمدد على طريق البخور شمالاً باتجاه سواحل شرقي المتوسط؛ إذ لا تكفي السيطرة على طريق البخور في اليمن جنوباً، وإنما لا بد من تأمين سلامة الحركة التجارية شمالاً باتجاه شرقي المتوسط أيضاً.

٣ - استكمل الخلفاء مشروع الفتوحات على محورين رئيسين:

أ - محور شرقي: باتجاه بلاد الرافدين، فكردستان، ففارس، فبلوشستان، فشرقي آريانا، فأفغانستان، الى حدود الصين، وهو المسار نفسه الذي سارت فيه جيوش الفرس والإغريق، وقد يبدو غريباً أن الجيوش الإسلامية حسمت الصراع ضد الساسانيين في بلاد الرافدين، وأن الملك الساساني الأخير يَزْدَجِرْد الثالث نقل مركز قيادته الى أكباتانا (آمدان = هَمَذان)، وتحصّن في جبال ميديا، ثم فر شرقاً في المسار الذي فر فيه الملك الأخميني الأخير دارا الثالث سنة (٣٣٠ ق.م)، هرباً من الإسكندر المكدوني، وإذا أخذنا المعطيات الجيوسياسية بالإعتبار وجدنا الأمر طبيعياً.

ب - محور غربي: باتجاه سوريا وسواحل البحر المتوسط، وانقسم هذا المحور الى مسارين: الأول شمالي باتجاه الأناضول، وشمالي كردستان، وأرمينيا. والثاني جنوبي باتجاه مصر وشمالي إفريقيا، وقد مرّ أن الآشوريين والأخمين والساسانيين تحركوا على هذه المحاور والمسارات ذاتها قبل العرب؛ وإذا أخذنا المعطيات الجيوسياسية بالاعتبار وجدنا الأمر طبيعياً أيضاً.

- سيطر العرب المسلمون على إسبانيا (الأندلس) في الزاوية الجنوبية الغربية من أوربا، وبذلوا محاولات جادّة للسيطرة على القُسْطَنطينية في الزاوية الجنوبية الشرقية من أوربا، وكان الهدف هو السيطرة على جنوبي أوربا من محورين: محور شرقي ينطلق من البلقان، ومحور غربي ينطلق من إسبانيا، ولعل هذا يذكّرنا

بمحاولات الملوك الأخمين قبل الميلاد بخمسة قرون.

- ما من دولة قوية نشأت في آسيا الوسطى إلا وسارت مع فروع طريق الحرير غرباً، وحاولت السيطرة على ميديا وقرينتها الأبدية بلاد الرافدين، تمهيداً للوصول الى فروع طريقي الحرير والبخور في آسيا الصغري وسوريا وسواحل شرقي التوسط، وكانت السيطرة على شرقي المتوسط تفرض حتمية السيطرة على مصر، لقطع الطريق على كل تهديد قادم من هناك، ومن الأدلة على ذلك:

١ - ظهرت الدولة السلُّجوقية التركية في شمالي أفغانستان وما يجاورها من بلدان آسيا الوسطي حالياً، وتمددت غرباً، فسيطرت على فارس وأذربيجان وشرقي كردستان والعراق، ولم يقر لها قرار حتى سيطرت على شمالي كردستان أيضاً، وقضت على الدولة الدُّوسْتكية (المَرْوانية)، ثم اندفعت من هناك بإتجاه كل من آسيا الصغرى غرباً وسوريا جنوباً.

٢ - ظهرت الدولة الخُوارَزْمية التركية في المناطق التي ظهرت فيها الدولة السلجوقية، وتمدّدت غرباً، وليس من العبث أن آخر سلاطينها جلال الدين خُوارِزْمي سيطر على أذربيجان، وغزا جنوبي كردستان، واقترب من مشارف بغداد، وحاول السيطرة على شمالي كردستان، تمهيداً للاندفاع نحو آسيا الصغري وسوريا، لكنه لقي مصرعه على يدي أحد الكرد، بسبب ما ارتكبه من مجازر وفظائع تقشعرّ لها الأبدان.

٣ - ظهر المغول في آسيا الوسطي بقيادة جنگيزخان، وسيطروا على فروع طريق الحرير في الصين ووسط آسيا، لكن حتمت عليهم الجغرافيا السياسية أن يتمددوا غرباً، للوصول الى شرقي المتوسط، وكُلّف هولاكو (حفيد جنگيزخان) بتنفيذ تلك المهمّة، وليس من العبث أن زحفهم لم يتوقف إلا في (عين جالوت) بفلسطين، وأن المماليك (حكام مصر حينذاك وتلامذة الأيوبيين) هم الذين تصدّوا لهم في معركة (عين جالوت)، وألحقوا بهم الهزيمة؛ لأن الزحف المغولي كان يهدف الى السيطرة على مصر نفسها[١] .

- كل تفسير للصراع الطويل بين الدولتين الصفوية والعثمانية، في القرن (١٦م)، يبقي

---

١. انظر إسماعيل عبد العزيز الخالدي: العالم الإسلامي والغزو المغولي.

ناقصاً ما لم تؤخذ بالحسبان رغبة الصفويين في السيطرة على شرقي المتوسط، ورغبة العثمانيين في السيطرة على طريق الحرير بجبال زاغروس[1] .

## نتائج ختامية:

شملت جولتنا هذه حوالي (٤٠٠٠) أربعة آلاف عام من عمر العالم القديم بشكل عام، ومن عمر آسيا الغربية بشكل خاص، ونخرج من هذه الجولة بما يلي:

١٠ تحت جلد كل ثقافة وسياسة توجد مصلحة ما .

٢٠ الثقافات تجلّيات نظرية (روحية/معنوية) للمصالح.

٣٠ السياسات تجلّيات للعلاقات بين أصحاب المصالح.

٤٠ ترجع جذور المصالح الى المحور الاقتصادي.

٥٠ يخضع المحور الاقتصادي لغريزة الاحتفاظ بالحياة.

٦٠ الجغرافيا هي الحاضن الوجودي لغريزة الاحتفاظ بالحياة.

٧٠ لفهم أحداث التاريخ لا بد من فهم العلاقة بين الجغرافيا والمصالح.

٨٠ كانت منطقة غربي آسيا في قلب أحداث العالم القديم؛ لأنها كانت في صميم العلاقة الوثيقة بين الجغرافيا والمصالح حينذاك.

٩٠ بلاد الكرد (كردستان) واقعة جغرافياً في قلب منطقة غربي آسيا؛ ولذلك كانت على الدوام داخلة في حسابات القوي الكبري التوسعية الأهداف؛ سواء أكانت تلك القوي غرب آسيوية، أم كانت قادمة من الشرق، أم كانت قادمة من الغرب الأوربي.

وقد كان لتبشيع صورة الكرد وأبلستهم، في العهود اللاحقة، علاقة بهذه الأحداث، تارة بشكل مباشر، وأخرى بشكل غير مباشر؛ وهذا ما سنتتبّعه في الصفحات التاليات من هذه الدراسة.

---

١٠ انظر عبّاس إسماعيل صبّاغ: تاريخ العلاقات العثمانية – الإيرانية، ص ٣٥- ٣٦ .

## ٢

# صراع الجبل والصحراء في تاريخ غربي آسيا

### فجر الحضارة:

قارئ التاريخ والنسر شبيهان، كلاهما بحاجة الى التحليق عالياً؛ أما النسر فكي يرصد أكبر رقعة ممكنة بحثاً عن الطرائد. وأما قارئ التاريخ فكي يرى أكبر رقعة ممكنة بحثاً عن الحقائق. أجل، إن قارئ التاريخ بحاجة الى التحليق عالياً في فضاء التاريخ؛ ليس عجزاً عن الإمساك بالتفاصيل، وإنما بحثاً عن معرفة المشهد الكلي؛ إذ بقدر ما يحيط بالمشهد الكلي يتحرر من الوقوع في أسر الجزئيات، ويتغلّب على جاذبية الانشغال بالفروع دون الأصول، ويغدو أقدر على معرفة العلاقات بين المكوّنات والعناصر، وأدقّ رؤية، وأصْوب رأياً، وأَقْوم حُكماً.

وطموحاً الى النسورية قمنا بجولة في تاريخ العالم القديم، وتأكد لنا حينذاك أنه كانت ثمة على الدوام مصالح وصراعات بين سادة العالم القديم، وكانت الجغرافيا هي موضوع الصراع؛ أقصد الجغرافيا من حيث الموارد، والجغرافيا من حيث الموقع الإستراتيجي (جيوپوليتيك)، وبدا واضحاً أن أكثر الصراعات شراسة دارت في المنطقة الواقعة بين جبال زاغروس شرقاً، وسواحل البحر الأبيض المتوسط غرباً، وكان الهدف الأكبر للقوي الكبري حينذاك هو السيطرة على شبكة طريقَي التجارة العالمية: طريق البخور، وطريق الحرير.

وعلمنا أيضاً أن الصراع على غربي آسيا كان حامياً جداً؛ لأن طريق الحرير كان يدخل هذه المنطقة عبر كردستان قادماً من الشرق، وكان طريق البخور يدخلها عبر اليمن من الجنوب الغربي، وكانت الشبكتان تتلاقيان على السواحل الشمالية والغربية للبحر الأبيض المتوسط.

ودعونا نواصل التحليق في فضاء التاريخ الغرب آسيوي، لكن على مسافة أقرب؛ لنركّز النظر على بلاد الرافدين بحوافّها الأربع: الحافّة الشرقية (كردستان). والحافّة

الجنوبية الغربية (شبه الجزيرة العربية). والحافّة الشمالية الغربية (سوريا الكبري/بلاد الشام). والحافّة الشمالية (الأناضول). ودعونا نركّز أكثر على ثلاث مناطق في غربي آسيا:

١. جغرافيا الجبال: وموقعها في الشرق والشمال، وهي تبدأ من مشارف الخليج العربي (الفارسي) في الجنوب الشرقي، وتمتد نحو الشمال الغربي الى مشارف جبال القوقاز وسواحل البحر الأسود، وتتألف من كتلتين ضخمتين بدءاً من الجنوب الى الشمال؛ الأولى جبال زاغروس، والثانية جبال طوروس.

٢. جغرافيا الصحراء: في الغرب والجنوب الغربي، وهي تتألف من شبه الجزيرة العربية في الدرجة الأولى، مع الامتدادات الصحراوية في شمال غربي بلاد الرافدين (العراق حالياً)، وفي جنوبي سوريا الكبري (بلاد الشام).

٣. جغرافيا السهول: وموقعها في الوسط بين كل من جغرافيا الجبال وجغرافيا الصحراء، وهي تبدأ من رأس الخليج في جنوبي بلاد الرافدين، وتمتد شمالاً وغرباً نحو وسط سوريا وسواحل شرقي المتوسط.

كانت هذه الجغرافيات الثلاث وراء صياغة القسم الأكبر من تاريخ غربي آسيا سياسياً وثقافياً، ولعل من الصحيح القول أيضاً بأنها كانت ذات تأثير بالغ في صياغة تاريخ البشرية على الصعيد الحضاري بشكل عام.

وإليكم بعض التفاصيل في هذا المجال.

فقد قسّم المؤرخون شعوب العالم الى مجموعات عرقية كبرى، أهمها: الشعوب الآرية (الهندو- أوربية) Indo- Europeans والشعوب السامية، والشعوب الحامية، والشعوب الأورال ألطائية، وشعوب جنوب شرقي آسيا، وشعب الإسكيمو، وذكر جيمس هنري برستد أن مصطلح (الآريين) يطلق على الفرع الشرقي من الشعوب الهندو-أوربية، ومن أبرز تلك الشعوب: الكرد، والفرس، والبلُوش، والباشْتو (موزّعون بين شمالي باكستان والنصف الجنوبي من أفغانستان)، والأرمن، أما الأوربيون فهم من الفرع الغربي[١] .

ورجّح معظم المتخصصين في التاريخ القديم، وفي علم السلالات، أن وسط آسيا، وتحديداً شرقي بحر قزوين، كان المهد الأصلي للشعوب الآرية، وذكر ول ديورانت أن

---

١. جيمس هنري برستد: انتصار الحضارة، ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

(زند أفستا)، وهو الكتاب الزردشتي المقدس، يأتي على ذكر هذا الموطن القديم، وذكر ديورانت أن ذلك الموطن يسمّي في الأفستا (إيريانا - فيضو)؛ أي (موطن الآريين)، وجاء وصفه "بأنه جنّة من الجنان"[1] .

ويبدو أن تلك المنطقة عانت من أزمة مناخية حادّة بين (٣٠٠٠ - ١٠٠٠ ق.م)، فحدث تقلّص في الموارد، واشتد التنافس بين القبائل الآريانية على الجيوب الباقية من (جغرافيا الوفرة)، وكان الحل هو الانزياح من (المكان الطارد)، والانتقال الى (المكان الواعد)، وقد ذكر هـ. ج. ولز عاملاً آخر كان وراء هجرة الآريين غرباً؛ هو نشوب الصراع بينهم وبين الشعوب المغولية (الطورانية) المجاورة للآريين شرقاً. وقد توجّه بعض الآريين جنوباً نحو شبه القارة الهندية، وتوجّه آخرون نحو غربي آسيا، وتوجّه فريق ثالث شمالاً وغرباً نحو أوربا الشرقية والغربية[2] .

وما يهمّنا الآن هو أمر القبائل الآريانية التي توجّهت غرباً، فقد انتهى بها المطاف الى الاستقرار في غربي آسيا، وتحديداً في السلاسل الجبلية الممتدة من مشارف الخليج الفارسي جنوباً الى مشارف بحر قزوين وجبال القوقاز ومشارف البحر الأسود شمالاً؛ وهي تضم سلاسل جبال زاغروس وجبال طوروس، ويفيد المؤرخون أن هذه المنطقة وحوافّها الغربية كانت مهد فجر الحضارة في غربي آسيا.

**أدلّة تاريخية:**

وإليكم بعض ما ذكره المؤرخون بشأن الحضارة في غربي آسيا:

- كانت آسيا الأمامية أيضاً من أهم مراكز تدجين الحيوانات، وأصبحت منطقة تاوره- زاغروس المركز الأساسي لتدجين الماعز والأغنام، حيث ظهر الرعي في الألف الثامن قبل الميلاد، وانحصرت عملية تدجين الماعز بلا شك في جنوب جبال زاغروس، بينما كان تدجين الأغنام يجري في شمالها... ففي جنوب الأناضول، وربما أيضاً في شرقه، كان الناس على تخوم الألفين السابع والسادس (قبل الميلاد) قد دجّنوا التيوس الجبلية، ثم انتقلوا الى تربية الأبقار"[3] .

---

١. ول ديورانت: قصة الحضارة، ٣٩٩/٢ .

٢. هـ. ج. ولز: معالم تاريخ الإنسانية، ٣٠٨/٢، ٣٠٩ .

٣. بونغارد - ليفين: الجديد حول الشرق القديم، ص ٦٢ .

– لم تكن آسيا الأمامية من أقدم مراكز الزراعة والرعي فحسب، بل كانت الموطن القديم لصناعة التعدين؛ إذ توفرت هنا في الألف السابع (قبل الميلاد) المقدمات الإنتاجية لنشوء التعدين"[1] .

– عثر المنقّبون أثناء حفريات مستوطنة جارمو في العراق (حوالي عام ٦٥٠٠ ق.م) على ١١٥٣ كرة، و ٢٩٨ قرصاً، و ١٠٦ مخاريط"[2] .

– حضارة حلف Halaf: سُمّيت هذه الحضارة باسم موقع تل حلَف (شمال شرقي الموصل)، ويقول جيمس ميلارت: "لقد انتشرت هذه الحضارة على شكل قوس من نهر الفرات الى الزاب الأكبر، وبينما كانت الحدود الجنوبية لهذه الحضارة محددة بشكل دقيق فإنه من المحتمل أن تكون جبال طوروس حدودها الشمالية، مع جيوب منتشرة هنا وهناك في الهضبة الأناضولية الى الشمال من هذه الجبال"[3] .

– قال جيمس ميلارت أيضاً بشأن حضارة حلَف: "تعتبر حضارة حلَف من الحضارات النشيطة بشكل خاص، ... ومن المحتمل أن يكون الذين أسسوا هذه الحضارة هم القادمون الجدد من المناطق الشمالية، وهناك احتمال بأن تكون منطقة الرافدين التركية هي الموطن الأصلي لهذه الحضارة"[4] .

– ذكر جيمس ميلارت أيضاً أن ثمة تشابهاً كبيراً بين حضارة حلَف في أواخر الألف السادس وأوائل الألف الخامس قبل الميلاد، وحضارة النيوليث وبدايات العصر النحاسي، وأن حضارة حلف اندثرت ما بين (٤٤٠٠ – ٤٣٠٠ ق. م)[5] .

– حضارة تپه جيان :Tepe Giyan "إن حضارة تپه جيان، في منطقة زاغروس، ربما تكون لعبت دوراً هاماً في نقل الحضارة بين سامراء [= سومر] ومنطقة حلَف شمال نهر دِيالي ومناطق سوسا (في عيلام). ولم تسيطر هذه الحضارة على البوّابات

---

٠١ المرجع السابق، ص ٦٤ .

٠٢ المرجع السابق، ص ١٠١ .

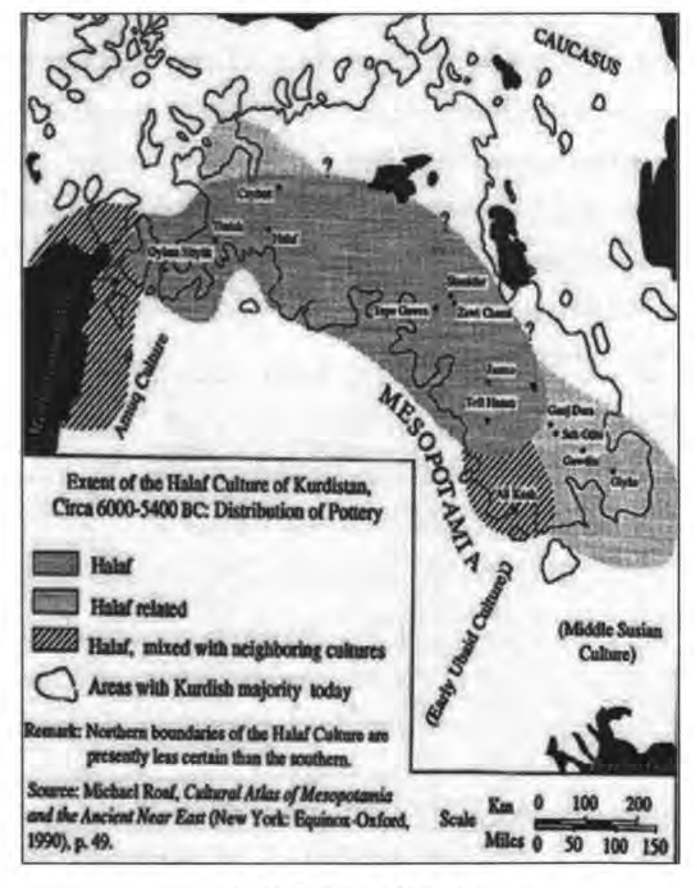
٠٣ جيمس ميلارت: أقدم الحضارات في الشرق الأدنى، ص ١٥٧ .

٠٤ المرجع السابق، ص ١٥٧ . ومنطقة الرافدين التركية هي المنطقة الكردية في جنوب شرقي تركيا حالياً، وتسمى في كتب التراث الإسلامي (الجزيرة العليا).

٠٥ المرجع السابق، ص ١٦٣ .

الفارسية والطرق العامة في بلاد الرافدين حتى كَرْمَنْشاه وهَمَذان فقط، لكنها تحكّمت بالمنطقة الواقعة من شمال بلاد الرافدين حتى عَرَبستان"[1] .

إن هذه الأدلة، ومثلها كثير، لا تدع مجالاً للشك في أن سفوح جبال زاغروس وطوروس، والمناطق القريبة من سفوحها الغربية والجنوبية والشمالية، كانت البقعة التي ظهرت فيها أولى بواكير الحضارة في غربي آسيا، وإذا دققنا النظر في تلك الجغرافيا يتضح أنها الجغرافيا التي استقر فيها أسلاف الكرد منذ خمسة آلاف عام على أقل تقدير، وما زال الكرد يقيمون فيها؛ أي أنها (كردستان).




( جغرافيا حضارة حلف )

---

١٠ المرجع السابق، ص ٩٣ . وعربستان هي خُوزِستان، وتسمّى في كتب التراث الإسلامي (الأهْواز)، في جنوب غربي إيران حالياً.

**أدلة دينية:**

ولعل ثمة من لا يقتنع بالحقائق ما لم تؤكدها النصوص الدينية، ولهؤلاء نقدّم ثلاثة أدلة؛ اثنان من التوراة، والثالث من القرآن، وجميعها يؤكد أن ظهور فجر البشرية والحضارة كان في جغرافيا الجبال بغربي آسيا، وهي الجغرافيا التي يقيم فيها الكرد، وعُرفت باسم (كردستان):

١ – الدليل التوراتي الأول: "وَجَبَلَ الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ تُرَابًا مِنَ الأَرْضِ، وَنَفَخَ فِي أَنْفِهِ نَسَمَةَ حَيَاة. فَصَارَ آدَمُ نَفْسًا حَيَّةً. وَغَرَسَ الرَّبُّ الإِلهُ جَنَّةً فِي عَدْنٍ شَرْقًا، وَوَضَعَ هُنَاكَ آدَمَ الَّذِي جَبَلَهُ. وَأَنْبَتَ الرَّبُّ الإِلهُ مِنَ الأَرْضِ كُلَّ شَجَرَةٍ شَهِيَّةٍ لِلنَّظَرِ وَجَيِّدَةٍ لِلأَكْلِ، وَشَجَرَةَ الْحَيَاةِ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ، وَشَجَرَةَ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ. وَكَانَ نَهْرٌ يَخْرُجُ مِنْ عَدْنٍ لِيَسْقِيَ الْجَنَّةَ، وَمِنْ هُنَاكَ يَنْقَسِمُ فَيَصِيرُ أَرْبَعَةَ رُؤُوس: اسْمُ الْوَاحِدِ فِيشُونُ، وَهُوَ الْمُحِيطُ بِجَمِيعِ أَرْضِ الْحَوِيلَةِ حَيْثُ الذَّهَبُ. وَذَهَبُ تِلْكَ الأَرْضِ جَيِّدٌ. هُنَاكَ الْمُقْلُ وَحَجَرُ الْجَزْعِ. وَاسْمُ النَّهْرِ الثَّانِي جِيحُونُ، وَهُوَ الْمُحِيطُ بِجَمِيعِ أَرْضِ كُوشٍ. وَاسْمُ النَّهْرِ الثَّالِثِ حِدَّاقِلُ، وَهُوَ الْجَارِي شَرْقِيَّ أَشُّورَ. وَالنَّهْرُ الرَّابعُ الْفُرَاتُ"[١] .

٢ – الدليل التوراتي الثاني: بشأن الطوفان، وسفينة نوح: "ثُمَّ ذَكَرَ اللهُ نُوحًا وَكُلَّ الْوُحُوشِ وَكُلَّ الْبَهَائِمِ الَّتِي مَعَهُ فِي الْفُلْكِ. وَأَجَازَ اللهُ رِيحًا عَلَى الأَرْضِ فَهَدَأَتِ الْمِيَاهُ. وَانْسَدَّتْ يَنَابِيعُ الْغَمْرِ وَطَاقَاتُ السَّمَاءِ، فَامْتَنَعَ الْمَطَرُ مِنَ السَّمَاءِ. وَرَجَعَتِ الْمِيَاهُ عَنِ الأَرْضِ رُجُوعًا مُتَوَالِيًا. وَبَعْدَ مِئَةٍ وَخَمْسِينَ يَوْمًا نَقَصَتِ الْمِيَاهُ، وَاسْتَقَرَّ الْفُلْكُ فِي الشَّهْرِ السَّابعِ، فِي الْيَوْمِ السَّابعَ عَشَرَ مِنَ الشَّهْرِ، عَلَى جِبَالِ أَرَارَاطَ"[٢] .

٣ – الدليل القرآني: بشأن قصة الطوفان واستقرار سفينة نوح: {وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}[٣] .

---

١. العهد القديم، سفر التكوين، الأصحاح ٢، الآيات ٨ – ١٤ وانظر سامي سعيد الأحمد: السومريون وتراثهم الحضاري، ص ٢٠ . والمُقْل: ثمر شجرة الدَّوْمَة، ونوع من الصَّمْغ. وحجر الجَزْع: خَرَز فيه سواد وبياض.

٢. العهد القديم، سفر التكوين، الأصحاح ٨، الآيات ١ – ٤ وانظر فرنسس دافدسن وآخران: تفسير الكتاب المقدس، ص ١٤٨ .

٣. سورة هود، الآية ٤٤ .

وإذا أخذنا في الحسبان أن الجنّة التوراتية ليست سماوية، وإنما هي جنّة أرضية، وأن نهر حِدّاقِل هو نهر (دجلة)، ودققنا النظر في الجغرافيا التي تقع فيها منابع أكبر نهرين في غربي آسيا (الفرات ودجلة)، اتضح لنا، دون أدني شكّ، أن (جنّة عَدن) وقسماً كبيراً من (جبال أرارات) المذكورة في التوراة، كانت في القسم الشمالي الغربي من بلاد الكرد (شرقي تركيا حالياً) وهي ذاتها الجغرافيا التي كان يقيم فيها الحوريون، منذ نهاية الألف الثالث قبل الميلاد، وهم من أسلاف الكرد القدماء[1] .

ولا يختلف الأمر كثيراً إذا اعتمدنا الرواية القرآنية بشأن موقع الجبل الذي وقفت عليه سفينة النبي نوح، فجبل (جُودي) معروف بهذا الاسم الى الآن، وهو يقع قرب جزيرة بُوتان Botan المعروفة في مصادر التراث الإسلامي باسم (جزيرة ابن عُمَر)؛ أي أنه يقع في الجغرافيا الكردية بجنوب شرقي تركيا حالياً، مع العلم أن ثمة احتمالان لأصل اسم (جودي): الأول أنه مأخوذ من (جُوتي = طوتي)، وهو اسم فرع كبير من أسلاف الكرد. والثاني أنه مركّب من الكلمتين الكرديتين (جُهْ Goh= مكان)، (دِي Di= وَجَد)؛ أي (المكان المختار، المستقَر)[2] .

**جبليون أوائل (السومريون):**

إن الذين يخافون مواجهة الحقائق هم الأكثر هرباً من قراءة التاريخ بواقعية، والأكثر حرصاً على التغييب والتحوير، والأكثر تضليلاً للأجيال، والأكثر تخريباً لذاكرات الشعوب، وكي نقرأ التاريخ بواقعية، ينبغي أن نتحلّي بالشجاعة العلمية؛ لأننا قد نكتشف حقائق لا تريحنا دينياً، وقد تُغضبنا وتثير فينا الحميّة قومياً، بل قد تصدمنا، فتهدّم منظومات كاملة من القناعات المخزَّنة في وعينا ولاوعينا.

ومن الحقائق في تاريخ غربي آسيا ذلك الصراع المستمر- جهراً أو خفية- منذ الألف الرابع قبل الميلاد؛ إنه الصراع بين أقوام (جغرافيا الجبال) وأقوام (جغرافيا الصحراء)، وكان موضوع الصراع هو (جغرافيا السهول) في بلاد الرافدين، وفي امتداداتها غرباً بإتجاه شرقي البحر الأبيض المتوسط، عبر النصف الشمالي من سوريا في أغلب الأحيان.

---

١. جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٢٩ .

٢. انظر الشيخ الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ٢٢٣/١٠ .

وفي بعض كتاباتنا سمّينا ذلك الصراع (تنافساً) من باب التلطيف ليس غير، وإلا فإنه كان صراعاً طويلاً وضارياً، طحنت رحاه أرواح الملايين من أرواح شعوب بيتنا الغرب آسيوي خلال خمسة آلاف عام، وسفك كثيراً من دموع أجدادنا وجداتنا، وابتلع كمّاً هائلاً من ثرواتنا، وأحسب أن بعض فصول ذلك الصرع ما زال قائماً الى يومنا هذا، ويبدو أنه مرشَّح للاستمرار أجيالاً أخرى؛ ما لم تَحُلّ (ثقافة الإخاء) في بيتنا الكبير محلّ (ثقافة الإلغاء).

ودعونا نوضّح الأمر أكثر:

إن أقوام جغرافيا الصحراء (شبه الجزيرة العربية) كانوا يفتقرون الى موارد الحياة الكافية لهم ولأنعامهم، وبما أن البحر يطوّقهم من الغرب (البحر الأحمر)، ومن الجنوب (بحر العرب)، ومن الشرق (الخليج)، فكان ثمة منفذان وحيدان متاحان لهم: الأول في الشمال الشرقي (بلاد الرافدين)، والثاني في الشمال الغربي (بلاد الشام)، فهناك المناخ المعتدل، والأمطار الكافية، وكثير من السهول الكبري الخصبة، وبعض الأنهار (الفرات ودجلة)، وأطلق المؤرخون على الأقوام التي خرجت من شبه الجزيرة العربية اسم (الشعوب السامية)، متأثرين بالمصطلح التوراتي، وسمّاهم بعض المؤرخين حديثاً باسم (أقوام الجزيرة العربية)[1] .

أما أقوام جغرافيا الجبال (زاغروس وطوروس وحوافّها المتاخمة للقوقاز) فكانوا بحاجة أيضاً الى التمدد باتجاه الغرب، نحو بلاد الرافدين وشمالي سوريا؛ إذ صحيح أن مناطقهم كانت وفيرة الأمطار كثيرة الأنهار، لكنها كانت كثيرة الثلوج شديدة البرد، عدا أن الرقعة الصخرية هي الغالبة على بلادهم، وكانوا بحاجة الى السهول المتاخمة لجبالهم، يتدفق إليها الفيض السكاني، وتكون مرتعاً للقطعان في الشتاء القارص، وكان أقوام الجبال أولئك من الزاغروسيين الذين اندمج بهم الآريون لاحقاً، وهم التكوين الأساسي الذي أنتج الشعب الكردي في النهاية. وهكذا بدأ الصراع الطويل بين الجبال والصحراء.

وإليكم بعض تفاصيل ذلك الصراع:

كان السومريون أقدم شعب جبلي منتِج للحضارة في غربي آسيا، وكان ذلك في أواخر الألف الرابع وأوائل الألف الثالث قبل الميلاد، وقد انحدر هذا الشعب من جبال

---

٠١ انظر عبد الحكيم الذنون: الذاكرة الأولى، ص ٦٤ .

زاغروس في الشمال، وتحديداً في منطقة حضارة حلَف، واستقر في جنوبي بلاد الرافدين، بدءاً من جنوبي بغداد حالياً الى الخليج، حيث السهول الرسوبية الخصبة، وحيث يمر نهرا دجلة والفرات، وذكر الدكتور أحمد فخري (أستاذ تاريخ مصر الفرعونية والشرق القديم)، أن حضارة بلاد سومر فاقت الحضارة في مصر حينذاك، لكن فيما بعد تقدمت عليها الحضارة المصرية؛ بسبب وحدة البلاد ووجود حكم مركزي بقيادة ملك واحد[1] .

وسومر أقدم اسم أُطلق على جنوبي ميزوپوتاميا Mesopotamia)، وجاء ذكر بلاد سومر في التوراة باسم (سهل شنْعار)، بشأن الملك نمْرُود (حسب الصيغة التوراتية): "وَكَانَ ابْتِداءُ مَمْلَكَتِهِ بَابِلَ وَأَرَكَ وَأَكَّدَ وَكَلْنَةَ، فِي أَرْضِ شِنْعَارَ"[2] . وتسمّى (سومر) بالأكّادية (شومرد)، وتُكتب بالمصطلح المسماري (كي- إن- جي)؛ أي (البلاد السيدة)[3] . وليس الآن موضع الإجابة عن السؤال الآتي: هل السومريون من أسلاف الكرد القدماء؟ فتلك مهمة ينبغي أن تخضع لكثير من التنقيب والتحليل؛ لكن مع ذلك لا تفوتنا الإشارة سريعاً الى أن موطن السومريين، قبل الاستقرار في ميزوپوتاميا (بلاد الرافدين)، كان في جبال زاغروس، وخاصة المنطقة التي ظهرت فيها حضارة حلَف (قلب كردستان)، وهذا أمر اتفق عليه معظم من تناول تاريخ السومريين بالبحث.

ولنعد الى مسارنا الأساسي، ألا وهو الزحف الجبلي الأول- متمثّلاً بالسومريين- الى ميزوپوتاميا، وصحيح أن السومريين أقاموا منظومة حضارية متكاملة، دينياً، وأدبياً، وزراعياً، لكن سيكولوجيا الجبال، بما تعنيه من شدة الاعتداد بالذات، وعدم الرضوخ للآخر، والعناد في الموقف، فعلت فعلها، فحالت دون قيام دولة مركزية سومرية طوال خمسة قرون، رغم شعور السكان بأنهم من جنس واحد، وظلت ميزپوتاميا موزَّعة بين دول- مدن سومرية، أشهرها كِيش، ونِيثور، وآداب، ولجَش، وأُورُوك، ولارْسا، وأُور، وأَرِيدُو، وعجزت دول المدن السومرية من إنجاز مشروع توسعي إمبراطوري في المناطق المجاورة[4] .

---

١. انظر صمويل كريمر: من ألواح سومر، ص ٤٠، المقدمة.

٢. العهد القديم، سفر التكوين، الأصحاح العاشر، الآية ١٠ .

٣. عبد الحكيم الذنون: الذاكرة الأولى، ص ٢٤ .

٤. سبتينو موسكاتي: الحضارات السامية القديمة ص ٦٧ . د. عبد العزيز صالح: الشرق الأدنى القديم مصر والعراق، ١/ ٤٠ . عبد الحكيم الذنون: الذاكرة الأولى، ص ٥١ .

## أكّاديون وگوتيون:

بينما كان الجبليون السومريون يضعون قواعد أول حضارة في غربي آسيا، كانت القبائل السامية تتنقل في بوادي شبه الجزيرة العربية، وخاصة في الجنوب الغربي من بلاد الرافدين، وكانت تعاني من ندرة الأمطار، وقلة مساحات الغطاء النباتي المناسب لتربية الحيوانات، وتحوّل بلادها الى (جغرافيا الجوع)، مما أدّي الى تفاقم الصراعات فيما بين تلك القبائل، فتوجّه بعضها نحو (جغرافيا الشِّبَع) في التخوم الشمالية الشرقية من بلادها؛ أقصد بلاد ما بين النهرين (العراق بعدئذ).

وكان الأكّاديون هم الطليعة السامية التي بدأت الزحف نحو بلاد الرافدين قبل حوالي (٢٥٠٠) ألفين وخمسمئة سنة قبل الميلاد، واستقرّت القبائل الأكّادية بدايةً في غربي نهر الفرات، بجوار المناطق التابعة لدول المدن السومرية في أَرِيدو ونِيثُور وأُور وغيرها، وتعلمت من السومريين كيف تنظّم نفسها، وتنتقل من ثقافة البداوة الى ثقافة الزراعة، وتنتقل من نظام القبيلة الى نظام الدولة.

ويبدو أن شرائح من النُّخب الأكّادية اندمجت في الحياة السياسية والاقتصادية لبعض دول- مدن سومر الشمالية، إذ نجد شخصاً أكّادياً- هو سرجون- يصل الى منصب ساقي الملك السومري في دولة- مدينة كيش، وقيل بل كان ضابطاً كبيراً في جيشها، وقد وحّد صفوف الأكّاديين، وقادهم لخوض الصراع ضد دول المدن السومرية، وحقق نصراً حاسماً على لوگال زاگيزي Lugal zaggisi ملك أوروك حوالي عام (٢٣٥٠ ق.م)، أسره ووضعه في قفص على بوّابة معبد الإله (إنليل) في مدينة نيثور[١] .

وكان لوگال زاگيزي أقوى ملوك سومر حينذاك، وكان الملك السومري الوحيد الذي فرض سلطته بالقوة على معظم مدن الدول السومرية، ولم يكتف بالسيطرة على جنوبي بلاد الرافدين، وإنما سيطر على شماليها أيضاً، وصار الحاكم الذي يمتد نفوذه من الخليج (البحر الأسفل) الى البحر الأبيض المتوسط (البحر الأعلي) حسب زعمه، وفي الواقع لم يكن الأمر كذلك، وبعد انتصار سرجون عليه كان من الطبيعي أن يصبح هذا الأخير أقوى ملك في بلاد الرافدين جميعها، وكان من الطبيعي أيضاً أن يفرض سيطرته على جميع مدن الدول السومرية[٢] .

---

١. سبتينو موسكاتي: الحضارات السامية القديمة، ص ٦٧ . عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٦٣ .

٢. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٦٣ .

وفي عهد سرجون الأول (٢٣٧٠– ٢٢٣٠ ق.م) أسست شعوب الصحراء- متمثلةً في الأكّاديين- أول دولة مركزية قوية في بلاد الرافدين جنوباً وشمالاً، باسم الدولة الأكّادية؛ نسبة الى العاصمة أكّاد، كما ظهر أول لقب ملكي بصيغة (ملك جهات العالم الأربع) في غربي آسيا، ومن يحمل لقباً عولمياً كهذا اللقب فلا بدّ أن يكون صاحب مشروع توسّعي إمبراطوري عالمي؛ وهذا في حدّ ذاته أمر جدير بالتأمل العميق[١] .

وقد نفّذ سرجون مشروعه الإمبراطوري بحزم وقسوة، فسيطر على بلاد الرافدين جميعها، وضمّ إليها عِيلام (في جنوب غربي إيران حالياً، ولعلها الاسم القديم لمنطقة لورستان الكردية)، وهاجم مواطن الطوتيين في زاغروس (إقليم كردستان العراق حالياً)، وتوغّل شمالاً في الأناضول وآسيا الصغرى (غربي تركيا حالياً)، واجتاح الممالك الأمورية في سوريا، ووصل الى البحر الأبيض المتوسط، وثمة من يقول: إنه وصل الى جزيرة كريت في المتوسط، كما أنه توغّل بغزواته جنوباً نحو بحر عُمان[٢] .

وحافظ خلفاء سرجون (ابنه رِيمُوش Rimush، وابنه الآخر مانِشْتُوسو Manishtusu) على ميراثه الإمبراطوري، وسحقوا ثورات الشعوب المقهورة، غير أن حفيده نارام سين بن مانِشْتوسو- حكم بين (٢٢٦٠ – ٢٢٢٣ ق.م)[٣] كان الأبرز في هذا المجال، إذا أعاد الشعوب الثائرة بالحديد والنار الى الحكم الأكّادي، وضمّ منطقة اللولوبيين (من أسلاف الكرد) في جبال زاغروس الى إمبراطوريته، كما ضمّ إليها المناطق الجبلية الشمالية (أرمينيا بعدئذ)، واتخذ لقب شارت كبرات أربعيم (ملك الجهات الأربع)، ولقب شار كشاتي (ملك العالم)، ويبدو أن اللقب الأخير مصاغ باللغة السومرية، ومرة أخرى نجد الصيغة الكردية في هذا اللقب من خلال كلمة (شار= مدينة) و(كشاتي= الكل)[٤] .

وجاء دور الگوتيين الجبليين في الرد على الأكّاديين الصحراويين، وشعب گوتي (غوتي = جُوتي = جُودي) هو من أقوام زاغروس التي كانت في كُوتيوم (ميديا بعدئذ)،

---

١. وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٩٢/١ . عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٦٨، ٧٢ .

٢. عبد الحكيم الذنون: الذاكرة الأولى، ص ٦٨ .

٣. ثمة اختلاف في تواريخ حكم ملوك أكّاد، وخاصة تاريخ حكم نارام سين، فهو عند جرنوت فيلهلم (نحو ٢١٥١ – ٢١١٥ ق.م)، وعند نائل حنون (٢٢٥٤ – ٢٢١٨ ق.م). انظر جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٣٥، ونائل حنون: حقيقة السومريين، ص ١٦٩ .

٤. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٦٥ . عبد الحكيم الذنون: الذاكرة الأولى، ص ٧٥ .

وحسب رأي أغلب الباحثين كان الطوتيون يعيشون شرقي منطقة لوللو، ولعلها منطقة لورستان، ويبدو أنهم كانوا الأكثر تماسكاً وقوة بين فروع أسلاف الكرد حينذاك، فكانوا الأقدر على الثورة، وذكر دياكونوف أن الملك الأكّادي نارام سين قُتل على أيديهم، وأنهم ظلوا يخوضون الصراع ضد السلطات الأكّادية، رغم قلة عدد جيشهم وبدائية أسلحتهم، وذلك "يعود بالأساس الى أن القادة الطوتيين تمكّنوا من جمع شمل القبائل في قومهم في اتحاد قوي تام"[١] .

وقد سيطر الطوتيون على سومر وأكّاد حوالي قرن من الزمان، بين (٢٢٣٠ - ٢١٢٠ ق.م)، وبين (٢٢٧٠ -٢١٤٥ ق.م) حسب لانجر أي حوالي (١٢٥) سنة، و(٩١) سنة حسب دياكونوف، ثم انسحبوا الى جبالهم ثانية، تحت ضغط قوة سومرية- أكّادية جديدة، قادها أُور- نَمّو Ur- Nammu السومري (٢١١٢ - ٢٠٩٥ ق.م)، مؤسساً سلالة أور الثالثة (٢١١٢ - ٢٠٠٤ ق.م)[٢] .

## بابليّون وكاشّيّون وحُوريّون:

ثم سيطر شعب صحراوي الأصل جديد على بلاد الرافدين، هو الشعب البابلي، وقد بدأ العصر البابلي القديم (٢٠٠٠ - ١٥٩٥ ق.م)، واتخذ ملوك هذا الشعب مدينة بابل على الفرات (شمالي سومر وأكّاد) عاصمة لهم، وأشهر ملوكهم هو حمورابي الذي حكم بين (٢١٢٣- ٢٠٨١ ق.م) حسب وِل ديورانت، أو بين (١٧٩٢ - ١٧٥٠ ق.م) أو بين (١٧٢٨ - ١٦٨٦ ق.م) حسبما ذكر مؤرخون آخرون، وكما هي العادة لم يكتف البابليون بالسيطرة على بلاد الرافدين جنوباً وشمالاً، وإنما بسطوا سيطرتهم على المناطق الشرقية في عيلام و طوتيوم (ميديا بعدئذ) أيضاً؛ أي على مناطق جبال زاغروس[٣] .

لكن فرعاً آرياً جبلياً جديداً، متمثلاً في الكاشّيين (كاشّو= كاسّي= كاسّيت)، زحف من الجبال الشرقية، من منطقة لورستان في زاغروس، بقيادة زعيمهم طانداش (جان داش) Gandash، ويقدّر زمن حكمه في حدود (١٦٨٠ - ١٦٦٥ ق.م). وفي عهد الملك آطوم الثاني Agum II، في حدود (١٥٨٠ ق.م)، أو (١٥٣٢ ق.م)، هبط الكاشيون من حُلوان (هاوْرامان)، على طريق خانقين، الى وسط بلاد الرافدين وجنوبيها، واحتلّوا

---

١. دياكونوف: ميديا، ص ١٠٩، ١١٠ .

٢. وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ١/ ٥٥، دياكونوف: ميديا، ص ١١٠ .

٣. ول ديورانت: قصة الحضارة، ٢/ ٣٩٤ . عبد الحكيم الذنون: الذاكرة الأولى، ص ٩٥ .

مدينة بابل، وكان الحثيون سبقوهم إليها، وتراجعوا بعدئذ، وأسس الكاشيون في بابل سلالة حاكمة تسمّي (سلالة بابل الثالثة)، وورثت معظم ممتلكات الدولة البابلية، واتّخذ آطوم الثاني لقب (ملك أكّاد وبابل)[1] .

وجاء في ثبت الملوك ذكرُ (٣٦) ملكاً كاشيّاً، حكموا حوالي خمسة قرون، يقدّرها المؤرخون في حدود (١٦٨٠ - ١١٥٧ ق.م)، وثمة اختلاف في مدة حكمهم؛ إذ يقدّر بعضهم أنه دام في جنوبي بلاد الرافدين حوالي (٤٠٠) سنة، في الفترة (١٥٨٠ - ١١٥٧ ق.م) أو (١٥٣٢ - ١١٦٠ ق.م)، وفي عام (١١٥٧ ق.م) زمن (إنليل نادن آخي) آخر ملوك الكاشيين، ضعفت المملكة الكاشّية، فهاجمها العيلاميون، وقضوا عليها، وما لبثت سلالة بابلية جديدة، هي السلالة الرابعة (١١٥٦ - ١٠٢٥ ق.م)، أن برزت وانتزعت البلاد من العيلاميين[2] .

وفي الوقت الذي كان فيه الكاشّيون يهيمنون على بلاد الرافدين برز شعب جبلي آخر في غربي آسيا، هو الشعب الحوري (Horites, Hurrians)، وقد جاء الحوريون، حوالي نهاية الألف الثالث قبل الميلاد، من المناطق الجبلية في شمال شرقي بلاد الرافدين، وذكر جرنوت فلهلم أن موطنهم الأول كان هو المجري العلوي لنهر دجلة وروافده الشرقية؛ أي شمال شرقي بحيرة وان (في شمال شرقي تركيا حالياً)، وسمّيت أحياناً (بلاد نايري)، وقد "لعبوا دروراً مهماً، في أواسط الألف الثاني قبل الميلاد، في نقل هذه الحضارة الى سوريا وآسيا الصغري"[3] .

وفي أوائل القرن السابع عشر قبل الميلاد تحرك الحوريون جنوباً وغرباً، وأسسوا عدداً من الإمارات، ثم برز فرع من الحوريين هم الميتّانيون، فوحّدوا الإمارات الحورية تحت لواء مملكة مِيتّاني، وامتد نفوذ تلك المملكة من كركميش (على الحدود السورية التركية) على الفرات حتى أرّابخا (كركوك) شرقاً، وسيطر الميتّانيون على حلب عاصمة الشمال السوري حوالي سنة (١٤٧٥ ق.م)[4] .

---

١. دياكونوف: ميديا، ص ١٢٧ .

٢. دياكونوف: ميديا، ص ١٢٧ . سبتينو موسكاتي: الحضارات السامية القديمة، ص ٦٨، عبد الحكيم الذنون: الذاكرة الأولى، ص ١٠٣، ١٠٤ .

٣. جرنوت فيلهلم: الحوريون ، ص ٢٤ - ٢٩ .

٤. جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٣٥ . عدنان الحديدي، معاوية إبراهيم: تاريخ الشرق الأدنى القديم، ص ٣٤٦ .

وفي مرحلة من المراحل أصبح الميتّانيون قوة كبرى في غربي آسيا، تنافس الآشوريين شرقاً، والحثّيين شمالاً، والمصريين جنوباً وغرباً، وأفلحوا في بناء علاقات صداقة ومصاهرة مع فراعنة مصر، لكنهم لم يستطيعوا الصمود في وجه الحثّيينHittites ، وانتهي الأمر بهم الى التفكك والضعف، فانتهز الآشوريون الفرصة بين (١٣٥٠ - ١٣٠٠ ق.م)، وغزا الملك الآشوري أداد نيراري الأول بلاد ميتّاني حتى الفرات، وخرّب العاصمة واشّوكانّي حوالي سنة (١٣٠٠ ق.م)، وكانت نهاية الدولة الميتّانية على يدي الملك الآشوري شالمانصّر الأول حوالي سنة (١٢٧٥ ق.م)، واختفت مملكة ميتّاني من التاريخ[١] .

**آشوريّون وميديّون:**

استمرت عمليات الكر والفر بين أقوام الجبال وأقوام البوادي، ولك أن تقول: بين الآريين والساميين، فمنذ التقاء القرن (١٩ ق.م) بالقرن (١٨ ق.م) ظهر الآشوريون Assur في غربي آسيا، والمشهور أنهم شعب سامي، قدم الى بلاد الرافدين من الغرب (من سوريا)، لكن وِلْ ديورانت يقدّم رأياً آخر بشأن أصل الآشوريين، فيقول:

"وكان الأهلون خليطاً من الساميين الذين وفدوا إليها من بلاد الجنوب المتحضرة (أمثال بابل وأكّد)؛ ومن قبائل غير سامية جاءت من الغرب، ولعلهم من الحيثيين، أو من قبائل تمتّ بصلة الى قبائل مِيتّاني، ومن الكرد سكان الجبال الآتين من القفقاس"[٢] .

والمهم أن الآشوريين جاوروا شعب سوبارتو من ناحية الغرب، وشعب سوبارتو هو من أسلاف الكرد، وكانت مملكتهم تقع في النصف الشمالي الغربي من جنوبي كردستان، وهو المثلث الواقع بين الزاب الكبير (الأعلى) والزاب الصغير (الأسفل) ونهر دجلة. ثم أسس الآشوريون دولتهم الأولى في حدود (١٨٩٤ - ١٨٨١ ق.م)، وأبرز ملوكهم هو شمشي - أداد الأول Shamshi– Adad (1815 –1782 ق.م)، وكان معاصراً ومنافساً للملك البابلي الشهير حمورابي، ثم قضى حمورابي على الدولة الآشورية في خضمّ مشروعه التوسعي الإمبراطوري[٣] .

---

١٠ جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص ٥٩، وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٦٢/١ - ٦٣ .
واشوكاني: كلمة كردية صرف، تتألف من كلمتين، هما: آش بمعنى (طاحون)، وكاني بمعنى (نبع)، وبمجموع الكلمتين يكون المعنى (نبع الطاحون).

٢٠ ول ديورانت: قصة الحضارة، ٤٩٦/٢ - ٤٧٠ .

٣٠ عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٨١ - ٨٢ . عبد الحكيم الذنون: الذاكرة الأولى، ص ١٠٩ .

وقام العهد الآشوري الوسيط في حدود (١٥٩٤ - ٩١٢ ق.م)، وخاض ملوك آشور صراعاً طويلاً ضد البابليين فالكاشيين فالحوريين (الميتّانيين)، وبسقوط الميتانيين على أيدي الحثّيين، ثم بضعف الحثّيين، استعاد الآشوريون نفوذهم، وأقاموا إمبراطوريتهم الأولى بين (٩١٢ - ٧٤٥ ق.م)، وأتبعوها بالإمبراطورية الثانية بين (٧٤٥ - ٦١٢ ق.م).

وفي كلا العهدين كان ملوك آشور أصحاب مشاريع توسعية واحتلالية ضخمة، وحوّلوا مشاريعهم بالحديد والنار الى واقع مفروض على جميع شعوب غربي آسيا، بدءاً من عِيلام وفارس وكردستان شرقاً الى فلسطين غرباً، لا بل إن فتوحاتهم الإمبراطورية وصلت الى إفريقيا عبر سيناء، وابتلعت مصر في عهد الملك أسرحدون ( Assurhadon ٦٨١ - ٦٦٩ ق.م)، وفي عهد ابنه الملك آشور بانيبال Assur Panipal ٦٦٩-٦٢٩ ق.م)، وذاقت الشعوب في تلك الرقعة الجغرافية الهائلة مختلف أشكال القهر والإذلال[١] .

وإذا كانت السيطرة الآشورية قد وصلت الى مصر في إفريقيا؛ فهل يعقل أن تفلت منها مناطق جبال زاغروس وطوروس القريبة؟ بالطبع: لا؛ فكل دولة غرب آسيوية حملت مشروعاً إمبراطورياً كانت مضطرة الى السيطرة على تلك السلاسل الجبلية؛ لأسباب متعددة، منها:

- أولاً: لوضع يدها على شبكة (طريق الحرير)، واحتكار واحد من أهم طرق التجارة العالمية في العالم القديم.

- وثانياً: للوصول الى مناجم الحديد والفضة وحجر الديوريت الخاص لصنع التماثيل، وللحصول على الخيول والأغنام وغيرها من الموارد كالعسل.

- وثالثاً: لقمع الشعوب الجبلية المتطلّعة بدورها الى التقدم غرباً نحو سهول بلاد الرافدين وساحل البحر الأبيض المتوسط.

لهذه الأسباب جميعها زحف ملوك آشور الأقوياء بجيوشهم القوية الشرسة نحو جبال زاغروس وطوروس، واجتازوا الممرات الضيقة، وتسلّقوا القمم الوعرة، وزرعوا

---

١. عبد الحكيم الذنون: الذاكرة الأولى، ص ١١٣ - ١٢٠ . وانظر عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٨٠ - ١٠٢ .

الرعب حيثما وصلوا، ونهبوا المدن والقرى، ودمّروا كثيراً منها، وفتكوا بالسكان، ورحّلوا أقواماً من أوطانهم الى ديار بعيدة، وأسكنوا آخرين بدلاً منهم، وساقوا الأسرى في السلاسل الى آشور ونينوى، وحوّلوهم الى عبيد[١] .

والحقيقة أن شعوب غربي آسيا لم تستسلم للسلطة الآشورية، وفجّرت الثورات بين حين وآخر، وكان سكّان المناطق الجبلية في زاغروس وطوروس- وقد سُمّيت تارة (طوتيوم)، وأخرى (ميديا)، وبعدئذ (كردستان)- من أكثر الشعوب ثورة على الدولة الآشورية، وحينما يقرأ المرء المدوَّنات التي افتخر فيها ملوك آشور بأمجاد غزواتهم وفتوحاتهم، يستطيع القول بثقة: إن أسلاف الكرد كانوا، معظم الأحيان، في طليعة الثائرين على السلطات الآشورية. وجاء دور الأقوام الجبلية في أخذ المبادرة، والتصدّي للسلطات الآشورية، وكان الاتحاد الميدي رأس الرمح في ذلك الاختراق، وقد ثار الميديون مرة تلو أخرى خلال القرنين (٩، ٨ ق.م)، ودفعوا ثمناً باهظاً من الممتلكات والأرواح في عهد الزعيم الميدي دياكو (ديوكو= دايؤوك) Dioces، وفي عهد ابنه فَراوُرْت (فَراوُرْتيس) Phraortes ويسمّي (خَشْتَرَيت) أيضاً، وفي السنوات الأولى من عهد حفيده كَيْخُسرو Kai-Khosru ، ويسمّي (كي أخسار= كيكسار = سياشاريس) Xsayarsa أيضاً، وعلم الميديون أن القوة المسلحة وحدها لا تحقق النصر على القوة الآشورية الضاربة، وقام كيخسرو بإنجازين إستراتيجيين:

- الأول: توحيد فروع أسلاف الكرد في زاغروس وطوروس، والسيطرة على عِيلام وفارس جنوباً، وعلى أورارتو (أرمينيا بعدئذ) شمالاً[٢] .

- والثاني: عقد تحالف إستراتيجي مع البابليين الذين كانوا يعانون من قهر السلطات الآشورية.

واستطاع الميديون وحلفاؤهم، بعد جهود مضنية ومعارك ضارية، السيطرة على العاصمة الدينية (آشور)، ثم السيطرة على العاصمة السياسية (نينوى)، وإسقاط

---

١. عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، ص ٩٥ ١٠٢ . عبد الحكيم الذنون: الذاكرة الأولى، ص ١١٠ - ١٢١ .

٢. يقول مروان المُدَوَّر: "في الواقع لم تكن أرمينيا تعرف بهذا الاسم، ... إذ لم يتشكل اسم أرمينيا كما نعرفه اليوم إلا اعتباراً من أعوام (٥٥٠ - ٥٢١ قبل الميلاد)". انظر مروان المدوّر: الأرمن عبر التاريخ، ص ٨٢ ، هامش (٢).

الإمبراطورية الآشورية، وتحرير جميع شعوب غربي آسيا من قبضتها الحديدية، وكان ذلك عام (٦١٢ ق.م)[١] .

إن سقوط إمبراطورية آشور على أيدي الميديين وحلفائهم ترك أثراً طيباً في نفوس شعوب غربي آسيا، وظهر صدى ذلك في العهد القديم، فقد جاء في سِفر ناحوم، وكان من الأسرى العبرانيين في بلاد آشور:

"نَعسَتْ رُعَاتُكَ يَا مَلِكَ أَشُّورَ. اضْطَجَعَتْ عُظَمَاؤُكَ. تَشَتَّتَ شَعْبُكَ عَلَى الجِبَالِ وَلاَ مَنْ يَجْمَعُ. لَيْسَ جَبْرٌ لانْكِسَارِكَ. جُرْحُكَ عَدِيمُ الشِّفَاءِ. كُلُّ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ خَبَرَكَ يُصَفِّقُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَيْكَ، لأَنَّهُ عَلَى مَنْ لَمْ يَمُرَّ شَرُّكَ عَلَى الدَّوَامِ؟ "[٢] .

وبسقوط الإمبراطورية الآشورية تغيّرت المعادلات السياسية في غربي آسيا، وظهرت أربع دول متنافسة:

١- الدولة الميدية في جبال زاغروس وطوروس، وفي أذربيجان وعيلام وفارس، وغرباً حتى نهر هاليس (قزيل إرماق) في الأناضول.

٢- الدولة البابلية، وقد تقاسمت مع حليفتها الدولة الميدية ممتلكات الإمبراطورية الآشورية، فكان نصيبها بلاد الرافدين، وبلاد الشام، وشمالي شبه الجزيرة العربية.

٣- دولة ليديا، وكانت تسيطر على آسيا الصغري، من نهر هاليس الى مضيق البُوسفور والدَّرْدَنيل (غربي تركيا).

٤- الدولة المصرية، وكانت تنافس البابليين في سوريا.

وظل الحلف الميدي- البابلي متماسكاً في عهد الملك الميدي كَيْخُسرو (كي أخسار= كيكسار = سياشاريس) Xsayarsa والملك البابلي (الكلداني) نابوبلاصّر، وتعزّز بزواج ولي العهد البابلي نبوخذنصّر من الأميرة الميدية آميد (أميتس) حفيدة الملك الميدي، ولأجلها بني نبوخذ نصّر الحدائق المعلّقة في بابل. وبفضل ذلك التحالف الوثيق أمسك الملكان بالورقة الرابحة في ميدان التنافسات الإقليمية، وكانت دولة ليديا والدولة المصرية قد تحالفتا مع الدولة الآشورية ضد الحلف الميدي- البابلي، لكن الحلف

---

١. سبتينو موسكاتي: الحضارات السامية القديمة ص ٧٠ . هارفي بورتر: موسوعة مختصر التاريخ القديم، ص ,٦٨ طه باقر وآخران: تاريخ إيران القديم، ص ٤١ .

٢. العهد القديم، سفر ناحوم، الأصحاح ٣، الآيتان ١٨ – ١٩ .

الميدي- البابلي حقق النصر على الدولة المصرية في معركة كركميش عام (٦٠٥ ق.م)، وانتزع منها بلاد الشام[1] .

ثم خاض الميديون الصراع ضد ليديا، بسبب السكيث Scythians الذين غزوا ميديا قادمين من شمالي البحر الأسود، وتحالفوا مع دولة آشور، ولما سقطت الدولة الآشورية لجأوا الى ليديا، وحماهم الملك الليدي إلياتِّس، وانتهت الحرب بتوقيع معاهدة سلام وتحالف بين ميديا وليديا سنة (٥٩٧ ق.م) على الأرجح، وتعزّزت المعاهدة بزواج ولي العهد الميدي أستياگ (أستياجس) بن كيخسرو من إريينس ابنة الملك الليدي إلياتِّس، ومر غربي آسيا بعهد من الاستقرار والازدهار دام حوالي نصف قرن[2] .

وبعد هذه الجولة في تاريخ العالم القديم، وفي تاريخ غربي آسيا، حان أوان الانتقال الى البحث في المؤامرة على الكرد؛ تلك المؤامرة التي تتمثّل في تبشيع صورتهم الى درجة الأَبْلَسة، فماذا عن ذلك؟

---

١. طه باقر وآخران: تاريخ إيران القديم، ص ٤١ . دياكونوف: ميديا، ص ٣٠٢ .

٢. هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٦٣ - ٦٤ . هارفي بورتر: موسوعة مختصر التاريخ القديم، ص ٨٧, ديورانت: قصة الحضارة، ٤٠١/٢ .

## ٣

# جذور مشروع أبلسة الكرد

### إشـارات وعـبـارات:

قـال الصـوفي الحـلاّج قبل حوالي ألف ومئة عـام: "من لم يَطّلع على إشـاراتـنا لا تَـهديه عبـاراتُنا"؛ وبما أننا ننقّب في تجليات مشروع (أبلسة الكرد)، لا نجد مفراً من الدخول الى المنطقة الحرام في تاريخ غربي آسيا، وهـي المنطقة الأكثر إبهاماً وتعقيداً، ونضطر من ثَمّ الى تسمية الأشياء بأسمائها، وتفكيك بعض الإشكاليات فـي العلاقة بين الكرد وجيرانهم، بغرض تفحّصها وتتبّع انعكاساتها في الذاكرة الغرب آسيوية.

وبما أن بعض تلك الإشكاليات مـا زال قائمـاً فـي غربي آسيـا، وهـي مـرشّـحـة- على الأقل في حدود المعطيات المعاصرة- الى التموضع في صميم مستقبلنا نحن شعوب غربي آسيا، وبما أننا جميعاً (فرساً وعرباً وكرداً وآشوريين وكلداناً وأرمناً وتركاً) أحفـاد الأجداد الذين عاصروا تلك الإشكاليـات، وكي تكون عـباراتنا في هـذا المجال مفهومة، نوضّح ما يلي:

١. ظاهرة تبشيع صورة الكرد ليست فرضية، وإنما هي حقيقة، تؤكدها عشرات الأدلة الموثّقة، فـلا سـبيل الى تجـاهلها، أو الالتفـاف عليـها، أو التـعـامل مـعـها على نحـو خجول ومُجامِل.
٢. بعد إخضـا ع تلك الظاهرة للتحليل العلمـي، اتضح أنها ليست ظاهرة عابرة، وإنما هـي مـشـروع صـمّـمـتـه جـهـات غرب آسـيـوية، وأشـرفت عليـه تـأسـيـسـاً وتكريسـاً وتطويراً.
٣. ينبغي عدم الخلط بين الشعوب والنُّخب بخصوص هذا المشروع، فـالنُخَب هـي التي أنتجـتـه، وحرصت على تطويره وتسـويقه واسـتـثـمـاره، أمـا الشـعـوب فكانت مطيّة لتحقيق أهداف النخب.

٠٤ إن قسماً غير قليل من نُخب غربي آسيا لمّا يخرجوا بعدُ من عباءة ثقافة (إلغاء الآخر)؛ ولذلك هم حريصون على البحث في التاريخ عن مبررات يسوّقون بها مشاريعهم الإلغائية، فلا يرى الضحايا بداً من الاحتماء بالتاريخ ليصونوا وجودهم.

٠٥ الفرق شاسع بين إعادة قراءة التاريخ لتوسيع شُقّة الخلاف بين الشعوب، وبين إعادة قراءته لتشخيص الأخطاء، وتوضيح الحقائق، تمهيداً لتصحيح المسارات، وسعياً الى تأسيس (ثقافة الإخاء) بدل (ثقافة الإلغاء) في البيت الغرب آسيوي الكبير.

تلك هي منطلقاتنا في التعامل مع مشروع تبشيع صورة الكرد. ودعونا نباشر التنقيب فيه.

## جــــذور المشروع:

إن ظاهرة تبشيع صورة الكرد لم تنشأ دفعة واحدة، ولم تتأسس بين عشيّة وضحاها، وإنما هي نتاج تراكمات وإرهاصات تتابعت خلال عشرات القرون قبل الميلاد، وتعود تلك التراكمات والإرهاصات الى أزمنة الصراع الطويل بين (أقوام الجبال) و(أقوام الصحراء)، أو لنقل بحسب المصطلحات الدارجة: بين (الأقوام الآرية) و(الأقوام السامية)، وكانت المنطقة الممتدة من الخليج الى سواحل البحر الأبيض المتوسط هي موضوع الصراع، لكن المنطقة التي دار فيها القدر الأكبر والأطول من ذلك الصراع هي (بلاد الرافدين).

وبلاد الرافدين هي المنطقة الواقعة بين نهري الفرات ودجلة، وأطلق عليها اليونان اسم (ميسوپوتاميا/ميزوپوتاميا) Mesopotamia، واستُخدم بداية للدلالة على المنطقة الواقعة بين دجلة والفرات، بدءاً من الخليج حتى موقع مدينة بغداد الحالية، ثم اتسع مدلوله، وصار يدل على جميع الأراضي الواقعة بين دجلة والفرات من الشمال الى الجنوب، واستُخدم في الكتب الأوربية الحديثة ليدل على العراق القديم[1] .

إن بلاد الرافدين هذه، وامتداداتها الغربية في شمالي سوريا، كانت (المجال

---

٠١ جين بوترو وآخران: الشرق الأدنى الحضارات المبكرة، ص ٢٠ . سامي سعيد الأحمد: السومريون وتراثهم الحضاري، ص ٥ . عبد الحكيم الذنون: الذاكرة الأولى، ص ٢١٢ .

الحيوي) للأقوام الآرية القادمة من الشمال والشرق، وللأقوام السامية القادمة من الجنوب، ولذلك كان الصراع عليها ضارياً بين الفريقين، وفي خضم الصراع كان كل فريق حريصاً على تبشيع صورة الآخر، تبريراً للقضاء عليه وإلغاء وجوده، كما هي العادة، ويبدو أن الأقوام السامية (الأكّاديون، البابليون، الآشوريون) كانت أكثر براعة في هذا المجال من خصومها الآريين (السومريون، الطوتيون، العيلاميون، اللولوبيون، السوبارتيون، الكاشيون، الحوريون، الميديون).

ونحسب أن جذور مشروع (أبلسة الكرد) تعود الى تلك الأزمنة القديمة، ومن الأدلة على وجود تلك الجذور أن بعض المدوّنات الرسمية الأكّادية والبابلية والآشورية تُطلق على الأقوام الآرية المنافسة صفات الهمجية والبطش والتدمير، وبأنهم قساة، لا تعرف الرحمة الى قلوبهم سبيلاً، وتشبّههم أحياناً بأفاعي الجبال.

وفي الوقت نفسه مجّد بعض ملوك أكّاد وبابل وآشور الفظائع التي ارتكبوها في مواطن أسلاف الكرد، بدءاً من عِيلام جنوباً، وانتهاء بمنطقة أرارات شمالاً، وامتداداً الى مشارف الأناضول (وسط تركيا) غرباً، وكانوا يعدّون البطش بأسلاف الكرد وتدمير بلادهم، أمراً مباركاً؛ فقد سجّل الملك الأكّادي نارام سين بعض أمجاده في مسلّة، تظهر فيها سفوح جبال مشجّرة، وجبال مخروطية مرتفعة جداً، يصعد إليها الملك على جواده مختالاً، وتنتشر في وديانها جثث القتلي، ويبدو الملك مدجّجاً بالسلاح (بلطة، قوس، سهام)، وعلى رأسه خوذة لها قرنان؛ دلالةً على الربوبية والجبروت، وتحت أقدامه أعداؤه صرعى، أو يلتمسون منه العفو[1] .

وذكر ول ديورانت جانباً من قسوة ملوك أكّاد بأقوام الجبال، فقال:

" منشتوسو ملك أكّد أعلن في صراحة أنه يغزو بلاد عِيلام، ليستولي على ما فيها من مناجم الفضة، وليحصل منها على حجر الديوريت، لتُصنع منه التماثيل التي تخلّد ذكرَه في الأعقاب... وكان المغلوبون يباعون ليكونوا عبيداً، فإذا لم يكن في بيعهم ربحٌ ذُبحوا ذبحاً في ميدان القتال. وكان يحدث أحياناً أن يُقدَّم عُشر الأسرى قرباناً الى الآلهة المتعطّشة للدماء، فيُقتلوا بعد أن يوضعوا في شباك لا يستطيعون الإفلات منها "[2] .

ووصف الملك الآشوري آشور ناصربال غزوه لمنطقة نهر الخابور قائلاً:

---

١. عبد الحكيم الذنون: الذاكرة الأولى، ص ٧٥ .

٢. ول ديورانت: قصة الحضارة، ٢/٢٧ .

"وبتأييد من آشور والإله أَدَد (حَدَد)، الإلهين العظيمين اللذين جعلا سيادتي مطلقة، حشدتُ عجلاتي وجندي، وانطلقت الى نهر الخابور، ... وجعلت آزي- إيلي حاكماً يمثّلني عليهم، وجعلت كومة من الرؤوس أمام بوّابته، وسلختُ جلود النبلاء الذين تمرّدوا عليّ، ثم نشرتُ جلودهم على الكومة، فبعضُها في داخل الكومة، وبعضُها علّقتها على أعواد مغروسة في الكومة، وبعضُها وضعته على أعمدة حول الكومة، وأتيتُ بالعديد منهم الى بلادي، فسلختُ جلودهم هناك، ونشرتُها على الأسوار"[1].

وسجّل الملك الآشوري آشور بانيپال هجومه على عيلام قائلاً:

" لقد خرّبت من بلاد عِيلام ما طولُه مسيرُ شهر وخمسة وعشرين يوماً، ونشرتُ هناك الملح والحَسَك لأُجدب الأرض، وسُقت من المغانم الى أشور أبناءَ الملوك، وأخوات الملوك، وأعضاءَ الأسرة المالكة في عيلام صغيرَهم وكبيرهم، كما سُقت منها كل من كان فيها من الولاة والحكام، والأشراف والصنّا ع، وجميع أهلها الذكور والإناث كباراً كانوا أو صغاراً، وما كان فيها من خيل وبغال وحمير وضأْن وماشية تفوق في كثرتها أسراب الجراد، ونقلتُ الى أشور تراب سوسا، ومدكتو، وهلتماش، وغيرها من مدائنهم، وأخضعت في مدة شهر من الأيام بلاد عيلام بأجمعها؛ وأخمدت في حقولها صوتَ الآدميين، ووقْعَ أقدام الضأن والماشية، وصراخ الفرح المنبعث من الأهلين، وتركت هذه الحقول مرتعاً للحمير والغزلان والحيوانات البرية على اختلاف أنواعها"[2] .

وقال ول ديورانت واصفاً الأهوال التي صبّها أشور بانيپال على عيلام:

"وجيء برأس ملك عيلام القتيل الى أشور بانيپال وهو في وليمة مع زوجته في حديقة القصر، فأمر بأن يُرفع الرأس على عمود بين الضيوف، وظَلّ المرح يجري في مجراه؛ وعُلّق الرأس فيما بعد على باب نينوي، وظل معلَّقاً عليه حتى تعفّن وتفتّت. أما دنانو القائد العيلامي فقد سُلِخ جلده حيّاً، ثم ذُبح كما يُذبَح الجمل، وضُرب عنق أخيه، وقُطّع جسمُه إرْباً، ووُزِّع هدايا على أهل البلاد تَذكاراً لهذا النصر المجيد"[3] .

وعلّق ول ديورانت على أعمال الملك الآشوري بقوله:

"ولم يخطر قطُّ ببال أشور بانيپال أنه ورجالَه وحوشٌ كاسرة أو أشدّ قسوة من

---

٠١ ألبرت كيرك كريسون:الكتابات الملكية لآشور ناصرپال الثاني، ص ٢٢ .

٠٢ ول ديورانت: قصة الحضارة، ٢/ ٢٧٠ .

٠٣ المرجع السابق، ص ٢٧٠ .

الوحوش؛ بل كانت جرائم التقتيل والتعذيب هذه في نظرهم عمليات جراحية لا بد منها، لمنع الثورات، وتثبيت دعائم الأمن والنظام بين الشعوب المختلفة المشاكسة المنتشرة من حدود الحبشة الى أرمينيا، ومن سوريا الى ميديا، والتي أخضعها أسلافه لحكم أشور، لقد كانت هذه الوحشية في رأيه واجباً يفرضه عليه حرصه على أن يبقي التراث سليماً"[1] .

هذه شواهد قليلة على حدّة الصراع بين الساميين والآريين في بلاد الرافدين وجبال زاغروس، وكانت هذه الشراسة على الصعيد العسكري أحد تجلّيات مشاريع الإلغاء التي نفّذتها نُخب الأقوام السامية في بلاد الرافدين ضد أقوام الجبال (أسلاف الكرد). وفي تلك العهود القديمة جداً نبتت جذور مشروع تبشيع صورة أسلاف الكرد، لكن تأسيس ذلك المشروع على نحو منهجي، وتكريسه بوعي، كان على أيدي نُخب آرية حلّت محلّ الدول المركزية الكبرى في غربي آسيا؛ وهي النُخب الأخمينية الفارسية، وثمة مقدّمات سبقت ذلك التأسيس، فماذا عنها؟

### تحوّلات إقليمية:

تأسّس مشروع تبشيع صورة أسلاف الكرد رسمياً سنة (٥٢٢ ق.م)، وهو لم يأت من فراغ، إنه كان نتاج جملة من المعطيات الديموغرافية، والتقاطعات الثقافية والاقتصادية، والتحولات الجيوسياسية في غربي آسيا، ونستعرضها فيما يلي.

أولاً- في الشمال: خلال الربع الثاني من القرن (١٤ ق.م)، قضت الدولة الحثّية الحديثة على دولة ميتّانيا، وكان نفوذ ميتّانيا قد وصل- في أقصى امتداد له- من جبال أرارات شمالاً الى كركوك جنوباً، وامتد غرباً ليشمل شمالي سوريا، وخاصة مملكة حلب. بل إن بعض الباحثين عدّ الهكسوس الذين حكموا مصر بين ( ١٧٢٠ - ١٥٧٠ ق.م ) من أصل حوري، وذكر آخرون أنهم من أصل كاشي، أما كونهم شعباً آرياً فمسألة مؤكدة، وانتهت الدولة الحثّية نفسها بعدئذ الى الزوال حوالي سنة (١٢٠٠ ق.م)؛ بتأثير هجمات الشعوب الإيجية (شعوب البحر)[2] .

---

٠١ المرجع السابق، ص ٢٧٠ .

٠٢ جرنوت فيلهلم: الحوريون، ص٥١ . فلايكوفسكي: عصور في فوضى، ص ٨٣ . إسرائيل فنكلشتاين: التوراة اليهودية، ص ٩٠ . وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٨٤/١ . أبراهام مالمات، حاييم تدمور: العبرانيون وبنو إسرائيل، ص ١٢١ . سيّد القمني: إسرائيل، ص ٢٩١، ٣٨٦ .

ثانياً – في الجنوب: كانت الدولة المصرية تخوض الصراع ضد الحثّيين للسيطرة على سوريا، ووصل ذلك الصراع الى القمة في معركة قادش على نهر العاصي سنة (١٢٨٥ ق.م) بقيادة رعمسيس الثاني. وبعد وفاة رعمسيس الثاني سنة (١٢٢٥ ق.م) دخلت مصر حالة من الفوضى قرابة عام (١٢٠٠ ق.م)، عندما أمسك بزمام الحكم شخص آسيوي يكتنفه الغموض، يدعى أرسو (يرسو)، ولقبه (حارو) أي (حوري)[١] .

ثالثاً – في الشرق: حوالي سنة (١١٦٨ أو ١١٦٢ ق.م) قضى العيلاميون على الدولة الكاشّية في بابل (سلالة بابل الثالثة)، وصحيح أن النفوذ الآشوري كان يزداد قوة في شمال شرقي بلاد الرافدين (شمال غربي إقليم كردستان- العراق حالياً)، وخاصة بعد سقوط الدولة الكاشية، لكنهم لم ينتقلوا الى الدور الإمبراطوري إلا ابتداء من عهد الملك تجلات بلاصر الثالث (٧٤٥ – ٧٢٧ ق.م)[٢] .

رابعاً– في الغرب: تنفّس الآراميون والفينيقيون والكنعانيون الصُّعَداء في سوريا وشرقي البحر الأبيض المتوسط عامة، وازدهرت الدول الآرامية في سوريا الداخلية، ومن أبرزها في الشمال دولة سَمْأَل (شَمْأَل) في كيليكيا، ودولة بيت آجُوشي وكانت تضم حلب وأرفد (أرفات/ تل رفات/ تل رِفْعت حالياً)، وفي الوسط دولة حماة، وفي الجنوب دولة دمشق. أما في الساحل فحكم الفينيقيون في الشمال (ساحل سوريا ولبنان حالياً)، والكنعانيون في الجنوب (فلسطين حالياً)[٣] .

وفي هذه المرحلة ظهر العبرانيون في جنوبي سوريا (فلسطين)، وقد تعدّدت أسماؤهم، فهم (عَبِيرو) بالمصرية القديمة، و(خابِيرو) بالكلدانية، وتفيد المصادر أن العبرانيين شعب بدوي سامي، جدُّهم الأكبر هو النبي إبراهيم، وسُمّوا (بني إسرائيل) بعدئذ نسبة الى لقب جدهم الثالث يعقوب (إسرائيل) ابن إسحاق بن إبراهيم، وعُرفوا باسمهم الديني (اليهود) نسبة الى سبط (يهوذا)، أو نسبة الى مملكة يهوذا، وربما نسبة الى إلههم القومي (يَهْوَه)، وحديثاً ثمة جدل كثير حول أصل العبرانيين، فمن

---

١. وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٨٢/١ . ول ديورانت: قصة الحضارة، ١٨٢/٢ . أبراهام مالمات، حاييم تدمور: العبرانيون وبنو إسرائيل ص ٧٢، ٩٤، ٩٩ .

٢. عامر سليمان، أحمد مالك الفتْيان: محاضرات في التاريخ القديم، ص ١٣٤ . عبد الحكيم الذنون: الذاكرة الأولى، ص ١١٦ .

٣. سبتينو موسكاتي: الحضارات السامية القديمة، ص ١٧٨ . وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٧٤/١ .

الباحثين من يرى أنهم خليط من الآريين والساميين، ومنهم من يرى أنه لا علاقة لهم بالساميين، في حين يرى الباحث المصري سيّد القمني أن جد العبرانيين (إبراهيم) آري من الفرع الحوري، وليس الآن موضع البحث في ذلك[1] .

وتفيد الروايات الدينية أيضاً أن النبي إبراهيم هاجر من أُور الكلدان الى حَرّان، ثم هاجر من حَرّان الى أرض كَنْعان (فلسطين)، ثم رحل من هناك الى مصر، ثم عاد ليستقر ثانية في أرض كنعان، وفي عهد النبي يوسف بن يعقوب هاجر العبرانيون الى مصر مرة أخرى، وربط بعض المؤرخين هجرتهم تلك بالغزو الهكسوسي لمصر، وبعد خروج الهكسوس من مصر اضطر العبرانيون الى الهروب شمالاً نحو فلسطين، بقيادة النبي موسى حوالي سنة (١٢٢٥ ق.م)، واستقروا في شرقي أرض كنعان، وحوالي سنة (١٢٠٠ ق.م) عبروا نهر الأُردن بقيادة يوشع (يَشوع)، وغزوا أرض كنعان، ثم وسّعوا دائرة الغزو باتجاه الغرب، وشكّلوا قوة يُحسَب لها حساب في شرقي المتوسط[2].

وقد استغل قادة العبرانيين الفراغ الإقليمي الذي مر ذكره، فأسس زعيمهم شاوُل (شاؤول) أول مملكة عبرانية بين (١٠٢٨ – ١٠١٣ ق.م)، ثم تولّى النبي داود قيادة المملكة بين (١٠١٣ – ٩٧٣ ق.م)، أو بين (١٠٠٤ – ٩٦٥ ق.م)، واحتل العبرانيون جميع أرض كنعان، وباتوا يهدّدون الدويلات الآرامية في جنوبي سوريا؛ وهذا يعني أنهم سيطروا على الرأس الشمالي لطريق البخور والتوابل القادم من اليمن براً عبر جنوبي الحجاز، وبحراً عبر البحر الأحمر[3] .

ثم صار النبي سليمان بن داود ملكاً على العبرانيين بين (٩٦٥ – ٩٢٨ ق.م)، فأقام علاقات سلام وتحالف مع حِيرام ملك صور الفينيقي شمالاً، ومع فرعون غرباً، وأدار سليمان حركة تجارية كبرى بين مصر وجزر البحر الأبيض المتوسط وآسيا الصغرى وجنوبي شبه الجزيرة العربية، واتصف عهده بالثراء والترف والانفتاح الثقافي؛ الأمر الذي جعله شهيراً في عصره، ويبدو أن النُّخب العبرانية صوّرته بعدئذ على نحو

---

٠١ أبراهام مالمات، حاييم تدمور: العبرانيون وبنو إسرائيل، ص ٩٤ . سيّد القمني: النبي إبراهيم والتاريخ المجهول، ص ٧١ . محمد قَدّوح: الكتابة، ص ٥٦ – ٥٧ .

٠٢ وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٦٧/١ . أبراهام مالمات، حاييم تدمور: العبرانيون وبنو إسرائيل، ص ١٢١ .

٠٣ وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٨٣/١– ٨٤ . أبراهام مالمات، حاييم تدمور: العبرانيون وبنو إسرائيل، ص ٧٢، ١٠٩ – ٢١٠ .

أسطوري، وتلقّف بعض المؤرخين المسلمين تلك الروايات الأسطورية، وقدّموها الى الأجيال على أنها حقائق لا شك فيها[1] .

لكن العهد العبراني الذهبي لم يدم، وتغيّرت الأوضاع الإقليمية كثيراً في النصف الثاني من عصر سليمان؛ ففي عام (٩٤٥ ق.م) آلت السلطة في مصر الى شِيشْنَق (مؤسس الأسرة المصرية الثانية والعشرين)، وكان شيشنق يعادي سليمان؛ لأن سليمان كان قد ارتبط بعلاقة مصاهرة مع الأسرة المصرية الحاكمة السابقة[2] .

وفي بلاد الرافدين دخلت دولة آشور دور التوسع الإمبراطوري حوالي سنة (٩١٢ ق.م)، وفرض الآشوريون سيطرتهم على جميع بلاد الرافدين، وعلى مداخل جبال زاغروس وطوروس، وأحكموا سيطرتهم على طريق الحرير شرقاً وشمالاً، لا بل اتجهوا غرباً وجنوباً نحو واحة (تَيْماء) في شمال غربي شبه الجزيرة العربية، وسيطروا على طريق البخور القادم من اليمن جنوباً، وكان من الطبيعي أن يتطلّعوا الى السيطرة على سوريا، وعلى جميع سواحل شرقي البحر الأبيض المتوسط، بما فيها فلسطين حيث تحكم المملكة العبرانية، وإلا فإن بقاء تلك المناطق خارج نفوذهم يعني عدم سيطرتهم على الحركة التجارية في العالم القديم[3] .

وحينذاك كانت المملكة العبرانية قد انقسمت الى مملكتين: مملكة إسرائيل في السامرة شمالاً، ومملكة يَهُوذا في أُورشليم جنوباً، وشنّ الملوك الآشوريون الهجمات عليها، وخاصة في عهد شَلْمانصّر الخامس وسَرْجُون الثاني وسَنْحاريب في الفترة (٧٢٧ – ٦٨٠ ق.م)، وقضوا على ثورات العبرانيين، وأخضعوا المملكتين للتبعية الآشورية، وسَبوا عشرات الآلاف من العبرانيين، وأسكنوهم في منطقة بابل وبعض مناطق جنوبي كردستان (إقليم كردستان– العراق حالياً)؛ وهذا هو سر استبشار الزعيم العبراني نَاحُومَ الأَلْقُوشِيّ بسقوط الإمبراطورية الآشورية على أيدي الميديين وحلفائهم البابليين (الكلدان) سنة (٦١٢ ق.م)[4] .

---

١٠ وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٦٨/١ . إسرائيل فنكلشتاين: التوراة اليهودية، ص ١٦٧, أبراهام مالمات، حاييم تدمور: العبرانيون وبنو إسرائيل، ص ٢٠٤، ٢١٦، ٢١٨ .

٢٠ أبراهام مالمات، حاييم تدمور: العبرانيون وبنو إسرائيل، ص ٢٢٢ .

٣٠ المرجع السابق، ص ٢٢٢ .

٤٠ إسرائيل فنكلشتاين: التوراة اليهودية، ص ٢٤٩ . عبد الحكيم الذنون: الذاكرة الأولى، ص ١١٦, العهد القديم، سفر ناحوم، الأصحاح ٣ الآيات ١٨ – ١٩ .

غير أن استبشار العبرانيين بسقوط الإمبراطورية الآشورية، وأملهم بالخلاص من الأسر، والعودة الى أرض كنعان (فلسطين)، وإحياء مجدهم السابق، لم يدم طويلاً، فقد مر أن الميديين وحلفاءهم البابليين (الكلدان) تقاسموا ممتلكات الإمبراطورية الآشورية، وكانت سوريا وأرض كنعان (فلسطين) من نصيب الدولة البابلية، وفي سنة (٦٠٤ ق.م) وصل جيش بابل الى سوريا والى مملكة إسرائيل ومملكة يهوذا، وسيطر عليها جميعاً، وفي سنة (٥٨٦ ق.م) استولي نَبُوخَذ نصّر (بُخْتُنَصَّر) بن نَبُوبولاصَّر على أورشليم، عاصمة مملكة يهوذا ودمرها تدميراً، وأجلى السكان الى بابل، ولم تفلح جهود الدولة المصرية في إنقاذ حلفائهم العبرانيين[١] .

وماذا عن التحوّلات في جبال زاغروس وأطرافها؟

**ميديون وأخمينيون:**

حوالي سنة (١١٠٠ ق.م) وصل شعبان آريان جديدان الى غربي آسيا، قادمين من الخزّان الرئيسي للشعوب الآرية شرقي بحر قزوين، عُرف الشعب الأول باسم (ميد)، والآخر باسم (فُرس)، وكان كل واحد منهما يتألف من عدد من القبائل الكبيرة، ورجّح بعض المؤرخين أن فارس (فرسوا/برسوا) Parsua، وميديا (مادي) Madai اسمان جغرافيان، وليسا اسمين قوميين[٢] . وبالنسبة الى موطن الميديين كتب دياكونوف يقول:

"ماد (ميديا) كأرض تاريخية، وبمعني أشمل لهذه الكلمة، هي تلك الأراضي التي كانت في العهد القديم تمتد حدودها من الشمال بنهر أراس وقمم جبال البُرْز جنوب بحر قزوين، ومن الشرق السهول المالحة لسهول كوير، ومن الجنوب والغرب متصلة بسلسلة جبال زاغروس"[٣] .

وقال هارڤي بورتر بشأن موطن الميديين:

"هذه البلاد شرقي آشور والشمال الشرقي منها، وهي القسم الشمالي والغربي من مملكة إيران المعهودة، ويحدّها شمالاً أرمينيا وبحر الخَزر، وغرباً جبال زاغروس، وجنوباً

---

١. وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٧٠/١ . أبراهام مالمات، حاييم تدمور: العبرانيون وبنو إسرائيل، ص ٢٩٥ . سيّد القمني: إسرائيل، ص ١٠٦ .

٢. طه باقر وآخران: تاريخ إيران القديم، ص ٣٧ .

٣. دياكونوف: ميديا، ص ٨٥ .

بلاد فارس، ولم يتعيّن حدُّها شرقاً؛ لأن الأراضي هناك كانت سَبْخة لم تُسكَن"[١] .

وأضاف هارڤي بورتر يقول:

"وكان أكثر أراضي مادي وأحسنها جبلياً، لامتداد فروع زاغروس شرقاً الى الصحراء، وسلسلة جبال على شطوط بحر الخَزَر تسمّي البُرز (أو البُرج) تحيط بالبحر على القرب منه جنوباً وغرباً، وتتشعّب جنوباً، ... وفروع جبل زاغروس تمتد شرقاً، ... وبينها أودية مخصبة معتدلة الهواء، وهنالك أكثر السكان... وانقسمت مادي قديماً إلي: مادي أَتْرُوبَتِينة، وهي القسم الشمالي. ومادي الكبري وهي القسم الجنوبي، وتسمّي اليوم العراقَ العجمي".

وذكر دياكونوف أن المنطقة التي حلّ فيها الميديون (ميديا) وأطرافها (أورارتو وميتّانيا)، كانت تحمل، في الألف الأول قبل الميلاد، اسم غوتيوم (گوتيوم)، نسبة الى شعب غوتي (گوتي/جوتي/جودي)، وبالنسبة الى أغلبية الباحثين فالقصد من معنى (غوتيوم) هو (ميديا)[٢] .

هذا بالنسبة الى الميديين. أما بالنسبة الى الفرس فقال هارڤي بورتر:

"أمة الفرس جيل من الإيوانيين، قريب النسب من أمة الماديين، وأخبارها في أول أمرها قليلة جداً، فلا نعلم إلا قليلاً من أمرها من ذلك الوقت الى أن ظهر كورش الكبير... فإن شلمناصر الثاني التقى بهم مع الماديين يوم غزا تلك النواحي في القرن التاسع قبل الميلاد، ولم يكونوا حينئذ إلا قبائل ... يُقيمون ويَظعنون، يرأس كلاً منها شيخ"[٣] .

وذكر هارڤي بورتر أن بلاد فارس كانت ضيّقة:

" وكان يحدّها شمالاً مادي، وشرقاً الصحراء السَّبْخة، وجنوباً خليج العجم، وغرباً ذلك الخليج وسوسيانا، وكان نحو نصف البلاد صحاري لا تصلح لشيء، والباقي تُرَب بين الجبال، عدا ريف (ساحل) البحر، فإنه كان ضيقاً شديد الحر، غير أن بعضه يصلح للحراثة. أما الأراضي الجبلية فمثل ما يقابلها من أراضي مادي كما ذكرنا، ففيها أودية تجري منها أنهر صغيرة، والأراضي المجاورة لها مخصبة، وفيها عدة

---

٠١ هارڤي بورتر: موسوعة مختصر التاريخ القديم، ص ٨٢ .

٠٢ دياكونوف: ميديا، ص ٢٦٨ .

٠٣ هارڤي بورتر: موسوعة مختصر التاريخ القديم، ص ١٥٤ .

بحيرات صغيرة مالحة، ... وخلاصة ما يقال في تلك البلاد أنه ما كان يُتوقّع أن تخرج منها أمة قوية كأمة الفرس، أو ينشأ فيها رجال يتسلّطون على جانب عظيم من الأرض كما وقع"[1] .

وقال ول ديورانت يصف بلاد فارس:

"إقليم فارس (پارش لدى الأقدمين) يكاد يكون كله صحراوات وجبالاً، أنهاره قليلة، معرَّض للبرد القارس والحر الجاف اللافح؛ ولذلك لم يكن فيه من الخيرات ما يكفي سكانه البالغ عددهم مليونيين من الأنفس، إلا إذا استعانوا بما يأتيهم من خارج بلادهم عن طريق التجارة والفتح، وأهل البلاد الجبليون الأشداء ينتمون كما ينتمي الميديون الى الجنس الهندو- أوربي"[2] .

وخلاصة ما جاء في المصادر التاريخية أن الميديين استقروا في المناطق التي تقع الآن في شمال غربي إيران وشمالي العراق، وهي المناطق التي سمّيت بعدئذ (كردستان)، في حين استقر الفرس في جنوب غربي إيران الحالية، وظلت معروفة باسم (فارس).

وقد مرّ أن الإمبراطورية الآشورية كانت مهيمنة على جميع غربي آسيا ومصر، وكانت شديدة القسوة في التعامل مع الشعوب الخاضعة لها، وكان الزعيم الميدي دياكو قد وحّد القبائل الميدية، وقادها ضد الدولة الآشورية في إطار مشروع تحرري، وتابع ابنه فَراوُرْت (خَشْتَرَيت) تنفيذ مشروع التحرير، وأوصله حفيده كَيْخُسْرو (كَيْ أخسار) الى الذروة، وأهم ما أضافه كيخسرو الى ذلك المشروع أنه لم يجعله مقتصراً على الميديين، وإنما جعله مشروعاً تحررياً لجميع شعوب غربي آسيا، فبسط نفوذه على فارس جنوباً، وعلى أرمينيا وميتّانيا شمالاً، وأقام تحالفاً مع البابليين (الكلدان) غرباً، وكانت النتيجة إسقاط الإمبراطورية الآشورية، وخلاص جميع شعوب المنطقة من عذابات وويلات استمرت ثلاثة قرون (٩١٢ - ٦١٢ ق.م).

ومر أيضاً أن كيخسرو خاض الحرب ضد دولة ليديا (حليفة دولة آشور سابقاً)، وانتهت الحرب بعقد معاهدة سلام وصداقة بين الدولتين، تكلّلت بزواج ولي العهد الميدي أستياگ (أستياجس) من ابنة الملك الليدي إلياتّس، وأن السلام رفرف على

---

١. المرجع السابق، ص ١٥٢ - ١٥٣ .

٢. ول ديورانت: قصة الحضارة، ٤٠٩/٢ - ٤١٠ .

غربي آسيا، ونشطت الحركة التجارية على طريق الحرير وطريق البخور، وما كان يعكّر صفوها سوى المناوشات التي كانت تندلع بين حين وآخر بين دولة بابل ودولة مصر، للسيطرة جنوبي بلاد الشام، وفلسطين (أرض كنعان) على وجه التحديد.

**العلاقات الميدية- الفارسية:**

توفي الملك الميدي كيخسرو حوالي سنة (٥٨٤ أو ٥٨٥ ق.م)، وخلفه على الحكم ابنه أستياگ (أستياجس)، وورث أستياگ دولة قوية، واسعة الأرجاء، وافرة الخيرات، تسيطر على طريق الحرير الرئيسي المار بالعاصمة أگباتانا (هَمَذان) وبالمدينة الشمالية الكبرى رَغَه (الرَّي)، وتصبّ في خزائنها واردات الإمبراطورية، وكان من المفترض أن يزيد هذا الملك دولته قوة على قوة، لكن جرت الأمور بخلاف ذلك، ونهج أستياگ نهجاً مختلفاً عن نهج أسلافه، ومن أبرز سمات نهجه:

١ – الاستبداد بالسلطة، والخروج على التقاليد التي أرساها أسلافه؛ ألا وهي الحكم اللامركزي، فدولة ميديا كانت تتألف في الأصل من اتحاد أقوام ميديا؛ وقد ذكر دياكونوف أن أستياگ كان يتعامل بدون رحمة مع "كبار الرجال من النبلاء والمتنفّذين والمستشارين الميديين؛ أي الرجال الميديين من الصنف الأول، والذين كانوا من بقايا الملوك"[1] .

٢ – الخروج على الإستراتيجية التي اتبعها أسلافه أقليمياً؛ ألا وهي إقامة التحالفات الكفيلة بتحقيق التوازن بين القوي الإقليمية الرئيسة، فأثار أتباعه الأرمن شمالاً، وحلفاءه الكلدان جنوباً.

٣ – النزوع الى الارتخاء وحياة الدعة، قال دياكونوف: "في عهد أستياگ لم تحدث أية معارك، ولا حملات عسكرية، ولا احتلال مناطق جديدة"[2] .

٤ – الميل الى الترف والملذات ورخاء العيش، حتى إن ديورانت وصف أستياگ بأنه "طاغية أگباتانا المخنّث"[3] . وقال دياكونوف: "وفي الواقع إن سيول الثراء الفاحش شمل الإمبراطورية الميدية الكبرى فجأة، وهذا بحد ذاته أصبح سبباً للتناقضات

---

٠١ دياكونوف: ميديا، ص ٣٨٩ .

٠٢ المرجع السابق، ص ٣٩١ .

٠٣ ول ديورانت: قصة الحضارة، ٤٠٢/٢ .

الداخلية للمجتمع الميدي في ما بين أصحاب الثروة والأسياد من أصحاب العبيد، وهذه التناقضات أدّت الى القضاء على الإمبراطورية الميدية"[1] .

إن هذا النهج الذي سلكه أستياگ أدّى الى ما يلي:

١- تخلّي المجتمع الميدي عن حياة الجد والتقشف، وانشغاله بالترف والبذخ، وقد وصف ديورانت جانباً من ذلك الترف قائلاً: "وحَذَت الأمة حَذْوَ مليكها، وفَنِيت أخلاقها الصلبة الشديدة، وأساليب حياتها الخشنة الصارمة، ... فلبس الرجالُ السراويلَ المطرَّزة المُوَشّاة، وتجمّلت النساء بالأصباغ والحُلِيِّ، بل إن الخيل نفسها كثيراً ما كانت تُزيَّن بالذهب"[2] .

٢- ظهور التناقضات الداخلية في السلطة الميدية، وحصول شرخ عميق بين زعماء اتحاد أقوام ميديا، وبروز الوصولية، وإسناد المناصب العليا الى رجال غير أَكْفاء؛ الأمر الذي سهّل اختراق القيادة الميدية من قبل الناقمين عليها والمتربصين بها.

٣- ظهور التناقضات الداخلية في المجتمع الميدي بين الأغنياء والفقراء وانقسام المجتمع على نفسه.

وإذا أخذنا في الحسبان أن النبي زَرْدَشت ميدي الأصل والموطن حسب أرجح الأقوال، وأنه عاش بين سنتي (٦٣٠ - ٥٥٣، أو ٦٢٨ - ٥٥١، أو ٦١٨ - ٥٤١ ق.م)، حسبما ذكر صمويل نوح كريمر، فلا نستبعد أن تكون دعوته الدينية القائمة على ثنائية النور والظلمة (أَهُورامَزْدا وأَهْرِمَن) شكلاً من أشكال معالجة التناقضات الاجتماعية التي تفاقمت في عهد أستياگ[3] .

ومر سابقاً أن إقليم فارس النصف صحراوي، القليل الخيرات، كان يقع جنوبي ميديا مباشرة، وفي خضمّ استعدادات الزعيم الميدي فَراوُرْت (خَشْتَرَيت) للخلاص من سيطرة الدولة الآشورية هاجم إقليم فارس، وألحقها بدولة ميديا، قال هيرودوت: "ولم يكن فراورتيس هذا ليرضى بمملكة من الميديين وحدهم، فأخذ بمهاجمة الفرس، ثم دخل بلادهم على رأس جيش عرمرم، وما زال يَجِدّ في قتالهم، حتى استولى على كل أرضهم، وأخضعهم للميديين"[4] .

---

١٠ دياكونوف: ميديا، ص ٣٦٨ .

٢٠ ول ديورانت: قصة الحضارة، ٢/٤٠١ - ٤٠٢ .

٣٠ صمويل كريمر: أساطير العالم القديم، ص ٢٩٤ .

٤٠ هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٨٠ .

ويُستفاد مما ورد بهذا الشأن في المصادر التاريخية أن نوعاً من الاتحاد الفيدرالي كان قائماً بين ميديا وفارس؛ إذ كان لإقليم فارس مَلِكها؛ وهو من الأسرة الملكية الهاخمينشية (نسبة الى مؤسسها هاخمينش، ومنه جاء لقب: أخميني)، وكانت له سلطاته الخاصة في إقليمه، ويبدو أنه كان ذا مكانة رفيعة؛ حتى إن الملك الأخميني قَمْبيز الأول كان قد تزوّج ماندانا ابنة الملك الميدي أستياگ.

ويبدو أن الأمور سارت في البداية سيراً حسناً بين النُّخب الأخمينية والنُّخب الميدية؛ إذ لم يذكر هيرودوت[1] أيّ خبر يدلل على أن الفرس قاموا بثورات ضد ميديا في عهد الملكين الميديين خشتريت وكيخسرو، وقد صرّح ذلك المؤرخ أنه كان يستقي أخباره من بعض الفرس البارزين، ولو كانت ثمة ثورات فارسية ضد دولة ميديا، لما تردد أولئك الفرس في ذكر أخبارها، وخاصة أن هيرودوت كان قد قام بجولته في بابل وفارس بعد مرور قرن على زوال الدولة الميدية.

ولعل سبب سكوت النخب الفارسية على هيمنة ميديا هو القرابة الإثنية والثقافية بين الشعبين، والرغبة في الخلاص من قهر الدولة الآشورية، والرغبة في الاستفادة من الموارد الاقتصادية في ميديا وفي المناطق التي خضعت للدولة الميدية، إضافة الى حسنات النهج اللامركزي الذي كانت تقوم عليه الرؤية السياسة الميدية.

## سقوط دولة ميديا:

يُفهم من روايات هيرودوت- وما كان يخلو من ميل الى الفرس- أن الأمور تغيرت بعد مرور ثلاثة عقود من عهد أستياگ، وألقي نهج أستياگ الاستبدادي، والانقسام بين النخب القيادية الميدية، بظلالهما على العلاقة بين أستياگ والنخب الأخمينية، فزادت الأمورَ سوءاً، وكان الزعيم الأخميني الذي قاد الثورة ضد أستياگ هو كورش Kursh الثاني ابن قمبيز الأول، أي حفيد أستياگ من ابنته ماندانا.

لقد وظّف كورش العوامل الآتية لكسب الحرب ضد جده أستياگ:

١- خبرته العسكرية والسياسية، فهو قد نشأ وترعرع في ظل الثقافة الميدية، وكان من القادة البارزين، وكان جده أستياگ يكلّفه ببعض المهمات العسكرية، وخاصة في أرمينيا.

---

١. هيرودوت من مواطني مدينة هاليكارناسوس Halicarnassus في جنوب غربي آسيا الصغرى، توفي سنة (٤٢٥ ق.م).

٢- استثماره رغبة النخب الفارسية في الخلاص من التبعية لميديا، وتطلّعهم الى السيطرة على (طريق الحرير)، ووضع اليد على ثروات ميديا.

٣- صداقته مع بعض كبار رجال البلاط الميدي.

٤- بناء علاقة سرية مع هارپاك Harpage (هارثاجوس) كبير القادة العسكريين الميد، وكان هارپاك من أشد الناقمين على أستياك، ومن أكثر المتظاهرين بالإخلاص للملك في الجهر، ومن أشد الناشطين للتآمر عليه والخلاص منه في الخفاء، وقد كتب الى كورش في إحدى رسائله السرية: "هيّئ الفرس للثورة، وامضِ لملاقاة الميديين، ولا يضيرنّك إن كنتُ أنا أو أحدُ المقدَّمين منهم على رأس الجيش الذي سيرسله الملك لملاقاتك، فالفوز لك في كل الأحوال؛ لأن أشرف الميديين سيكونون أولَ من يهجرونه للانضمام إليك في جهدك للإطاحة به، ونحن جميعاً جاهزون للعمل، فافعل ما أنصحك به، وبادر العمل سريعاً"[1] .

٥- بناء علاقة سرية مع بعض الموغ (رجال الدين)، وثمة احتمالان: إما أن هؤلاء كانوا من رجال الدين المَزْدي السائد في المجتمع الميدي حينذاك. وإما أنهم كانوا من المتعاطفين مع زردشت، مع الأخذ في الحسبان أن زردشت أحدث انشقاقاً في الديانة المزدائية، ولذلك وقفت النخب الميدية الدينية والسياسية ضده. وقال دياكونوف موضّحاً: "إن قسماً من الكهنة الموغ عقدوا علاقات مع الفرس المتمردين. في الواقع إن الذي يدل على هذا أن الموغ كانوا يُستقبَلون باحترام كبير في بلاط كورش وابنه كمبوجيا الثاني (قمبيز الثاني) بعد الأحداث هذه مباشرة "[2] .

٦- صداقته مع ديگران ابن الملك الأرمني يروانت، وكان هذا الأخير ناقماً على سياسات أستياك، ويرغب في الخلاص من التبعية لميديا.

٧- استغلاله نشوب الخلافات بين الحليفتين (ميديا وبابل)، فقد كانت سلالة الملك البابلي نبوبولاصر (حليف كَيْخُسْرو) قد أزيحت عن الحكم في بابل، وتولّى السلطة نابونيد (نابونئيد) ابن الكاهنة العليا للإله (سين) في حرّان، وكان الميديون قد ضمّوا حرّان الى منطقة نفوذهم، لوقوعها على الطريق التجاري الرابط بين بلاد الرافدين وآسيا الصغرى وسواحل شرقي المتوسط، وكان نبونيد راغباً في السيطرة عليها، وقد

---

١. المرجع السابق، ص ٩٠ - ٩١ .

٢. دياكونوف: ميديا، ص ٣٩٥ .

هاجمها وسيطر عليها حينما انشغل أستياگ بثورة كورش سنة (٥٥٣ ق.م)[١] .

وهكذا فالظروف الداخلية والإقليمية هيّأت المناخ لأن ينفّذ كورش خطته، وفي وقت متأخر عرف أستياگ خفايا ما دبّره كورش، فاستدعاه الى أطباتانا، لكن كورش بادر الى إعلان الثورة، والزحف نحو ميديا، فحشد أستياگ جيشه لملاقاة الجيش الفارسي، ونصب هارپاگ قائداً لذلك الجيش، وكان من الطبيعي والحال هذه أن تكون الهزيمة نصيب الجيش الميدي، وقال هيرودوت في هذا الشأن:

"وكان من أثر ذلك العمل أن قلة من جنوده لم تشترك في المؤامرة، هي التي صمدت في ساحة المعركة، حين اشتبك الجيشان ودار القتال، وأما البقية فكانوا بين فارّ الى معسكر الفرس، ومتكلّف يصطنع القتال اصطناعاً؛ ليهرب بعدئذ من المعركة"[٢] .

وقال دياكونوف:

"هارپاگ الذي كان قائداً عاماً للجيش الميدي، فإنه مع النبلاء، وقادة قوات الجيش، انضموا الى كورش، ودخلوا في صفوف جيشه"[٣] .

ولما وصلت أنباء الهزيمة الى أستياگ أصر على الدفاع عن عرشه، فبادر الى إعدام بعض الخونة من الموغ، وسلّح سكان العاصمة أطباتانا، وعبّأهم للدفاع عن مدينتهم، واقتحم كورش العاصمة، وسقط المقاتلون الميديون المخلصون لملكهم صرعى، ووقع أستياگ في الأسر سنة (٥٥٠ ق.م)، قال دياكونوف:

"إن الكتابات والمصادر المذكورة... تبيّن أن الميديين قاوموا بقوة شديدة في المعارك مع الفرس، ولولا خيانة كبار رجال ميديا، داخل الدولة الميدية، لما استطاع الفرس السيطرة على الحكم في الإمبراطورية الميدية"[٤] .

ولم يكتف هارپاك بخيانة أستياگ، ومساعدة كورش على احتلال عاصمة الإمبراطورية، وإنما زار أستياگ في معتقله ساخراً ومتشفّياً، وأكد له أن هو الذي دبّر أمر الثورة عليه، فما كان من أستياگ إلا أن رماه بنظرة احتقار قائلاً له:

"إذنْ، فأنت لست الأشدّ لؤماً بين البشر وحسب، بل أكثر الرجال غباء؛ فإذا كان هذا

---

٠١ المرجع السابق، ص ٣٩٤ .

٠٢ هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٩٣ .

٠٣ دياكونوف: ميديا، ص ٣٩٢ .

٠٤ المرجع السابق، ص ٣٩٤ .

من تدبيرك حقاً كان الأجدر أن تكون أنت الملك،... وإذا كان لا بد لك من أن تسلّم العرش لآخر غيرك، كان الأجدر بك أن تقدّم هذه الجائزة لميدي، بدلاً من فارسي، لكن الحال الآن هي أن الميديين الأبرياء من كل جُنحة غدوا عبيداً بعدما كانوا أسياداً، وأصبح الفرس سادة عليهم، بعد ما كانوا عبيداً عندهم"[1] .

وعلى أية حال لم تكن سياسات أستياگ القاصرة هي السبب الوحيد لانقضاض النخب الأخمينية على دولة ميديا، كما أن الدافع الى ذلك لم يقتصر على الرغبة في التحرر من السيطرة الميدية، ولو كان الأمر كذلك لاكتفي الزعيم الأخميني كورش بدحر الجيش الميدي، والعودة الى فارس للاستقلال بحكمها، إن ما جري بين فارس وميديا كان فصلاً آخر من فصول الصراع بين (جغرافيا الحرمان) و(جغرافيا الوفرة)، بين (البداوة) و(المدنية)، وقد لخّص ول ديورانت ذلك بقوله:

"من السُّنن التاريخية التي تكاد تنطبق على جميع العصور أن الثراء الذي يخلق المدنية هو نفسه الذي يُنذر بانحلالها وسقوطها، فالثراء يبعث الفن كما يبعث الخمول؛ وهو يرقّق أجسام الناس وطباعهم، ويمهّد لهم طريق الدَّعَة والنعيم والترف، ويُغري أصحاب السواعد القوية والبطون الجائعة بغزو البلاد ذات الثراء"[2] .

ومهما يكن فإن سقوط دولة ميديا، وسيطرة الفرس على غربي آسيا، كان نقطة تحوّل كبرى في مصير البيت الغرب آسيوي عامة، وفي مصير الشعب الكردي بوجه خاص؛ إذ ثمة من الأدلة ما يؤكد أنه في كنف هذه الدولة وُضع حجر الأساس لمشروع أبلسة أجداد الكرد، وصار محتوماً على الكرد طوال خمسة وعشرين قرناً أن يرثوا تبعات ذلك المشروع. والآن ماذا عن تفاصيل التأسيس؟

---

١٠ هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٩٣ .

٢٠ ول ديورانت: قصة الحضارة، ١٩٤/٢ .

٤

# وصيّة قَمْبَيز وأبْلَـة الكرد

**الزعيـــم والأمـة:**

الأمة المنضبطة هي وحدها الأمة القوية، وهي وحدها الأمة التي تترك بصماتها على الجغرافيا والتاريخ. وكي تكون الأمة منضبطة تحتاج الى ثلاثة عوامل أساسية:

١- تحدّيات تحْفزِها الى التماسك والنهوض.

٢- مشروع (قومي، ديني) تؤمن به، وتضحّي من أجله.

٣- زعيم ذكي وشجاع يوحّدها ويقودها بحزم لتنفيذ المشروع.

وثمة حقيقة مثيرة للإنتباه في تاريخ غربي آسيا؛ وهي أن ثلاث أمم صحراوية النشأة سيطرت على غربي آسيا خلال خمسة وعشرين قرناً؛ وعلى وجه التحديد منذ سنة (٥٥٠ ق.م)، وتولّت كل واحدة منها، في أوقات مختلفة، رسم مسارات شعوب هذه المنطقة سياسياً وثقافياً واقتصادياً واجتماعياً، وتلك الأمم- بحسب تواريخ بروزها- هي: الفرس، والعرب، والترك. وفي كل مرة كانت العوامل الثلاثة (التحديات، المشروع، الزعيم) متوافرة، وتقوم بدورها في تكوين الانضباط، وتأمين القوة، والتمكين من الهيمنة على الجغرافيا والتاريخ.

ودعونا نحصر البحث الآن في أمة الفرس.

فحينما يقرأ المرء التاريخ الفارسي تَبهره أخبار ملوك الفرس (كُورش، وقُمْبَيز، ودارا، وأَحْشَويرَش، وأرتَحْشَشْتا، وأَرْدَشِير، وكِسري أَنُو شروان، وكِسري أَبْرَوَيز)؛ وهم يقودون جيوشهم الجرّارة شرقاً باتجاه بلاد تَوران (طوران) في وسط آسيا، وغرباً باتجاه بلاد الرافدين وآسيا الصغري واليونان وسوريا ومصر، وشمالاً باتجاه القوقاز (قَفْقاس) والبحر الأسود، وجنوباً باتجاه اليمن، فلا يجد حاجة للبحث عمّا وراء ذلك، وتفحّص البدايات؛ مع أن معرفة البدايات في تاريخ الأفراد والشعوب

والدول أمر في الغاية من الأهمية.

وبالعودة الى بدايات الشعب الفارسي يتّضح أن عوامل النهوض الثلاثة السابقة الذكر كانت قد تلاقت وتفاعلت، ونقلت الفرس- بشكل مُذهل- من دائرة الظل الى دائرة الضوء، ومن طور الضعف والتبعية الى طور القوة والهيمنة. وكانت التحدّيات التي واجهت الفرس بيئية وإقليمية.

فمن الناحية البيئية كان نصف بلاد فارس صحراوياً، وكان الباقي قليل الموارد، حتى إن هارفي بورتر قال: "وخلاصة ما يقال في تلك البلاد أنه ما كان يُتوقّع أن تخرج منها أمة قوية كأمة الفرس، أو ينشأ فيها رجال يتسلّطون على جانب عظيم من الأرض كما وقع"[1] . وأكّد دياكونوف تلك الحقيقة قائلاً: " كانت فارس دولة فقيرة متخلّفة من الناحية الاقتصادية والاجتماعية كثيراً"[2] . وكان هذا الشعب الذي تغلب البداوة على حياته وشخصيته، يجاور في شمالي بلاده الميديين وهم ينعمون بجغرافيا غنية بالموارد، وبدولة إمبراطورية الطابع، قطعت شوطاً متقدّماً في الحضارة ورخاء العيش.

ومن الناحية الإقليمية مرّ أن الملك الميدي فَراوُرْت Phraortes (خَشْتَرَيت) استكمل مشروع والده دياكو لتحرير ميديا من السيطرة الآشورية، وأنه ألحق بلاد فارس بدولة ميديا، تمهيداً لمواجهة الآشوريين، وصحيح أن الفكر السياسي الميدي كان يقوم على اللامركزية، وأن ملوك ميديا- قبل عهد أستياگ- لم يتعاملوا مع حكّام الأقاليم التابعة لهم على نحو تسلّطي، بعكس ملوك أكّاد وبابل وآشور، لكن مع ذلك فالتبعية انتقاص من كرامة الأمة، وسلب لحريتها، وكان من الطبيعي أن تشكّل تبعية بلاد فارس لدولة ميديا تحدّياً خطيراً للنخب الفارسية، وخاصة أن تلك النخب كانت شديدة الاعتزاز بهويتها، قال هيرودوت بهذا الشأن:

"والفرس شديدو الاعتزاز بأمتهم، ويضعون أنفسهم فوق أمم الأرض، ولكنهم يتركون مع ذلك بعض الفضائل للأمم الأخرى"[3] .

وفي خضمّ البحث عن مواجهة هذين التحديين بلورت النخب الفارسية مشروعها الإستراتيجي، وكان له بُعدان: الأول هو الانتقال من (جغرافيا الحرمان) الى (جغرافيا

---

١. هارفي بورتر: موسوعة مختصر التاريخ القديم، ص ١٥٢ - ١٥٣ .

٢. دياكونوف: ميديا، ص ٣٢٩ .

٣. هيرودوت: تاريخ هيرودوت ص ٩٥ .

الوفرة). والثاني هو الانتقال من (دائرة التبعية) الى (دائرة الاستقلال)، وبرز القائد الذكي والشجاع- كورش الثاني ابن قَمبيز الأول- لتحقيق المشروع، وإن ثقة كورش بنفسه حملته على أن يقول للنخب الفارسية في خطبة له:

"يا أبناء فارس، أعيروني سمعكم، واصغوا لنصيحتي، وستنالون حريتكم، فأنا الرجل الذي اختارته الأقدار لتحريركم، ويقيني أنكم أنداد للميديين في الحرب كما في كل أمر آخر، الحقُّ ما أقول، فهيّا ولا تتردّدوا، وانزعوا عن رقابكم نير أستياجيس حالاً"[1] .

وكان كورش يعرف أنه يخاطب آذاناً صاغية، وقلوباً واعية، ونفوساً متحمّسة، ويعرف أن النخب الفارسية، ومن ورائهم شعب فارس، يتطلّعون بشوق الى التحرر من السيطرة الميدية، وأنهم مستعدون للتضحية بالأرواح في سبيل ذلك، وقد أشار هيرودوت الى ذلك قائلاً:

"كان لحديث قورش أبلغ الوقع عند مستمعيه، فلطالما كره الفرس استعباد الميديين لهم، وها هم الآن يجدون قائداً يسير بهم الى طريق الحرية، فما كان منهم إلا أن هلّلوا لهذا الأمل الذي لاح لهم"[2] .

**الحـالة الميـدية:**

عندما يتصادم شعبان:

الأول مجروح في كرامته، ومنضبط ذاتياً، وحديث عهد بالبداوة، وصلب العود، ومعتاد على خشونة العيش، ومتمرّس في تحمّل المشقّات، ويلتفّ حول مشروع ما (قومي، ديني)، ويمتاز نُخَبه بالتفاهم والتكاتف، وينضوي الجميع تحت قيادة زعيم ذكي ومتحمّس وشجاع.

والثاني مغترّ بسيطرته الإمبراطورية، مفتقر الى الانضباط الذاتي، منشغل بالرخاء والترف، ولا يلتفّ حول مشروع (قومي، ديني)، وتقوده نُخب متصارعة على المناصب والمكاسب، ويقود الجميع زعيم ينزع الى الاستبداد المفرط، ويرتجل القرارات المصيرية، ويمارس السياسات الخاطئة، ويحوّل نخب قومه الى أعداء له.

---

١. المرجع السابق، ص ٩٢ .

٢. المرجع السابق، ص ٩٣ .

أقول: عندما يتصادم شعبان كهذين- في أيّ عصر كان- فلا غرابة في أن يكون النصر للشعب الأول؛ وحسبنا دليلاً على ذلك أمثلة ثلاثة:

١- انتصار العرب البداة في القرن السابع الميلادي، وتحت لواء الإسلام، على أكبر إمبراطوريتين متحضّرتين؛ إمبراطورية فارس، وإمبراطورية الروم.

٢- انتصار المغول البداة، في القرن الثالث عشر الميلادي، على الإمبراطورية الصينية المتحضّرة شرقاً، وعلى الإمبراطورية العربية المتحضّرة غرباً.

٣- انتصار الترك العثمانيين البداة، في القرن الخامس عشر الميلادي، على الدولة البيزنطية المتحضّرة، واحتلالهم القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية سنة (١٤٥٣ م).

وكذلك كانت حال كل من الفرس والميد عندما تصادما، وكان من الطبيعي أن ينتصر الزعيم الفارسي كورش على جدّه لأمه الملك الميدي الأخير أستياگ سنة (٥٥٠ ق.م)، وأن تنقلب الأدوار رأساً على عقب، ويصبح الشعب الفارسي هو السيد والشعب الميدي هو التابع.

وثمة من الأدلة ما يؤكد أن دولة ميديا كانت حالة فريدة في تاريخ الكرد طوال خمسة آلاف عام، وكما أن ظهورها كان نقطة تحوّل مصيري في مستقبل الكرد، فكذلك كان سقوطها وزوالها، وأجد في نفسي من الشجاعة العلمية ما يجعلني أعتقد أنه لولا جهود الزعماء الميد العظماء (دياكو، خَشْتريت، كَيْخسرو) لما كان في غربي آسيا اليوم شعب اسمه (الكرد)، ولا جغرافيا اسمها (كردستان).

وتعود فرادة الحالة الميدية- فيما أري- الى المزايا الآتية:

١- إنها التكوين السياسي الوحيد الذي شمل الجغرافيا الكردية من أقصاها الى أدناها، ففاقت بذلك الدول التي أقامها أسلاف الكرد من الطوتي واللولوبي والكاشي، والسوبارتو، والحوري (الميتاني)، هذا قبل سنة ٥٥٠ ق.م)، ومعروف أنه منذ ذلك التاريخ والى هذا اليوم لم يقم في الجغرافيا الكردية تكوين سياسي بالمستوى الذي كانت عليه الدولة الميدية.

٢- إنها الحاضنة الثقافية والسياسية والعسكرية والاقتصادية التي استوعبت مجتمعات أسلاف الكرد في العهود السابقة عليها، وأنجزت مشروعاً وطنياً متميّزاً، لم يقتصر على تحرير الأرض فقط، وإنما تركّز على تحرير الوعي من النرجسية القَبَلية والشرذمة المناطقية، وتحرير الهوية من التسيّب والضياع والاستلاب.

٣- إنها المنصّة الثقافية والسياسية والعسكرية والاقتصادية التي انطلق منها أسلاف الكرد للمشاركة بفعّالية في الأحداث الإقليمية والعالمية في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد.

بلي، إن سقوط دولة ميديا كان يعني سقوط التكوين السياسي الجامع المانع، وسقوط الحاضنة المازجة الدامجة، وسقوط المنصّة المساعدة على التحليق إقليمياً وعالمياً، وصحيح أن أستياگ مارس سياسات خاطئة، ولم يكن بمستوى أسلافه؛ لا في قراءة المزاج الميدي الجبلي، ولا في قراءة الواقع الإقليمي، لكنه- حتى وهو أسير بين أيدي أعدائه- لم يخسر حسّه الوطني (وربما القومي بمفاهيم ذلك العصر)، ولم يفتقر الى القراءة الإستراتيجية الصائبة لسقوط ميديا في القبضة الفارسية، وقد جسّد جميع ذلك في تأنيبه للقائد الميدي المتآمر هارباگ قائلاً:

"إذنْ، فأنت لست الأشدَّ لؤماً بين البشر وحسب، بل أكثر الرجال غباء،... وإذا كان لا بد لك من أن تسلّم العرش لآخر غيرك، كان الأجدر بك أن تقدّم هذه الجائزة لميدي، بدلاً من فارسي"[١] .

إن أستياگ- وهو زعيم سياسي كبير في عصره- لم يطلق صفة (الغباء) على القائد الميدي هارباط عبثاً، وإنما كان يعلم علم اليقين أن الشعب الذي يخسر مظلّته السياسية يصبح كريشة في مهبّ الريح، وأن مسألة سقوط العاصمة الملكية أكبَاتانا بيد كورش الأخميني هي أبعد وأخطر بكثير من مسألة تغيير نظام سياسي غير مَرضيّ عنه، أو الإطاحة بحاكم مستبد، إن المسألة مسألة وضع مصير أمة بأكملها في أيد غريبة وناقمة، وإزاحتها من بؤرة التاريخ الى الهامش، وسلبها القوة الوحيدة القادرة على حمايتها- وطناً وإنساناً- من مشاريع التعتيم والصهر والاستلاب؛ أقصد التكوين السياسي (الدولة).

وكم كان أستياگ محقاً في رؤيته المستقبلية لِما سيحلّ بالشعب الميدي! فمنذ سنة (٥٥٠ ق.م) والى يومنا هذا يدفع الكرد (أحفاد الميديين) ثمن النهج الهارباگي، النهج الضيّق الأفق، النهج المؤسس على الغفلة السياسية، والنهج المهووس بالأنانية العمياء؛ سواء أكانت فردية أم قَبَلية أم مناطقية أم مذهبية أم دينية، النهج القائم على الرغبة في الانتقام؛ الى درجة ارتكاب الخيانة والمقامرة بمصير أمة.

---

١- هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٩٣ .

والحقيقة أن عجلات مشروع (أبلسة الكرد)- المستمر منذ خمسة وعشرين قرناً بدأت- بالدوران يوم دخل كورش العاصمة الميدية أكباتانا فاتحاً، وسيق آخر ملك ميدي الى الأسر، وكان كورش هو العقل المدبّر الذي دشّن ذلك المشروع، وهيّأ الأرضية المناسبة- سياسياً واقتصادياً وعسكرياً وثقافياً وإقليمياً- لتأسيس ذلك المشروع بعدئذ رسمياً، وبموجب فرمان ملكي، على يد ابنه ووريثه الملك قَمْبيز (كمبوجيا) سنة (٥٢٢ ق.م). ودعونا نتفحّص إنجازات كورش في ذلك الميدان.

**دهاء كورش:**

لا أدري من هو صاحب مقولة "لا جديد تحت الشمس"، لكنها مقولة جديرة بالاهتمام حقاً، ففي تاريخ البشرية كثير من الأحداث والمواقف والممارسات المتشابهة، والجديد فيها هو الشخصيات والأمكنة والأزمنة؛ وإليكم أحد الأمثلة.

في سنة (٤٠ هـ - ٦٦١ م) اغتيل الخليفة الرابع عليّ بن أبي طالب، في الكوفة بالعراق، بيد أحد رجال المعارضة (الخَوارج)، ورأى ابنه الحسن- وكان أنصار أبيه بايعوه بالخلافة ثم طمعوا فيه- أنه يخوض حرباً خاسرة ضد منافسه القوي مُعاوِيَة بن أبي سُفْيان في دمشق، فدارت بينهما مفاوضات سنة (٤١ هـ)، أسفرت عن قبول الحسن بالتنازل عن الخلافة لمعاوية، لقاء شروط معظمُها مكاسب مالية، "وقال له: إن أنت أعطيتني هذا فأنا سامعٌ مطيعٌ، وعليك أن تَفِيَ لي به"[1] .

فأرسل إليه معاوية "صحيفةً بيضاءَ مختومٌ على أسفلها، وكتب إليه: أن اشترطْ في هذه الصحيفة التي ختمتُ أسفلها ما شئتَ، فهو لك. فلمّا أتت الصحيفةُ الى الحسن اشترط أضعافَ الشروط التي سأل معاويةَ قبلَ ذلك، وأمسكها عنده، فلمّا سلّم الحسنُ الأمرَ الى معاوية، طلب أن يعطيه الشروط التي في الصحيفة التي ختم عليها معاوية، فأبى ذلك معاويةُ، وقال له: قد أعطيتك ما كنت تطلب"[2] .

إن هذا الموقف شبيه بما جري بين الفريق الهارباطي المتآمر، والملك الفارسي كورش، قبل حوالي (١٢) قرناً، فأقصى ما كان يطمح إليه الفريق الهارباطي هو إزاحة أستياگ عن عرش ميديا، والانتقام منه وإذلاله، والفوز ببعض المكاسب التي يبدو أن

---

١. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٣/٥ .

٢. المرجع السابق نفسه.

أستياگ كان يحول بينهم وبينها؛ وهل من المعقول أن يُحجم زعيم سياسي ذكي مثل كورش عن تقديم بعض المكاسب المالية والمناصبية للفريق الهارباطي؛ ما داموا يقدّمون له عرش ميديا، وكل مملكة ميديا، على طبق من ذهب؟

وقد مرّ فيما سبق أن كورش هو ابن الأميرة الميدية مَنْدانا ابنة الملك أستياگ، وأنه أمضى فترات من عمره في القصر الملكي، وبعد أن شبّ صار من المقرّبين الى جدّه، وكان الجدّ يُسند إليه تارة مهمّات عسكرية، منها توجيهه الى أرمينيا؛ لإخضاع ملكها يَرْوانت الذي ثار على أستياگ، وتارة أخرى مهمّات سياسية، منها إرساله مبعوثاً الى قائد الكادوسيين في جنوبي نهر آراس، كما أنه كان من المقرّبين الى هارباط عندما أسند أستياگ منصب القائد العسكري (وزير الدفاع حسب المصطلحات الحديثة) الى هذا الأخير[1] .

وهذا يعني أن كورش كان من العناصر القيادية الفاعلة في هرم السلطة الميدية، وكان عليماً ببواطن الأمور في الدائرة السياسية العليا، وما فيها من صراعات وانقسامات، وكان خبيراً في الوقت نفسه بانعكاس صراعات تلك النخب الميدية على المجتمع الميدي.

ويبدو أن نخب ميديا كانت تَعدّ كورش واحداً منهم، وخاصة إذا أخذنا العلاقة الحميمة بين ابن الأخت وأخواله في المجتمع الكردي، ومن الأمثلة على ذلك الدعمُ الذي تلقّاه الأمير الأُموي مروان بن محمد من أخواله الكرد (جنود الجزيرة)، للفوز بالخلافة في دمشق سنة (١٢٧ هـ)، والدعم الذي تلقّاه الأمير العربي أبو الهَيْجاء عبد الله بن حَمْدان من أخواله الكرد، حينما ثار على العباسيين في الموصل سنة (٣٠١ هـ)، وتعاطفهم بعدئذ مع ابنه الأمير سيف الدولة الحَمْداني، حاكم حلب وشمالي سوريا، باعتبار أن أمّه كانت كردية أيضاً[2] .

وقد استغلّ كورش خبرته وعلاقاته تلك، وتحرّك على ثلاثة محاور:

المحور الأول تضليلي: استغل كورش مكانته الرفيعة وعلاقاته بالنخب الميدية المعادية للملك أستياگ، وعلى رأسهم هارباط، فأوهمهم بأنه واحد منهم، وأنه يعمل في إطار

---

١. دياكونوف: ميديا، ص ٣٣٠، ٣٩١ .

٢. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٣٢١/٥ . ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٥٢٠/٧ . أحمد عَدْوان: الدولة الحَمْدانية، ص ١١١ .

مشروعهم الانقلابي، وأنه لا يريد المساس بكيان الدولة الميدية؛ الى درجة أن الفريق الهارباطي أفلح في إقناع شرائح من المجتمع الميدي بأن كورش منقذ، وليس مغتصباً للعرش. وقال ديورانت في هذا الصدد:

"وابتهج الميديون أنفسهم بانتصاره (كورش) على ذلك الطاغية، وارتضوه ملكاً عليهم، ولم يكد يرتفع من بينهم صوت واحد بالاحتجاج عليه"[1] .

وقال دياكونوف:

"إن كورش لم يغيّر المملكة الميدية، ولم يقض عليها، بل إنه نصب نفسه ملكاً على ميديا، بينما بقي اسمه كالسابق ملك الفرس"[2] .

وأضاف دياكونوف موضّحاً سياسة كورش مع الميديين:

"إن السياسة الدائمة لكورش الثاني، والتي لم تتغيّر أبداً، هي الاتفاق مع الرجال الكبار (النبلاء) الميديين، كي يَجذِب انتباههم، ويَكسِب ودّهم؛ لهذا السبب فإن الملوك الذي كانوا يقعون في الأسر من الملوك الميديين لم يقتلهم. نجا أستياگ من القتل لهذا السبب، وأُبعد الى هيركانيا[3] ، يقول كتسياس بهذا الصدد: فإنه قوبل بإحترام كبير من قبل حاكم الهيركانيين حين أُبعد الى أراضيهم"[4] .

والأرجح أن معاملة أستياگ باحترام من قِبل حاكم هيركانيا (تقع في جنوب شرقي بحر قزوين) كانت بإيعاز من كورش نفسه، لأن الحاكم الهيركاني كان أحد زعماء الأقاليم التابعة للدولة الميدية، وقد تمرد على سلطة أستياگ، وتحالف مع كورش ضد دولة ميديا.

وأكّد دياكونوف سياسة كورش المداهنة مع النخب الميدية قائلاً:

"يذكر داريوش الأول بعض القادة العسكريين في الجيش الفارسي من الميديين، حتى الى عهد خَشْيارشا (أَحْشَويرش الأول) صدفة يُورَد ذكرُ أسماء بعض النبلاء الميديين. أما من الناحية الإدارية الأخمينية فإن الميديين كانت لهم

---

١٠ ول ديورانت: قصة الحضارة، ٤٠٢/٢ .

٢٠ دياكونوف: ميديا، ص ٣٩٦ .

٣٠ تقع هيركانيا في جنوب شرقي بحر قزوين، وقد أفاد دياكونوف أنها منطقة أوسترابا الحالية وكراستودسك. انظر دياكونوف: ميديا، ص ٣٩ .

٤٠ دياكونوف: ميديا، ص ٣٩٧ .

مراكز ودرجات عالية"[1] .

وأضاف دياكونوف يقول:

"بالرغم من أن أكباتانا كانت قد تمّ احتلالها وسلبها، وأُسر بعض المواطنين الميديين منها، وكذلك تمّ فرضُ الجزية والضرائب على ميديا كبلاد محتلة؛ في هذا الوقت فإن النبلاء وكبار رجالات الميديين عُرضت عليهم حلقة من السلطات الملائمة، وخاصة الذين قاموا بدور الخيانة ضد بلادهم"[2] .

والمحور الثاني استغلالي: فبعد أن اعتلى كورش عرش ميديا انكبّ على توظيف شهرة ميديا إقليمياً وعالمياً لترسيخ نفوذه، ولتسليط الضوء على نفسه، كما أنه وظّف ثروات ميديا والمؤسسات الميدية، وخاصة المؤسسة العسكرية، لتحقيق مشاريعه التوسّعية، وحسبنا دليلاً على ذلك أن المقاتلين الميد كانوا يشكّلون قوة ضاربة في الجيوش الأخمينية، حتى بعد عهد كورش، وكانوا يأتون في الدرجة الثانية من حيث الترتيب بعد قوات (الخالدين) الفارسية.

وحسبنا دليلاً على ذلك أيضاً أن القائدَين الميديين مازاريس وهارباط هما اللذان قادا الجيوش للقضاء على ثورات الإغريق في آسيا الصغرى (غربي تركيا حالياً)، لا بل إن المؤسسة الأخمينية بعد كورش بعهد طويل كانت تستمر في استغلال القدرات القتالية للإنسان الميدي، وتزجّ به في سلسلة حروبها المتواصلة، ونذكر على سبيل المثال القائد الميدي داتيس، فقد عيّنه الملك الأخميني الثالث دارا الأول قائداً للجيش الفارسي الذي غزا بلاد اليونان في عقر دارها، وهاجم العاصمة أثينا، وخاض معركة (ماراثون) الشهيرة سنة (٤٩٠ ق.م)[3] .

ولعل الصورة تصبح أكثر وضوحاً إذا أخذنا في الحسبان أن الملك الميدي كَيْخُسْرو كان قد أسس قوة قتالية ميدية متميّزة بالمقاييس العسكرية في ذلك العصر، إنها كانت على مستوى رفيع من الانضباط والصلابة والروح الفدائية، الى درجة أنها تفوّقت على القوة القتالية الآشورية المشهورة بالانقضاض السريع،

---

٠١ المرجع السابق، ص ٣٩٥ .

٠٢ المرجع السابق نفسه.

٠٣ هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٤٦٦ .

والانضباط الشديد، والشراسة البالغة، والإقدام الباسل[1] .

والمحور الثالث تآمري: فبعد أن أفلح كورش في تثبيت سيطرته على عرش ميديا، ورتّب الأوضاع كي تصبح مقاليد الأمور منحصرة في يديه وفي أيدي النخب الفارسية، انتقل الى المرحلة الثانية من مشروعه؛ ألا وهي تقليم أظافر القوي الميدية التي يُحتمَل أن تطيح بسلطته، وتستعيد الحكم الميدي، ولتحقيق هذا الغرض قام بالإجراءات الآتية:

١- لم يكن لأستياگ ابن يرثه، وكانت له ابنتان، الأولى مَنْدانا والدة كورش، والثانية آميتيدا، وكان قد تزوّجها نبيل ميدي يدعي أَسْثيتام، وكانت التقاليد الميدية تقضي بأن زوج ابنة الملك يرث العرش إذا لم يكن للملك ابن يرثه. وهذا يعني ضمناً أن أسثيتام كان الملك المحتمَل بعد أستياگ، وأن بقاءه حياً يحول دون تنفيذ المشروع الأخميني المتمثّل في دفن الدولة الميدية الى الأبد، ولذلك بادر الى كورش الى قتل أسثيتام[2] .

٢- عرف كورش أن الشرعية الانقلابية وحدها غير كافية لترسيخ أقدامه في العرش الميدي، ولا بد من الحصول على الشرعية الدستورية في هذا المجال، ولذلك بادر الى الزواج من خالته آميتيدا بعد أن قتل زوجها الميدي أسثيتام، ليفوز بالعرش الملكي، وقد أكّد كتسياس هذه الحقيقة قائلاً: "إن كورش تزوّج من ابنة أستياگ آميتيدا،... وكان هدفه من هذا الزواج هو الادّعاء القانوني لحكم الإمبراطورية الميدية"[3] .

٣- عمدت الآلة الدعائية الأخمينية، مدعومة بالآلة الدعائية للفريق الهارباطي، الى تشويه صورة أستياگ في الذاكرة الآريانية وفي الذاكرة الغرب آسيوية عامة، فسُمّي أذدهاك (التنّين)، واختلقوا رواية الحيّتين اللتين نمتا على كتفيه، ونصيحة إبليس له بإطعام الحيتين دماغي شابين كل يوم، وثورة الجماهير عليه بقيادة كاوا الحدّاد، وتسلّلت هذه الروايات المدسوسة الى التراث الإسلامي بعدئذ، فصار أذدهاك يسمّي (الضحّاك)، وسيأتي ذكر ذلك تفصيلاً في صفحات لاحقة من هذه الدراسة[4] .

٤- ما دام أستياگ حيّاً يبقي رمز الدولة الميدية ماثلاً للعيان، ويبقي الاحتمال مفتوحاً

---

١. دياكونوف: ميديا، ص ٢٧٩ .

٢. هارڤي بورتر: موسوعة مختصر التاريخ القديم، ص ٨٧ .

٣. دياكونوف: ميديا، ص ٣٩٦ .

٤. المسعودي: مروج الذهب، ج ٢، ص ١٢٢- ١٢٣ . المقدسي: البدء والتاريخ، ٣/ ١٤٣. الزبيدي: تاج العروس، مادة (كرد).

لأن يقوم أنصاره بانقلاب مضاد، وإعادته الى العرش الميدي. ولقطع دابر هذا الاحتمال كان لا بد من تغييب هذا الرمز؛ ولذا تمّ التخلص من أستياگ بطريقة مُلبِسة، وذكر دياكونوف أن أستياگ دُعي من منفاه في هيركانيا الى رؤية ابنته، فأخذه قائد يدعى (بتسياك) الى الصحراء، وتركه هناك كي يموت جوعاً وعطشاً[1] .
وهل كان بتسياك يجرؤ على فعل ذلك بالملك الميدي لولا موافقة كورش؟

**وصية قمبيز:**

بهذه الإجراءات التضليلية والمداهنة خطا كورش الخطوات الأولى نحو تغييب التكوين السياسي الميدي في ظلمات التاريخ، وترسيخ النفوذ الفارسي في غربي آسيا. وبعد مقتل كورش في حربه ضد شعب ماسّاجيتاي التوراني بوسط آسيا، سنة (٥٣٠ ق.م)، تولّي العرش ابنه قمبيز الثاني، فزادت في عهده هيمنة الفرس على مقاليد الأمور، ودفعوا بالميديين رويداً رويداً الى الهامش.

وقاد قمبيز حملة لغزو مصر، واحتلها سنة (٥٢٥ ق.م)، وكانت تنتابه نوبات صرع وغضب جنوني، فارتكب كثيراً من الفظائع، ومنها أنه أمر القائد الفارسي بركساسبيس بالذهاب الى بلاد فارس، وقتل أخيه سميرديس ودفنه سراً؛ لأنه رأى في الحلم أن شخصاً قد حلّ محله في الحكم يدعى سميرديس[2] .

وفي ذلك الحين كان قد مضى زمن الجيل الميدي الهارباگي، جيل الغفلة والأنانية الى درجة ارتكاب الخيانة، واستيقظ جيل النخبة الميدية التالي على الحقيقة المُرّة؛ حقيقة سيطرة النخب الفارسية على الدولة سياسياً وعسكرياً واقتصادياً وثقافياً، وطمس معالم الحضور الميدي إلا في المجالات الخدماتية، وكانت أمجاد دولة ميديا ما زالت حية في ذاكرة تلك النخب الميدية، فراحت تتحيّن الفرص المناسبة لاسترداد المُلك المسلوب.

وحينما توجّه قمبيز الى غزو مصر انتهز أخوان من النخب الميدية الفرصة، الأول يدعي ثيرتزيثيس، وكان موغاً (كاهناً)، ويتولّي شؤون القصر الملكي، والآخر يدعي سميرديس، ويسمّي گوماتا (گؤماتا) أيضاً، وكان طوماتا شبيهاً بسميرديس بن

---

١. دياكونوف: ميديا، ص ٣٩٧ .

٢. هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٢٣٣، ٢٣٤ .

كورش (أخي قمبيز)، وكان ثيرتزيثيس هو العقل المدبر للإنقلاب المضاد، وبما أن المؤسسة العسكرية كانت في القبضة الفارسية، فلم يبق أمام ثيرتزيثيس وسيلة سوى الدهاء لتنفيذ الانقلاب، فاستغل حادثة مقتل سميرديس الأخميني بأمر من قمبيز سراً، وأقنع أخاه طوماتا بالجلوس على عرش فارس، والإعلان عن أنه سميرديس بن كورش، يقول هيرودوت:

"وأرسل بياناً لجميع القوات في أنحاء فارس ومصر كافّة، مفاده أن عليهم في المستقبل تنفيذ الأوامر الصادرة عن سميرديس، وليس عن قمبيز"[1] .

وفي سنة (٥٢٢ ق.م)، وبينما كان قمبيز في سوريا، عائداً الى فارس، وصلته نسخة من البيان الانقلابي، وبعد التحقيق مع القائد الفارسي بركساسبيس، والتأكد من أن أخاه سميرديس قُتل حقاً، عرف قمبيز أن الكاهن الميدي وأخاه قادا انقلاباً ضده، وحكما البلاد باسم أخيه المقتول سميرديس، فاستبدّ به الغضب، وامتطى جواده للتوجّه الى فارس، والقضاء على الانقلاب، ولما وثب على الجواد سقط غمد سيفه، وانكشف النصل، فأصيب بطعنة في فخذه، فمرض على أثر ذلك، وبعد عشرين يوماً شعر بدنوّ أجله، فجمع قادة الجيش الفارسي، وقال لهم:

"يا رجال فارس، إن الظروف لَتفرِض عليّ أن أبوح لكم بما كنت قد بذلت قُصاري جهدي لإخفائه. ثم روي لهم خبر الحلم، وإصداره الأمر بقتل أخيه سميرديس نتيجة لذلك، وأنهم أصبحوا الآن محكومين من قِبل المجوسيِّين"[2] .

وأضاف قمبيز يقول لقادة الفرس:

"فلزامٌ عليّ أن أبيّن لكم وأنا ألفِظ أنفاسي الأخيرة، ما أرغب إليكم القيام به، فبإسم الآلهة التي تحرس أسرتنا الملكية آمركم، وخاصةً الأخمينيين منكم الحاضرين هنا، ألاّ تَدَعوا الميديين يستردّون السلطة، فإذا حصلوا عليها عن طريق الغدر والخيانة فاستردّوها بالسلاح نفسه، أما إذا استردّوها بالقوة فكونوا رجالاً، واستردّوها بالقوة. إذا قمتم بما آمركم به، فإني أدعو لكم بأن تغمركم الأرض بخيراتها، وأن تُرزَقوا بالأطفال، وتتكاثر قطعانكم، وأن تكونوا أحراراً مدى الدهر. أما إذا فشلتم في استرداد السيادة، أو لم تقوموا بأيّة محاولة لإستردادها، فلتنزلْ عليكم لعنتي، وليكن مصيركم عكس ما أدعو

---

١. المرجع السابق، ص ٢٤٦ .

٢. المرجع السابق، ص ٢٤٩ .

لكم به الآن، وعِلاوة على ذلك فلتكن نهاية كل فارسي بائسة مثل نهايتي"[1] .

فتأثر القادة الفرس بمنظر ملكهم وهو يبكي والدموع تنهمر من عينيه، وأخذوا في تمزيق ثيابهم، وبالبكاء والعويل، ثم استفحل المرض بقمبيز، وتوفّي دون أن يكون له عقب من الصبيان أو البنات.

تلك هي وصية قمبيز التي ظلت تجلجل أصداؤها في آذان النخب الفارسية طوال قرون، وكانت بمثابة البيان التأسيسي لمشروع اجتثاث الحضور الميدي في تاريخ غربي آسيا، لا بل تشويهه وأبلسته، وكان من الطبيعي أن يرث الكرد (أحفاد الميديين) النتائج المترتّبة على تلك الوصية، وتتبلور المعالم الحقيقية لمشروع (أبلسة الكرد) المستمر منذ (٢٥) قرناً.

وقد استمر سميرديس الميدي في الحكم سبعة أشهر، وأوّل ما اهتم به أنه حرر الشعوب المقهورة من جور الحكم الفارسي، وأسقط الضرائب الباهظة عن كاهلهم، وأعفاهم من إرسال أبنائهم الى ميادين الحروب، قال هيرودوت:

"وخلال عهد المجوسي حصل رعاياه على منافع عظيمة، ولذلك أسف لموته جميع الآسيويين التابعين، باستثناء الفرس؛ إذ إنه بُعيد اعتلائه العرش أعفي جميع الأمم الخاضعة له من الضرائب والخدمة العسكرية مدة ثلاث سنوات"[2] .

وسرعان ما تحرّكت النخب الفارسية لتنفيذ وصية ملكهم قمبيز، وشكّل سبعة منهم خلية قيادة سرية، وكان دارا الأول أبرز أولئك السبعة، وأكثرهم شجاعة ودهاء، وهو الذي رسم خطّة الهجوم على الأخوين الميديين في القصر الملكي، وتحمّس زعيم فارسي آخر يدعي جوبرياس لخطة دارا، وقال مخاطباً رفاقه:

" يا أصحابي، هل تتاح لنا فرصة أفضل مما لدينا الآن لإنقاذ العرش؟ أمّا إذا فشلنا فلنمتْ في المحاولة، أفحتمٌ على فارس أن يحكمها ميدي؛ ذلك المجوسي الذي قُطعت أذناه[3]؟ ولن ينسي من كان منكم واقفاً بجانب قمبيز، وهو على فراش الموت، اللعنةَ التي أنزلها بالفرس إذا لم يقوموا بأي جهد لإنقاذ العرش، ... وأعتقد أن علينا

---

١٠ المرجع السابق نفسه.

٢٠ المرجع السابق نفسه.

٣٠ كان كورش قد أمر بقطع أذني سميرديس عقاباً له، وليس من المستبعد أن يكون لذلك العقاب صلة بنزعة سميرديس إلى رفض الحكم الأخميني.

الأخذ بنصيحة داريوس، وأن نُنهي الاجتماع، لنذهب فوراً الى القصر، ونهاجم المجوسيَّين"[1] .

وشنّ الزعماء الفرس السبعة هجوماً مفاجئاً على القصر الملكي، ولم يعترضهم الحراس باعتبارهم من كبار الزعماء، لكن خصيان القصر استوقفوهم، وعنّفوا الحراس على السماح لهم بالدخول، وهنا استلّ المهاجمون خناجرهم، وفتكوا بالخصيان. وعرف الأخوان الميديان حقيقة الأمر، فاستعدّا للمواجهة، وخاضا القتال ضد المهاجمين السبعة، لكنهما خسرا الجولة، وكانت نهايتهما القتل، قال هيرودوت:

"بعد أن تمّ قتل المجوسيَّيْن، قطع المتآمرون رأسيهما، وخرجوا الى الشارع وهم يصرخون، مُحدِثين ضجّة عظيمة، حاملين الرأسين المقطوعين، ... ثم بدأوا بقتل كل مجوسي صادفوه في طريقهم، وسرعان ما أصبح الفرس الآخرون على أهبة الاستعداد لأن يحذوا حذوهم، بعد أن علموا بالعمل البطولي الذي اضطلع به الحلفاء السبعة، والخدعة التي قام بها المجوسيان، فاستلّوا خناجرهم، وقتلوا كل مجوسي وقعت أنظارهم عليه، وكادوا يبيدون المجوس لولا حلول الظلام، فتوقفت المجزرة، وقد أصبح هذا اليوم يوماً مشهوداً في التقويم الفارسي؛ حيث يقام احتفال سنوي باسم قتل المجوس، ولا يُسمح في أثنائه لأيّ مجوسي بالظهور، فيقبعون جميعاً في بيوتهم طوال اليوم، لا يَبرحونها"[2] .

وكان من الطبيعي أن يخسر الأخوان الميديان محاولتهما الانقلابية، ويفشلا في الإطاحة بالسلطة الفارسية، لأن الإجراءات الوقائية التي سبق أن اتخذها كورش ومن بعده قمبيز، أثمرت، وأدّت الى تهميش النخب الميدية غير المذعنة للفرس، وحصر السلطات الأساسية في العناصر الفارسية، ولذلك كانت محاولة الأخوين الميديين محاولة فردية، ولم يكن لها سند لا من النخب الميدية ولا من جماهيري الميديين، مع أنه كان لهم حضور لا بأس به في العاصمة الملكية أكباتانا.

وإن منطق الأحداث يقتضي أن يكون دارا ورفاقه قد قاموا بعمليات تطهير واسعة في أرجاء ميديا، وقضوا على كل زعيم ميدي تحدّثه نفسه بالخروج عن طاعة السلطة الأخمينية، وأرسوا سياسات إدارية وعسكرية واقتصادية وثقافية، أتاحت للفرس أن

---

١. المرجع السابق، ص ٢٥٣ .

٢. المرجع السابق، ص ٢٥٥– ٢٥٦ .

يُحكموا قبضتهم على جميع المراكز والمؤسسات والمواقع الهامة في الدولة والمجتمع.

وثمة تساؤلان مهمان:

الأول: ما مدي تأثير وصية قمبيز في مصير الميديين؟

والثاني: ما علاقة ذلك بمشروع أبلسة الكرد؟

٥

# الكرد ونتائج وصيّة قمْبَيز

## قرارات وتحوّلات:

مصائر الشعوب مرهونة بالتحوّلات الكبيرة، وما من تحوّلات كبيرة إلا وتقف وراءها قرارات خطيرة، وقد تكون تلك القرارات بنّاءة، فتنتقل بالأمة الى أعلى علّيين، وقد تكون مدمِّرة، فتهوى بها الى أسفل سافلين.

لكن من هي الجهة القادرة على اتخاذ القرارات الخطيرة؟

إنها نُخَب الشعوب، إنها المثقفون والساسة، فإذا كانت تلك النخب منتمية الى الأمة- أرضاً وهويةً وشعباً- انتماءَ عشقٍ واتحاد، بحيث تكون حالها كحال الصوفي الشهير الحسين بن منصور الحَلاّج حينما قال:

| | |
|---|---|
| أنا مَن أهوى، ومَن أهوى أنا | نحن روحان حلَلْنا بَدنا |
| فإذا أَبصرتَني أبصرتَهُ | وإذا أبصرتَهُ أبصرتَنا[1] |

أقول: حينما تكون قلوب النخبة وعقولها عامرة بانتماء له هذا العمق، وله هذا الصدق، حينذاك تُشرق القرارات البنّاءة، فتنتقل بالشعوب من الظلمة الى النور، ومن الانقسام الى الوحدة، ومن الضعف الى القوة، ومن الذلّة الى العزّ، ومن العبودية الى الحرية، وحينذاك تتحرر من جاذبيات مدارات الاغتراب عن الذات، وتنتصر على روح الهزيمة، وتتفوق على العجز واليأس والضياع.

أما حينما تكون قلوب النُّخَب وعقولها متخمة بالأنانية، وبالغفلة وضيق أفق الى درجة إرتكاب الخيانة، وحينما تنظر تلك النخب الى الوطن على أنه مجرد مزرعة للاستغلال، والى الهوية على أنه مجرد جِلباب تخلعه متى تشاء، والى الشعب على أنه مجرد مجموعات من المرتزقة والحشم والخَدم والقاصرين عقلياً؛ فحينذاك تُبتلى الأمم

---

١. ابن خلّكان: وَفَيات الأعيان، ٢/١٤١ .

بالقرارات الهدّامة المدمّرة، وتنحدر الى أسفل سافلين.

وثمة في تاريخ كل أمة قرارات خطيرة اتخذتها تارة نُخَب (عِشق الأمة)، واتخذتها تارة أخرى نُخب (عِشق الذات)، وقد اتّضح لي- في حدود ما أعرف- أن أكثر القرارات خطورة في تاريخ الكرد القديم قراران:

١ - القرار الخطير الذي اتخذته النُخب الميدية بزعامة دياكو، لتشكيل اتحاد قبائل ميديا، وبناء العاصمة الوطنية أطباتانا، وتشييد القصر الملكي، وإصدار التشريعات والمراسيم الضابطة المنظِّمة، والانتقال بذهنية الإنسان الميدي من الهُويّة القَبَلية الى الهُويّة الوطنية، ومن مفهوم الجغرافيا القَبَلية الى مفهوم الجغرافية الوطنية.

٢ - القرار الخطير الذي اتخذته النخب الميدية بزعامة هارپاگ وأقرانه، للإطاحة بالملك الميدي أستياگ، وفتح أبواب العاصمة الوطنية أكباتانا للجيش الأخميني، وتقديم العرش الملكي الميدي للزعيم الأخميني كورش على طبق من ذهب.

حقاً إن وصية قمبيز خرجت من تحت عباءة القرار الهارپاگي، ولولا القرار الهارپاگي لما كانت وصية قمبيز، ولما وصلت الأمور بالميديين، وبأحفادهم الكرد، الى الحالة التراجيدية التي وصلوا إليها.

وعلى أية حال لم تقتصر القرارات الخطيرة الصادرة عن النهج (الهارپاگي) في تاريخ الكرد عند سقوط دولة ميديا سنة (٥٥٠ ق.م) فقط، وإنما كانت تظهر فجأة في حياة الكرد بين حين وآخر، فتُحدث منعطفات حادّة في مصيرهم، وتقذف بهم من ظُلمة الى أخرى، وإلا ففي أيّ نهج يمكن أن نصنّف فتوى رجل الدين الكردي ملاّ خاطي، في إحدى ثورات الكرد ضد الدولة العثمانية (لا يحضرني الآن اسمها)، بأن كل من ينضم الى الثورة هو مرتدّ عن الإسلام، وزوجته منه طالق، وكانت النتيجة طبعاً انهيار الثورة؟ وفي أيّ نهج يمكن أن نصنّف انشقاق يَزْدانْ شَير على عمّه بدرخان بط سنة (١٨٤٧ م)، وانضمامه بمن معه من القوات الكردية الى الجيش العثماني؛ الأمر الذي أدّى الى إحداث شرخ كبير قَصم ظهر الثورة الكردية، ولم يبق خيار أمام بدرخان بگ سوى الاستسلام[١] .

والحقيقة أن هذا النهج الهارپاگي، نهج الأنانية والغفلة والخيانة، موجود في تواريخ

---

٠١ أرشاك سافراستيان: الكرد وكردستان، ص ٩٣ .

معظم الشعوب، لكنه لم يُعمِّر في تاريخ شعب طوال خمسة وعشرين قرناً كما هو الأمر في تاريخ الكرد، تُرى ماذا وراء هذه الظاهرة الغريبة؟ هل لها علاقة بنظرية (القابلية)؛ أقصد قابلية الأنانية والغفلة والخيانة؟ وإذا كان الأمر كذلك فما الدوافع والعوامل التي أنتجت هذا النمط من (القابلية) في ذهنية بعض النخب الكردية؟ وهل له علاقة بطبيعة الشخصية الكردية، أم أنه نتاج قصور في (الوعي)، وأحد إفرازات التخبط في تشخيص (المصلحة)؟

حبّذا أن يمنح المفكرون الكرد هذه الظاهرة بعض اهتمامهم.

ولنعد الى وصية قمبيز، فطوال خمسة آلاف عام، لم تكن هذه الوصيّة هي المشروع الوحيد الذي اعتمدته جهات غرب آسيوية، أو جهات عولمية، للنيل من الكرد أجداداً وأحفاداً، ولسلبهم الجغرافيا والتاريخ والهوية، ولوضعهم بين خيارين أحلاهما مُرّ: إما البقاء أتباعاً ومرتزقةً وعبيداً، وإما الفناء بالصهر والقتل.

بلى، لم تكن وصية قمبيز هي المشروع الوحيد في هذا المجال، لكن- في حدود معرفتي بتاريخ الكرد القديم- يمكنني الجزم بأن هذه الوصية كانت أخطر تلك المشاريع، وأشدها إلحاقاً للأذى بمصير الكرد، وأنها الأب الروحي لكل ما اتُّخذ ضد الكرد من إجراءات إقصائية وإلغائية منذ (٢٥) قرناً، ولذلك أعدّ سنة (٥٢٢ ق.م) السنة التي تأسّس فيها أول مشروع رسمي ومنهجي لأبلسة الكرد، وتبشيع صورتهم، تمهيداً لإلغائهم من تاريخ البشرية جملة وتفصيلاً.

وإليكم أبرز النتائج التي ترتّبت على وصية قمبيز.

**النتائج السياسية:**

إن أهم أمر حرص عليه القادة الفرس، بعد السيطرة على دولة ميديا، هو الحؤول دون عودة الحياة الى مفاصل التكوين السياسي الميدي، وتحطيم كل محاولة تسير في هذا الاتجاه؛ لأنهم كانوا يعلمون أن إحياء دولة ميديا يعني إمكانية أن يفقد الفرس مركز الزعامة إقليمياً وعالمياً، بل قد يفتح المجال لعودة الميديين الى السيطرة عليهم من جديد.

وكان عهد دارا الأول هو عهد تحطيم كل محاولة ميدية للخلاص من السيطرة الفارسية، كما أنه كان عهد تدشين مشروع تفريغ ذاكرة الأجيال الميدية من أية

ذكريات وطنية وقومية تربطهم بهويتهم الأصلية، وقد مرّ في صفحات سابقة أن بعض النخب الميدية تنبّهوا الى خطورة ما كان يقوم به دارا، فقاوموه وثاروا على الحكم الفارسي، وكان دارا بالغ القسوة في التعامل معهم، وقد خلّد في نقش بيستون كيفية فتكه سنة (٥٢١ ق.م) بزعيم ميدي ثائر يدعى فَراوُرْت، قائلاً:

" فرورتيش ألقَوا القبض عليه، وجلبوه عندي، أنا قطعت أنفه وأذنيه ولسانه، وفقأت عينيه، وربطوه بالقيود في بلاطي، كي يراه جميع المواطنين الأحرار، عند ذلك أمرت أن يرموه بالسهام في أطباتانا، والذين كانوا يؤيّدونه من البداية أعدمتهم في أكباتانا داخل القلعة"[١] .

وهكذا أصبحت وصية قمبيز بالقضاء على كل محاولة لإحياء الدولة الميدية أمراً مقدّساً عند النخب الفارسية، تنزل البركات الإلهية على من يلتزم به، وتحلّ اللعنات على من يهمله، ونتيجة لذلك تفكّك الاتحاد الذي كان يجمع قبائل ميديا، وبمرور القرون نشط الانتماء القبلي الضيق الأفق في المجتمع الميدي من جديد، وما لبث أن تَعملق وحلّ محلّ الانتماء الوطني، واجتاز الميد العهد الأخميني فالسلوقي فالبارثي فالساساني وهم على تلك الحال، وعبروا الى العهود الإسلامية، ثم الى العصر الحديث، دون أن يمتلكوا القدرة على تأسيس تكوينٍ سياسي شبيه بدولة ميديا، يحفظ لهم الجغرافيا والهوية.

## النتائج الثقافية:

إن القضاء على دولة ميديا، وسلخ مؤسساتها، وتسخيرها لخدمة المشروع الفارسي التوسعي، أدّى بطبيعة الحال الى ضرب المؤسسات الثقافية الميدية، وتفكيك بناها، وشلّ نشاطاتها، والحيلولة بينها وبين التواصل مع الجماهير الميدية، وكانت النتيجة وقف عملية تطوير ثقافة وطنية، تكون حاضنةً لوعي جمعي مشترك، ومنصّةً معرفية تنطلق منها النخب الثقافية والسياسية الميدية؛ لتوحيد المكوّنات القَبَلية تحت راية واحدة، وإنجاز مشروع وطني/قومي مشترك.

وأحسب من الخطأ البحث في الصراعات السياسية الكبري– في إطار الأمة الواحدة أو بين أكثر من أمة– بمعزل عن دور الأيديولوجيا، وهذا ما ينبغي أن نأخذه بالحسبان

---

١. دياكونوف: ميديا، ص ٤١٠ .

في الصراع الفارسي- الميدي؛ ففي المواجهة بين النخب الفارسية بقيادة دارا الأول من جهة، والأخوين الميديين ثيرتزيثيس وسميرديس من جهة أخرى، كان يشار الى الميديين بصفة (مجوس)، ووجدنا أن الانتقام، بعد مقتل الأخويين، انصبّ على (المجوس) في العاصمة الملكية أطباتانا، وقد ذكر ديورانت، في معرض ذكر تلك الحادثة، بشأن طوماتا (سميرديس) ما يلي:

"كان أحد رجال الدين المتعصبين من أتباع المذهب المجوسي القديم، وكان يعمل جاهداً للقضاء على الزردشتية دين الدولة الفارسية الرسمي"[1] .

والمؤكد أن دارا الأول كان قد اعتنق الدين الزردشتي، وعندما استلم السلطة في الدولة الأخمينية اتخذ الزردشتية ديناً رسمياً للدولة، قال ديورانت في ذلك: "ولعل دارا الأول حينما اعتنق الدين الجديد رأي فيه ديناً مُلهِماً لشعبه، فشرع منذ تولّي المُلك يثير حرباً شعواء على العبادات القديمة، وعلى الكهنة المجوس، وجعل الزردشتية دين الدولة"[2] .

وقال هارڤي بورتر في هذا الشأن: "ودين الفرس هو دين زرادُشْت الذي ذكرناه في تاريخ الميديين، ولمّا غلبوا الماديين نسخوا مذهب المجوس الفاسد، لكن سمردس الكاذب (غوماتيس) أعاده؛ إذ كان مجوسياً، لكن داريوس الذي خلفه أهلك المجوس بعد ارتقائه، وتمسّك بالمذهب القديم"[3] .

والدليل على صحة ما ذهب إليه كل من ديورانت وهارڤي بورتر قول دارا، في نقش بيستون، مفتخراً بإنجازاته بعد القضاء على حركة الأخوين الميديين: "إن المعابد التي هدّمها طوماتا أنا أصلحتها كما كانت، والتي أخذها طوماتا الموغ أرجعتها"[4] .

ولعل الأمر يصبح أكثر وضوحاً إذا أخذنا في الحسبان أمرين اثنين:

الأمر الأول أن الميثرائية متجلّيةً في (الأزدائية/اليزدانية) كانت الدين الآري السابق على الزردشتية، وكان الكهنة الذين يتولّون الشؤون الدينية ينتمون حصراً الى القبيلة الميدية

---

١٠ ول ديورانت: قصة الحضارة، ٢/٤٠٦ .

٢٠ المرجع السابق، ص ٤٢٦ .

٣٠ هارڤي بورتر: موسوعة مختصر التاريخ القديم، ص ١٧٨ .

٤٠ دياكونوف: ميديا، ص ٤٠١ .

ماجُويي (ماغُويي Magoi)، وقد تحوّل لقب (ماغويي) الى كلمة (ماغوس/مجوس) Magos اليونانية، ومنه جاءت كلمة (مَجُوس) العربية، وكلمة Magic (السحر) الإنكليزية[1] .

وكانت طبقة المجوس تشبه طبقة الكهنوت العبراني التي كانت تنتمي الى قبيلة اللاويين، وتشبه أيضاً طبقة الكهنوت الوثني العربي المكي التي كانت تنتمي الى بني عبد مَناف من قبيلة قُريش حصراً، وهؤلاء الماجويي (المجوس) هم الذين وقفوا ضد زردشت، وهم الذين كان ينتمي إليهم الأخوان الميديان ثيرتزيثيس وسميرديس.

والأمر الثاني أن زَرْدَشت ميدي من أورميا، وعندما أعلن نبوّته، ودعا الى الزردشتية، وقاومه الكهنة المجوس- وبالتأكيد أن الدولة كانت متضامنة معهم في ذلك- هاجر الى مقاطعة باكتريا (باختريا) في شرقي آريانا (إيران حالياً)، واعتنق فشتاسث (هيستاسث= هشت أسث) حاكم باكتريا الدين الجديد، ويستفاد مما رواه المؤرخ ابن العِبْري (غريغوريوس الملَطي) أن دارا الأول هو ابن فشتاسث، فلا عجب إذاً أن يكون أكثر المتحمّسين للقضاء على حركة الأخوين الميديين، وأن يكون قائد الزعماء الفرس الستة الآخرين الذين شنّوا الهجوم على الأخوين[2] .

وجملة القول أن الصراع الفارسي- الميدي لم يكن سياسياً فقط، وإنما كان أيديولوجياً أيضاً، وقد أبقي الأخمين على المجوسية (الأزدائية/اليزدانية) في عهد كورش وقمبيز؛ لتسكيت المجتمع الميدي، لكن بعدئذ أفسحوا المجال للزردشتية كي تنشط ضد الدين القديم، وتحتل مواقع متقدمة في المجتمعين الفارسي والميدي، ولذلك صبّ سميرديس الميدي اهتمامه، في حركته الانقلابية، على إيقاف المد الزردشتي، ونفخ الروح من جديد في مؤسسات الدين القديم (الأزدائي/اليزداني /المجوسي)؛ ومن هنا نرجّح أن الزردشتية كانت المظلة الأيديولوجية التي استظل بها الفرس الأخمين للقضاء على التكوين السياسي الميدي (الدولة).

---

١. جفري بارندر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص ١٣١ .

٢. وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٩١/١ . المقدسي: البدء والتاريخ، ١٤٩/٣ . ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ٤٩ . نوري إسماعيل: الديانة الزردشتية، ص ١٥ .

**النتائج الاقتصادية:**

بعد أن خسر الميديون دولتهم كان من الطبيعي أن يخسروا كثيراً من الموارد الاقتصادية، وأن تذهب تلك الموارد الى خزانة الدولة الأخمينية، والى جيوب النخب الفارسية في الدرجة الأولى، وأن يبقى للميديين الفُتات، بلي، خسر الميد سيطرتهم على شبكة طريق الحرير المارّ ببلادهم، وتحديداً بعاصمتهم أكباتانا (هَمَذان)، وبمدينتهم الكبرى الأخرى رَغَهْ (الرَّي)، وبغيرهما من المدن الميدية.

وهذا يعني أن النفوذ التجاري انتقل من أيدي النخب الميدية الى أيدي النخب الفارسية، وليست الجيوش فقط تزحف على بطونها، كما قال نابليون، وإنما الشعوب تزحف على بطونها أيضاً، فشعب فقير جائع لا يمكن أن يحتفظ بسلمه الداخلي، ولا يمكن أن يصنع حضارة، ثم لا ننسى أن التاجر ليس صانع ثروة فقط، وإنما هو صانع ثقافة وصانع سياسة أيضاً، فالبضاعة ثقافة، والثقافة سياسة، والتعامل مع البضاعات والصناعات يعني التعامل مع الثقافات والحضارات.

وحينما خرجت دفّة الحركة التجارية من أيدي الميديين فذلك يعني أن المجتمع الميدي خسر التعامل مع الثقافات والحضارات، وسيق الى العزلة إقليمياً وعالمياً، وإذا ضممنا الى خسارة الميد في مجال التجارة أنهم صاروا يدفعون الضرائب للدولة الأخمينية، وأن موارد بلادهم صارت ملكاً مستباحاً للدولة المسيطرة، لا نري من العجب أن ينعزل الميد في أريافهم ومراعيهم، ويصبحوا فريسة للفقر، ويكون أقصى همّهم هو الكدّ للاحتفاظ بالبقاء.

وأحسب أن سيكولوجيا الجبال لم تكن غائبة عن إيصال الميديين الى المزيد من العزلة والانجماع على الذات، وهذا واضح في سلوك الكردي، فقد رسّخت بيئةُ الجبال في الشخصية الكردية نزعةَ الاعتداد بالذات، والشعورَ بالأنفة وعزة النفس، لا فرق في ذلك بين غني وفقير، وعندما يجد الكردي الأصيل نفسه في موقف يجرده من هذه السمات يستبد به الغضب ويثور، وقد يُقدم على الموت.

وكي يجمع الكردي الأصيل بين الاحتفاظ بكرامته والبقاء حياً، وجد الحل في العزلة الاختيارية والانجماع على الذات، متنازلاً عن رفاهية العيش، وراضياً بقسوة الحياة مهما كان بطشها، ومن خلال معرفتي الدقيقة بالثقافة العربية القديمة، وبالشخصية

العربية البدوية، أجد بين الكردي والعربي البدوي الأصيل قاسماً مشتركاً في هذه الخَصلة، وأحسب أن هذا القاسم المشترك كان من الدوافع التي جعلت بعض النسّابة العرب القدماء يصنّفون الكرد ضمن شجرة الأنساب العربية.

**النتائج الاجتماعية:**

بعد أن خسر الميد تكوينهم السياسي (الدولة)، ومظلتهم الأيديولوجية، ومواردهم الاقتصادية، ماذا يُنتظر أن يحلّ بهم اجتماعياً؟ وخاصة أن المجتمع الميدي كان قَبَلياً في الأصل، وكان حديث عهد بدولة تلمّ شتاته، وتنظّم أموره، وتقيم جسراً بين مفهوم (القبيلة) ومفهوم (الوطن)؛ هل يُنتظر من مجتمع كهذا أن يبقى بمعزل عن الصراعات القَبَلية؛ مع وجود الإغراءات التي كان الحكّام الفرس يقدّمونها للنخب الميدية، بتقريب هذا واستبعاد ذاك؟

وقد مر في صفحات سابقة أن النخب الميدية خذلت الأخوين الميديين ثيرتزيپيس وسميرديس، حينما قاما بحركتهما لاسترداد الحكم الميدي، وأن ملوك فارس كانوا يقضون على ثورات ميديا بقسوة؛ مستعينين بالنبلاء الميد وبالقوات الميدية الموالية لهم، وهذا ما فعله دارا الأول للقضاء على ثورة فَراوُرْت، وعلى ثورة جيتران تخمه بعد فترة قصيرة[1] .

وعدا مسألة انهيار مشروع الدولة الحامية للجغرافيا والهوية– وكان الزعماء الميد الأوائل (دياكو، خشتريت، كيخسرو) بذلوا جهوداً جبّارة لتأسيسه– أصبح المجتمع الميدي مفتوحاً لمشاريع التخريب والتدمير، وبات من السهل تجريده من قيمه الوطنية/القومية والخُلقية، لقد شُوِّهت مُثُله العليا، وسيقت رموزه التاريخية الى الظلمة، وصارت منظومته المعرفية عُرضة للإختراق، فحلّت المُثل والقيم والرموز القَبَلية أو الأجنبية محلّ المُثل والقيم والرموز الوطنية/ القومية، وذلك أخطر ما يمكن أن تتعرّض له أمة من الأمم.

---

١. دياكونوف: ميديا، ص ٤١٠ .

**النتائج الحضارية:**

الحضارة إنجاز مؤسساتي، ولا مؤسساتية خارج (الدولة)، ولا دولة خارج (الجغرافيا الوطنية)، وخارج جمهور متجانس (شعب، أمة)، يستظل بثقافة وطنية أصيلة، وعندما يخسر شعبٌ ما تكوينه السياسي الجامع المانع (الدولة)، ولا يسيطر على جغرافياه (الوطن)، وينقسم على نفسه مجتمعياً، فيغترب بعضه عن البعض الآخر، وتُفرَض عليه ثقافة غريبة عنه مُثُلاً، ومبادئ، وقيماً، ورموزاً دينية ووطنية وقومية، وتتقوّض منظومته الاقتصادية، هل يمكن- والحال هذه- أن يكون منتجاً للحضارة؟ وهل يمكنه أن يترك بصماته على مسيرة التاريخ البشري؟

وبعد أن سقطت دولة ميديا في أيدي النخبة الفارسية، وخسرت الأسس والأطر والضوابط والمستلزَمات المشار إليها؛ فهل من العجب أن يخسر الميديون موقعهم الريادي في مسيرة الحضارة، بعد أن خسروا موقعهم القيادي في غربي آسيا؟ وهل من العجب أن يجترّ المجتمع الميدي مرارة التخلّف، ويتحول القسم الأكبر منه الى رعاة، يرتادون بقطعانهم شِعاف الجبال، بحثاً عن الاحتفاظ بالبقاء، وبدرجة أكبر بحثاً عن الحرية، في حين تحوّل الباقون الى فلاحين يعيشون حياة بدائية، ولا يعرفون من المدنية إلا هوامشها؟

وثمة ظاهرة مثيرة للاستغراب؛ وهي أن الميديين احتفظوا بشهرتهم العالمية في العهد الأخميني الأول، وتحديداً من عهد كورش الثاني الى عهد أَحْشَويرش بن دارا الأول، والدليل على ذلك أن الملوك الأخمينيين كانوا يُخاطَبون رسمياً، من قِبل الماساجيت شرقاً، ومن قِبل الإغريق غرباً، بلقب (ملك الميديين)[1] .

ثم تضاءلت شهرتهم في العهد البارثي حوالي (٢٤٩ ق.م- ٢٢٦ م)، ومع نهاية العهد البارثي، وبداية العهد الساساني (٢٢٦ - ٦٥١ م)، وعلى نحو غير عادي، غاب اسم الميديين، وحلّ محلّه اسم (كُرد) Kurd، وقد تنبّه الباحث الأرمني أرشاك سافراستيان الى دور البارث والساسانيين في تغييب اسم (الميد)، وتعويم اسم (كرد) بدلاً منه قائلاً:

"ويبدو أن الملك الساساني أرتخشير(أردشير)، مدمّر العرش البارثي، حوّل الاسم

١٠انظر هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ١٢٦، ٤٧٧، ٦٢٨ .

القديم طوتي (جُوتي) Gutiالى كُرد kurd، وقد اقتبس المؤرخون المسلمون الكبار، أمثال الطَّبَري والمَسْعودي، هذا الاسم من العهد الساساني، ووصل الى العصور الحديثة على هذا النحو (كُرْد- kurd)"[1] .

وللمرء أن يتساءل أيضاً: متى نشأ هذا الاسم على وجه التحديد؟ وهل هو صيغة متطورة من اسم (كاردونياش) الذي كان يُطلق على مملكة بابل في عهد الكاشيين[2] ؟ أم أنه مشتق من اسم (كورتاش) Kurtash الذي كان يُطلَق على مجموعات مختلفة من المواطنين الأحرار العاملين في الورشات[3] ؟ أم أنه هو نفسه اسم شعب (كردوخ) Kurdukh الذي ذكره اكسنوفان، وذكر أن أبناء هذا الشعب هم "الميديون الذين سكنوا فيما مضى مدناً كبيرة ثم هجروها"[4] ؟

إن أرشاك سافراستيان يقول بهذا الصدد:

"وقد اشتُق اسم كُرد Kurd من أرض ومملكة طوتيوم (جُوتيوم) Gutium ، ومن شعب كوتي Guti، وذلك بحذف حرف الراء R بعد حرف العلة u (Guti = Gurt ) ؛ وهذه قاعدة لغوية تطبّق بشكل عام على كل اللغات الهندو- أوربية، وخاصة الشرقية منها؛ مثل الكردية والأرمنية والسنسكريتية والإغريقية"[5] .

والحقيقة أن تغييب اسم الميديين واحد من أبرز الأهداف التي أفلح أصحاب مشروع (أبلسة الكرد) في تحقيقها؛ فكي تُفقد شعباً توازنه الوجودي، وتُدخله الى المتاهات، وترمي به في غياهب التاريخ، يكفي أن تَسلبه هويته الأصيلة، وتُحدث قطيعة بينه وبين ثقافته الوطنية والقومية، إنه عندئذ سيخطئ الطريق الى نفسه، وسيسهل عليك أن توهمه بأنه هو، في الوقت الذي يكون قد تحوّل الى مسخ.

وما يهمّنا الآن هو المفارقة الكبرى بين الاسم القديم (ميدي)، والاسم الجديد (كرد)، والذي تحوّل في بعض كتب التراث العربي الإسلامي الى صيغة (أكراد) قياساً على صيغة (أعراب)؛ فالاسم (ميدي) مرتبط في الذاكرة الوطنية والإقليمية والعالمية بأمجاد

---

١. أرشاك سافراستيان: الكرد وكردستان، ص ٢٣ .

٢. نائل حنون: حقيقة السومريين، ص ١٣٦ .

٣. دياكونوف: ميديا، ص ٣٠٥ .

٤. أرشاك سافراستيان: الكرد وكردستان، ص ٤١ .

٥. المرجع السابق، ص ٢٣ .

الشعب الميدي الذي أبى الخضوع للدولة الآشورية، وثار في وجهها مرة تلو أخرى، الى أن أسقطها، وأزاح كابوسها الثقيل عن جميع شعوب غربي آسيا، وهو إنجاز فريد عجز عنه الآخرون، كما أن اسم (ميدي) مرتبط بأمجاد الدولة الميدية التي ذاعت شهرتها في العالم، والتي كانت حينذاك سيدة الشرق الأوسط الى جانب مملكة بابل ومملكة ليديا ومملكة مصر.

أما اسم (كُرد، كردان، أكراد) فارتبط في الذاكرة الغرب آسيوية والعالمية بحال الميديين وقد تحوّلوا الى رعاة في الجبال، وفلاحين في السهول والوديان، وزُحْزحوا، بعد تقويض دولتهم، من دائرة الفعل الحضاري النشط، الى دائرة الجمود والجهل والتخلف والاقتتال القَبَلي، وقطع طرق التجارة، لا بل إن اسم (كردي) تحوّل في الثقافة الفارسية، مع أواخر العهد البارثي، الى شتيمة، وهذا واضح في رسالة أَرْدوان آخر ملوك البرثيين (الأرشاكيين) الى أَرْدَشِير بن بابك أوّل ملوك بني ساسان، مهدِّداً، وقائلاً له: "أيها الكرديّ المُرَبَّى في خيام الأكراد، مَن أذِن لك في التاج الذي لَبِسْتَه، والبلاد التي احتويتَ عليها، وغلَبْتَ ملوكَها وأهلَها"[1] ؟

**تلبيس وتدليس:**

قلت مراراً، وما زلت مصراً على القول بأن مشكلتنا الأساسية- نحن شعوب غربي آسيا، شعوب الحضارات والأديان العريقة- هي في ثقافاتنا، إنها- وهذا مخيف- ثقافات بهويتين متناقضتين، وكأنها مصابة بإنفصام في الشخصية؛ فهي في القمة من التسامي والروحانية والمثالية من جانب، وتنطوي من جانب آخر على قدر هائل من النرجسية، سواء أكانت قومية أم دينية أم مذهبية أم قَبَلية.

والظاهر أن البعد النرجسي في ثقافتنا الغرب آسيوية قد اعتقل البعد المثالي فيها، واتخذه رهينة، وصار الممثل الوحيد له، وشرع يرتكب بإسمه مختلف أشكال التلبيس والتدليس والمكر الى درجة النذالة، ومختلف أنواع الفظاظة الى درجة التوحش، ولست هنا في معرض رمي الكلام جُزافاً، ولا بصدد إطلاق العنان للثرثرة والتجريح؛ مع أن ذلك أصل من أصول ثقافتنا الغرب آسيوية، إنني هنا بصدد توصيف ما هو واقع، وتقييم ما هو كائن، ليس أكثر.

---

١. الطبري: تاريخ الطبري، ٣٩/٢ .

ومن ألوان التلبيس والتدليس والمكر في الثقافات الغرب آسيوية المعمَّرة إيصالُ طرفٍ ما (شخص، جماعة، شعب) الى حالة سيّئة معيّنة، وإخضاعُه لظروف غير عادية واستثنائية، ثم الشروعُ في ملاحقته ومحاسبته على أنه هو المسؤول عما ينجم عن تلك الحالة، وعما يتولّد عن هاتيك الظروف، والأمثلة على ذلك، في تاريخ غربي آسيا، كثيرة، وكان الكرد أكثر من ذهب ضحية هذا المكر.

وإليكم تفصيل ذلك.

فبعد أن أفلحت السياسات الفارسية في تجريد الميديين (الكرد بعدئذ) من التكوين السياسي (الدولة)، وفي تقويض منظومتهم الثقافية والمجتمعية والاقتصادية، وإخراجهم من دائرة التفاعل الحضاري، وتحويل بعضهم الى أتباع ومرتزقة، وتحويل القسم الأكبر منهم الى ريفيين ورعاة، معزولين ومنعزلين، همّهم الأساسي هو الاحتفاظ بالبقاء تحت أكثر الظروف قسوة، وبعد أن تمّ تجريدهم من اسمهم التاريخي المجيد (الميد)، وتسويق الاسم البديل (كرد)، بدلالته الرعوية طبعاً، أصبح الكرد فريسة سهلة بين براثن وأنياب كهنة ثقافات الإقصاء والإلغاء في غربي آسيا، وصارت حالهم كحال الأيتام في مآدب اللئام.

بلى، صار الكرد، إثنياً وثقافياً واجتماعياً وسياسياً واقتصادياً، شعباً مستباحاً لأصحاب الذهنيات النرجسية، إنهم شرعوا يمارسون عليه جميع ألوان التلبيس والتدليس والمكر والفظاظة، ويُلصقون به ما يشاؤون من أفانين الافتراء والانتقاص والتشويه والتجريح، جهاراً نهاراً، ودونما أيّ التزام بما تفرضه الأديان من تقوى لله، وما يقتضيه المنطق من واقعية، وما تتطلبه النزاهة من موضوعية.

وإلا فما معنى أن يُنسَب الكرد تارة الى سلالة الشيطان كما سنرى؟ وما معنى أن يُنسبوا تارة أخرى الى الجن؟ وما معنى أن يقال عنهم تارة ثالثة بأنهم طرداء الضحّاك (أزدهاك)؟ وما معنى أن يثار كل هذا الضجيج حول أصل الكرد، وتُحاك حولهم الخُزَعبلات، ويصبحوا وحدهم عُرضة للتشويه السافر من بين شعوب غربي آسيا؟ ولماذا لا نجد بعض هذا الضجيج وهذه الخُزَعبلات بشأن جيرانهم القدماء (العرب، الآشوريون، السريان، الفرس، الأرمن)، وبشأن جيرانهم المحدَثين (الترك)؟

أليس معنى ذلك أن الحالة الغريبة التي تم إيصال الكرد إليها، بتأثير من نتائج وصية قمبيز، وبتخطيط من النخب الفارسية خلال اثني عشر قرناً، هي التي جعلتهم

(الكرد) في النهاية مكبّاً لنفايات ثقافات الإقصاء والإلغاء في غربي آسيا؟ وهل تلك النفايات هي غير ألوان التلبيس والتدليس والمكر والفظاظة التي أشرنا إليها سابقاً؟ ولو لم يتم تجريد الكرد (ممثَّلين في أسلافهم الميديين) من التكوين السياسي (الدولة)، ولو لم تُدمَّر منظومتهم الثقافية والمجتمعية والاقتصادية، هل كان من الممكن أن يصبحوا عرضة لكل هذا الانتقاص والتشويه والتبشيع؟

من كان يجرؤ على انتقاص العرب وفيهم النبوّة والخلافة؟ ومن كان يجرؤ على انتقاص الفرس ومنهم الوزراء والقادة في العهد العباسي الأول، ومنهم الملوك في العهد البُوَيْهي؟ ومن كان يجرؤ على انتقاص الترك وقد وصلوا الى مواقع عسكرية رفيعة في الدولة العباسية بدءاً من خلافة المأمون، ومروراً بخلافة المُعتصِم بالله، وانتهاء بخلافة المتوكِّل على الله؟ ألم يكن ذلك هو الدافع الذي حمل الأديب الكبير الجاحِظ على تأليف بحث طويل بعنوان (رسالة الترك) يشيد فيه بشجاعة الترك وبسالتهم؟ بل من كان يجرؤ على انتقاص الترك وقد بسطوا سيطرتهم على غربي آسيا منذ سنة (٤٤٧ هـ - ١٠٥٥ م) الى بداية القرن العشرين؟

**شعوب ومرجعيات:**

وقد يقال: حسناً، إن الموقع السيادي الذي تمتع به العرب والفرس والترك، في تاريخ غربي آسيا، هو الذي حال دون انتقاصهم، والعبث بهوياتهم، لكن ماذا بشأن الآشوريين والعبرانيين والسريان والأرمن؟ إن هؤلاء لم يكونوا ذوي موقع سيادي، ومع ذلك لم يصبهم ما أصاب الكرد من انتقاص وتشويه وتبشيع.

أقول: نعم، لم يكن الآشوريون والعبرانيون والسريان والأرمن أصحاب مواقع سيادية في غربي آسيا، فالشعوب الثلاثة الأولى خسرت تكويناتها السياسية منذ حوالي خمسة قرون قبل الميلاد، أما الأرمن فإنهم كانوا تابعين للميد، ثم للأخمين، ثم للبارث، ثم كوّنوا شبه إمبراطورية في القرن الأول قبل الميلاد، ثم مروا بفترات كانوا فيها تابعين للساسانيين، ثم للرومان، ثم للعرب المسلمين بين (٤٢٩ - ٦٤٠ م)[1] . ومع ذلك ظلت هويات هذه الشعوب بمنجاة من العبث، ويعود ذلك- في تقديري- الى عاملين مهمين اثنين:

---

١. وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ١/ ٩٠. مروان المدوَّر: الأرمن عبر التاريخ، ص ١٨٦ .

العامل الأول: هو أن العبرانيين كانت لهم مرجعية دينية عريقة منذ منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، أما الشعوب الثلاثة الأخرى (الآشوريون، السريان، الأرمن) فكانت قد تنصّرت في عهد مبكّر (منذ القرن الرابع الميلادي تقريباً)، وحظيت من ثَمّ بمرجعيات دينية خاصة بها، وكانت تلك المرجعيات أشبه بالخيمة التي ينضوي الشعب تحتها.

وبتعبير آخر: إن المرجعيات الدينية التي قادت تلك الشعوب- وما زالت تقودها الى هذا اليوم- قامت مقام التكوين السياسي (الدولة)، فصانتها من التفتت والتشرذم، وحمتها الى درجة كبيرة من مشاريع الصهر، وكانت تُعَدّ المثل الثقافي والاجتماعي لها، وكانت السلطات الحاكمة- سواء أكانت فارسية أم رومانية أم عربية أم تركية - تتعامل مع تلك المرجعيات فيما يتعلق بالرعايا التابعين لها.

والعامل الثاني: هو أن تلك المرجعيات الدينية أنتجت مثقفين من المستوى الرفيع، ولا سيما في مجال الدين والطب والفلك والتنجيم والفكر والأدب، كما أنتجت طبقة من كبار الاقتصاديين، وخاصة في مجال التجارة والصناعة، ومعروف أن البلاط العباسي ما كان يخلو من كبار الأطباء والمترجمين السريان، وكان الخلفاء والسلاطين والملوك والولاة بحاجة، في معظم العهود، الى مهارات نخب تلك الشعوب، وكانت تلك النخب تقيم في مراكز السيادة والثقافة، لا بل كانت تسهم بشكل فاعل في الحركة الثقافية والاقتصادية الغرب آسيوية، وكان من الطبيعي، والحال هذه، أن يصبحوا هم وشعوبهم بمنجاة من حملات التلبيس والتدليس والتشويه والتبشيع على النحو الذي تعرض له الكرد.

أما الكرد فالمشكلة أن النخب الفارسية لم تجردهم من مظلة التكوين السياسي (الدولة) فقط، وإنما جرّدتهم مما هو أهم من ذلك فيما أرى؛ ألا وهو تدمير المرجعية الدينية ممثّلة في الميثرائية (المجوسية)، ومر سابقاً أن اسم (المجوسية) كان مستمداً من اسم القبيلة الميدية (ماغويي) Magoi، باعتبار أن رجال الكهنوت الميدي- وربما الآرياني بشكل عام- كانوا ينتمون الى هذه القبيلة الميدية حصراً.

وقد مرّ فيما سبق أن الميثرائية (المجوسية) كانت هي الدين الآرياني القديم، وخاصة في ميديا وفي عهد المملكة الميدية، وكانت الزردشتية تطويراً فيها وفرعاً عليها، ومر أيضاً أنه حينما أخفق الأخوان الموغان ثيرتزيثيس وسميرديس في الإطاحة بالحكم

الفارسي، واستعادة الحكم الميدي، فتك الفرس بالمجوس فتكاً ذريعاً، وأخضعوهم لما يشبه الإبادة الجماعية، وخاصة في العاصمة الملكية أكباتانا)، وصارت المجوسية عقيدة منبوذة في العهد الفارسي، باعتبار أنها كانت الأيديولوجيا المعادية للسلطة الحاكمة.

وثمة سؤال نحسبه مهماً، وهو: أين اسم الدين الآرياني القديم الذي عُرف بعدئذ بـ (المجوسية)؟ أين اسم الميثرائية، والأزدائية، واليزدانية؟ لماذا غابت هذه الأسماء المرتبطة مباشرة بالأسماء الإلهية (مِيثْرا، يَزْدان) غياباً شبه تام؟ ولماذا حل اسم (المجوسية) محلها؟

وكي تتّضح المفارقة الكبرى في هذا المجال دعونا نتصوّر أن ثمة جهة ما ألغت اسم (الإسلام)، وأشاعت بدلاً منه اسم (القُرَشية) باعتبار أن النبي محمداً والخلفاء كانوا من قبيلة قُرَيش العربية، تُرى هل ثمة مسلم يقبل ذلك؟ ألا يُعدّ ذلك طمساً لهوية الإسلام؟ ألا يُعدّ ذلك اختصاراً لدين بكامله في قبيلة واحدة، فيها المؤمن والفاسق والبَرّ والفاجر؟ ألا يُعَدّ ذلك تجريداً للإسلام من صبغته الإلهية؛ تمهيداً للعبث به وتشويهه وتبشيعه؟

وأحسب أن هذا بالتحديد ما تعرّضت له الديانة الآريانية القديمة، إنها جُرِّدت من هويتها المقدسة، وتم اختصارها في اسم قبيلة (الموغ)، وتحديداً باسم طائفة الكهنة المنتمين الى هذه القبيلة، وسُمّيت من ثَم (المجوسية)، تمهيداً لتقزيمها وإخراجها من الذاكرة الآريانية والعالمية، ورميها في طيّات النسيان، وأحسب أيضاً أن تغييب اسم الديانة الآريانية القديمة، وتعويم اسم (المجوسية) بدلاً منه، جري بالتوازي مع الحملة التي شنّتها النخب الفارسية لتغييب اسم (الميد)، وتفريغ الذاكرة الآريانية والعالمية من أمجاد مملكة ميديا، وتعويم اسم (الكرد) بدلالته الرعوية.

وقد تلقّف بعض المؤرخين اليونان، وفي مقدمتهم هيرودوت (كان من التبعية الفارسية)، ما روّجت له النخب الفارسية، ومن خلال روايات وكتابات المؤرخين اليونان دخلت (المجوسية) الى التراث اليوناني، ووصلت من خلالها الى التراث العالمي، على أنها دين (المجوس) أصحاب السحر والتخريفات والخُزعبلات، وتأبّدت تلك التهمة في الكلمة اللاتينية الأصل Magic (السحر).

وهكذا ترون أن مسألة تغييب اسم وتلميع اسم بدلاً منه في تاريخ غربي آسيا-

وربما في التاريخ العالمي- لا يكون عبثاً، ولا يكون تصرفاً بريئاً، إنه أحد آليات التمجيد أو التبشيع، وبطبيعة الحال كان بالنسبة الى (المجوسية) آلية للتبشيع، وأعتقد أن هذا التبشيع الذي رسّخته المؤسسات الفارسية في الذاكرة الآريانية خاصة، وفي الذاكرة الغرب آسيوية عامة، كان أهم عوامل نفور الجماهير من الديانة الآريانية القديمة.

ولم يقتصر الأمر على تنفير الجماهير فقط، وإنما اضطرت النخب الميدية، وخاصة طبقة الكهنة (الموغ)، الى التخلّي عن كل ما يتعلق بالديانة الآريانية القديمة، والإقبال على البديل الذي تمّ تمجيده والترويج له؛ أقصد الديانة (الزردشتية) لكن بنسختها التي تمّ إنتاجها وإخراجها بحسب المقاسات التي تخدم مشاريع السلطات الفارسية الحاكمة.

ويبدو أن لعنة (المجوسية) أمسكت بخناق الكرد، وظلت تلاحقهم الى أيامنا هذه، ممثَّلة هذه المرة في الديانة (الأيزدية)، بإعتبار أن الأيزدية كانت في عهودها الأول محتفظة ببعض أصول الديانة الآريانية القديمة، فالمعروف في أصول الأيزدية أنها تقرّ بإله واحد هو (يَزدان)، ومعروف أيضاً أن كبير الملائكة (عَزازيل)- بحسب الرؤية الأيزدية- ظل محتفظاً بمكانته السامية، ولم ينمسخ الى كائن شرير ملعون اسمه (أهريمن) في الديانة الزردشتية بنسخته الفارسية، واسمه (إبليس/ شيطان) في الديانات السماوية الثلاث (اليهودية، المسيحية، الإسلام).

والأرجح أن احتفاظ عزازيل بمكانته القدسية السامية أصل من أصول اللاهوت اليزداني؛ فالله (يزدان)- بحسب تلك الفلسفة- نور وخير مطلق، ولا يمكن أن تصدر الظلمة عن النور، ولا يمكن للإله الخيّر أن يُنتج كائناً شرّيراً، ويسلّطه على مخلوقاته، فالخير والشر في المفهوم اليزداني إنتاجان بشريان، والإنسان هو صانع أفعاله وأقواله، فلا داعي الى افتراض كائن شرير باسم (أهريمن، إبليس، شيطان)؛ لتحميله وزر تلك الأفعال والأقوال.

ورغم نقاء الأيزدية من الكائن الشرير (شيطان/إبليس) فالأيزديون معروفون عند القاصي والداني في غربي آسيا، وبين الخاصة والعامة، بأنهم (عُبّاد الشيطان)، وباسم هذه التهمة صاروا عرضة للاضطهاد والمذابح، وما زالت تلك التهمة قائمة في الذاكرة الغرب آسيوية الى يومنا هذا، وما زال الأيزديون يدفعون ثمن ذلك من

أرواحـهم وأمـوالهم، والحـقيـقـة أنهم أُدخلوا رغـمـاً عنهم الى دائرة الأبلسـة، في إطار المشروع الأكبر (مشروع أبلسة الكرد)، وتعرّضوا من ثم للعقوبة أكثر من الكرد اليهود والكرد المسيحيين والكرد المسلمين؛ لأنهم- أقصد الأيزديين- احتفظوا بشيء من بقايا المرجعية الدينية الكردية القديمة.

والخلاصة أن تدمير المرجعية الدينية الميدية (الكردية بعدئذ) على أيدي النخب الفارسية، أفقد الكرد مظلتهم الجامعة المانعة ثقافياً ومجتمعياً، والى حد ما اقتصادياً، وصاروا شعباً مستباحاً، ودخلوا- وهم على تلك الحال المضعضَعة- الى العهد الإسلامي حوالي منتصف القرن السابع الميلادي، دخلوه دونما أية مرجعية تلمّ شملهم، وتنطق باسمهم مع الحكام والنخب السياسية والثقافية، وكان من الطبيعي أن يصبحوا فريسة سهلة لورثة وصية قمبيز، ولنشاطات خريجي الثقافة الفارسية في كل من مدرسة اليمن ومدرسة العراق في العهود الإسلامية الأولى.

وهذا ما سنتناوله بالتفصيل في الصفحات التالية.

٦

# أصل الكرد في التراث الإسلامي - ١

**المصطلح أولاً:**

نقصد بمصطلح (التراث الإسلامي) كل ما ينتمي الى العهود الإسلامية على صعيد الدين (قرآن، تفسير، حديث، فقه، تصوّف)، وفي مجال التاريخ، والجغرافيا، والعلوم (طب، هندسة، رياضيات، فيزياء، كيمياء)، والفكر، والفلسفة، والأدب (شعر، نثر)، والفن (رسم، موسيقا، غناء). ونقصد بـ (العهود الإسلامية) فترة تمتد على ثلاثة عشر قرناً من الزمان، وتبدأ بظهور الدعوة الإسلامية سنة (٦١٠ م)، وتنتهي بسقوط الدولة العثمانية، وقيام الزعيم التركي مصطفي كمال (آتاتورك) بإلغاء منصب الخلافة سنة (١٩٢٤ م).

إذاً فالفترة التي تشملها (العهود الإسلامية) تمتد على ثلاثة عشر قرناً من الزمان، وطوال هذا الزمن المديد كان الشعب الكردي - وما زال- أحد الشعوب الإسلامية، إنه ربيب التراث الإسلامي، ومن أبرز المساهمين في صناعة هذا التراث؛ كان منه الصحابي، والتابعي، والمفسّر، والمحدِّث، والفقيه، وشيخ الإسلام، والصوفي، والمفكر، والفيلسوف، والطبيب، والمهندس، والمؤرخ، والجغرافي، وعالم الطبيعة، والأديب، والناقد، والشاعر، والموسيقي، والمغنّي، وكان منه السلطان، والملك، والأمير، والوزير، والوالي، والقائد العسكري، والمقاتل.

وبتعبير آخر: إن الشعب الكردي لم يكن قطّ خارج التاريخ الإسلامي، ولا خارج الجغرافيا الإسلامية، بل كان على الدوام في صميم كل منهما، فماذا قيل عن أصله في مصادر التراث الإسلامي؟ ومن أية زاوية جاء الحديث عن ذلك؟

**اللقاء العربي الكردي:**

قبل استعراض ما جاء في مصادر التراث الإسلامي حول (أصل الكرد)، ثمة حقيقة جديرة بالانتباه؛ وهي أن الكرد من أوائل الشعوب التي التقى بها العرب المسلمون، أيام الفتوحات، في الجبهة الشرقية، ولعل الأمر يصبح أكثر وضوحاً إذا علمنا أن معركة القادسية سنة (١٥ هـ) بين العرب المسلمين والفرس جرت على مقربة من تخوم كردستان، وأن معركة جَلُولاء سنة (١٦ هـ) ومعركة نَهاوَنْد سنة (١٩ أو ٢٠ هـ) دارتا في صميم الجغرافيا الكردية، وكانت هذه المعارك حاسمة في إسقاط الإمبراطورية الفارسية.

وهذا يعني أن العرب المسلمين عرفوا الكرد في وقت مبكّر جداً من القرن الأول الهجري (السابع الميلادي)، وصحيح أن الكرد كانوا تابعين، قبل الإسلام، للدولة الساسانية، وأنهم كانوا من أتباع العقيدة الزَّرْدشتية كالفرس، لكنهم كانوا شعباً له خصوصيته القومية، وكانوا معروفين بإسمهم القومي (كرد، أكراد)، والدليل على ذلك أن المصادر الإسلامية سمّتهم باسمهم حينما قاوموا الهجوم العربي، أو انضموا الى الثورات التي كانت تنفجر في وجه الفاتحين العرب.

وإليكم الخبرين الآتيين:

– "غزا عُتْبة بن فَرْقَد شَهْرَزُور والصامغان، ففتحها بعد قتال على الجزية والخراج، وقتل خَلقًا من الأكراد "[1] .

– "اجتمع الى عمر (ابن الخطاب) جيش من المسلمين، فبعث عليهم سلَمة بن قَيْس الأَشْجَعي، ودفعهم الى الجهاد على عادته، فلقوا عدوّاً من الأكراد المشركين، فدعوهم الى الإسلام والجزية فأبوا، وقاتلوهم، وهزموهم، وقتلوا وسبوا، وقسّموا الغنائم "[2] .

وقد جري هذان الحدثان زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطّاب: جري الأول سنة (٢٢ هـ)، والثاني سنة (٢٣ هـ)، أقول: رغم الوقت المبكّر الذي عرف فيه العربُ المسلمون الشعبَ الكردي نجد في مصادر التراث الإسلامي أخباراً عن أصلهم هي غامضة تارة، ومتناقضة تارة أخرى، وغريبة تارة ثالثة، وصحيح أن بعض تلك المصادر أخذ

---

١. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٩٨٢/٤ .

٢. المرجع السابق، ٩٩٣/٤ .

في مواضيع كثيرة بالخرافات، وأنزل الأساطير منزلة الحقائق الدامغة، وخلط بين الحقيقة والوهم، ونقل المعلومات تحت بند (قال الناس، وقيل، وقالوا، ومنهم من زعم)، من غير تحكيم للعقل والمنطق في معظم الأحيان؛ لكن مع ذلك فإن بعض ما جاء فيها حول (أصل الكرد) أمر يثير العجب حقاً.

وإليكم أشهر ما جاء في هذا المجال:

**في مجال التاريخ:**

قال المسعودي (ت ٣٤٥ هـ - ٩٥٦ م):

"وأما أجناس الأكراد وأنواعهم فقد تنازع الناس في بدئهم؛ فمنهم من رأي أنهم من رَبيعة بن نِزار بن مَعَدّ بن عَدْنان، انفردوا في قديم الزمان، وانضافوا الى الجبال والأودية، ودعتهم الى ذلك الأَنَفة، وجاوروا مَن هنالك مِن الأمم الساكنة المدنَ والعمائرَ من الأعاجم والفرس، فحالوا عن لسانهم، وصارت لغتهم أعجمية، ولكل نوع من الأكراد لغةٌ [1] لهم بالكردية.

ومن الناس من رأى أنهم من مُضَر بن نزار، وأنه من ولد كُرْد بن مَرْد بن صَعْصَعَة بن هَوازِن، وأنهم انفردوا في قديم الزمان لوقائعَ ودماءٍ كانت بينهم وبين غسّان.

ومنهم من رأى أنهم من رَبيعة ومُضَر، وقد اعتصموا في الجبال طلباً للمياه والمراعي، فحالوا عن اللغة العربية لما جاورهم من الأمم.

ومن الناس من ألحقهم بإماء سليمان بن داود عليه السلام حين سُلب ملكَه، ووقع على إمائه المنافقاتِ الشيطانُ المعروف بالجَسَد، وعَصَم الله منه المؤمنات أن يقع عليهن، فعَلِق(حَبِل) منه المنافقات، فلمّا ردّ الله على سليمان ملكَه، ووضع الإماءُ الحواملُ من الشيطان، قال: اكردوهنّ الى الجبال والأودية. فربّتهم أمهاتهم، وتناكحوا، وتناسلوا، فذلك بَدء نسب الكرد.

ومن الناس من رأي أن الضحّاك ذا الأفواه المقدَّم ذكره في هذا الكتاب، الذي تنازعت فيه الفرس والعرب من أيّ الفريقين هو، أنه خرج بكتفيه حيّتان، فكانتا لا تُغذَّيان إلا بأدمغة الناس، فأفنى خلقاً كثيراً من فارس، واجتمعت الى حربه جماعة كثيرة وافاه أفريدون بهم، وقد شالوا راية من الجلود تسمّيها الفرس دِرَفْش كاوان،

---

١. الصواب: لهجة.

فأخذ أفريدون الضحّاك وقيّده في جبل دُنْباوَنْد على ما ذكرنا، وقد كان وزير الضحّاك في كل يوم يذبح كبشاً ورجلاً، ويخلط أدمغتهما، ويطعم تَينك الحيّتين اللتين كانتا في كتفي الضحّاك، ويطرد من تخلّص الى الجبال، فتوحّشوا وتناسلوا في تلك الجبال، فهم بَدء الأكراد، وهؤلاء من نسلهم، وتشعّبوا أفخاذاً، وما ذكرناه من خبر الضحّاك فالفرس لا يتناكرونه، ولا أصحاب التواريخ القديمة والحديثة"[1] .

وأضاف المسعودي:

"وما قلنا عن الأكراد فالأشهر عند الناس، والأصحّ من أنسابهم أنهم من ولد ربيعة بن نزار"[2] .

وقال المَقْريزي (ت ٨٤٥ هـ - ١٤٤٢ م):

"الأكراد ينسبون الى كُرْد بن مَرْد بن عمرو بن صَعْصَعة بن مُعاوية بن بَكْر بن هَوازِن. وقيل: هم من ولد عَمْرو مُزَيْقِياء بن عامر ماء السماء. وقيل: إنهم من بني حُمَيْد بن طارِق الراجع الى حُمَيْد بن زُهَيْر بن الحارِث بن أَسَد بن عبد العُزّي بن قُصَي بن كِلاب. وهم قبائل: منهم الطُورانية بنو طوران، والهَذْبانية، والبَشْنَوية، والشاهَنْجانية، والسرلجية، واليزولية، والمَهْرانية، والزَّرْزارية، والكيكانية، والجاك، واللُّور، والدُّنْبُلية، والرَّوادية، والدَّيْسنية، والهَكّارية، والحَميدية، والوركجية، والمَرْوانية، والجَلالية، والشَّبَنْكية، والجُوبي. وتزعم المَرْوانية أنها من بني مَرْوان بن الحَكَم بن أبي العاص. وتزعم بعض الهَكّارية أنهم من ولد عُتْبة بن أبي سفيان صَخْر بن حَرْب"[3] .

**في مجال الدين:**

قال الآلُوسي (ت ١٢٥٠ هـ- ١٥٤٤ م):

"وفي القاموس[4] الكرد بالضم جيل من الناس معروف، والجمع أكراد وجدُّهم كُرْد بن عمرو مُزَيْقِيا بن عامر ماء السماء...، والذي يَغلب على ظني أن هؤلاء الجيل الذين يقال لهم اليوم أكراد لا يَبعد أن يكون فيهم من هو من أولاد عمرو مُزَيْقِيا، وكذا لا يَبعد

---

١. المسعودي: مروج الذهب، ١٢٢/٢ - ١٢٣ .

٢. المرجع السابق، ١٢٤/٢ .

٣. المقريزي: كتاب السلوك، ص ٢٢ - ٢٣ .

٤. القاموس المحيط للفيروزآبادي، وهو معجم لغوي.

أن يكون فيهم من هو من العرب، وليس من أولاد عمرو المذكور، إلاّ أن الكثير منهم ليسوا من العرب أصلاً، وقد انتظم في سلك هذا الجيل أناس يقال: إنهم من ذرّية خالد بن الوليد، وآخرون يقال: إنهم من ذرّية مُعاذ بن جَبَل؛ وآخرون يقال: إنهم من ذرّية العبّاس بن عبد المُطَّلِب، وآخرون يقال: إنهم من بني أُميّة، ولا يصحّ عندي من ذلك شيء، بيد أنه سكن مع الأكراد طائفة من السادة أبناء الحسين رضي الله تعالى عنهم يقال لهم البَرْزَنْجية لا شك في صحة نسبهم، وكذا في جلالة حسبهم "[١] .

وقال الآلوسي في تفسير الآية: {قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا] [٢] ما يلي:

"وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هُرَيْرَة قال: البارز (الجبال) يعني الأكراد ....، وأخرج ابن المُنْذِر والطَّبَراني في (الكبير) عن مُجاهِد، قال: أعراب فارس وأكراد العجم، وظاهر العطف أن أكراد العجم ليسوا من أعراب فارس، وظاهر إضافة أكراد الى العجم يُشعر بأن من الأكراد ما يقال لهم أكراد العرب، ولا نعرف هذا التقسيم وإنما نعرف جيلاً من الناس يقال لهم أكراد، من غير إضافة الى عرب أو عجم. وللعلماء اختلاف في كونهم في الأصل عرباً أو غيرهم فقيل : ليسوا من العرب، وقيل منهم، قال القاضي شمس الدين أحمد بن محمد بن خَلِّكان في ترجمة المُهَلَّب بن أبي صُفْرَة ما نصُّه: حكي أبو عمر بن عبد البَر صاحب كتاب (الاستيعاب) في كتابه (القَصْد والأمَم في أنساب العرب والعجم) أن الأكراد من نسل عمرو مُزَيْقِيا بن عامر بن ماء السماء، وأنهم وقعوا الى أرض العجم، فتناسلوا بها، وكثر ولدهم، فسُمّوا: الأكراد، وقال بعض الشعراء في ذلك وهو يَعضُد ما قاله ابن عبد البَر:

لَعَمْرُك، ما الأكرادُ أبناءُ فارس ولكنه كُردُ بنُ عَمرو بنُ عامرِ"[٣] .

وذكر الراغب الأصبهاني أن "عمر بن الخَطّاب، رضي الله عنه روي، عن النبي، صلي الله عليه وسلم، أنه قال: الأكراد جيلُ الجن كُشف عنهم الغطاء. وإنما سُمّوا الأكرادَ لأن سليمان عليه السلام لما غزا الهند، سَبي منهم ثمانين جارية وأسكنهم جزيرةً،

---

١. الآلوسي: روح المعاني، ١٠٢/٢٥ – ١٠٣ .

٢. سورة الفتح، الآية ١٦ .

٣. الآلوسي: روح المعاني: ج ٢٥، ص ١٠٢ – ١٠٣ .

فخرجت الجن من البحر فواقَعوهن، فحمل منهم أربعون جارية، فأُخبر سليمانُ بذلك، فأمر بأن يخرجن من الجزيرة الى أرض فارس، فولدن أربعين غلاماً، فلما كثروا أخذوا في الفساد وقطع الطرق، فشكَوا ذلك الى سليمان، فقال: اكردوهم الى الجبال! فسمُّوا بذلك أكراداً"[1] .

وذكر الطَّبَري والقُرْطُبي والآلُوسي أن "الكرد هم أعراب فارس"[2] .

هذا ما جاء عن أصل الكرد في مصادر المسلمين السنّة. أما في مصادر المسلمين الشيعة فقد جاء قول الكُلِيني (ت ٣٢٨ هـ - ٩٤٠ م):

"عن محمد بن يحيي وغيره، عن أحمد بن محمد، عن على بن الحَكَم، عمن حدثه عن أبي الرَّبِيع الشامي، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام (جعفر الصادق)، فقلت: إن عندنا قوماً من الأكراد، وأنهم لا يزالون يجيئون بالبيع، فنخالطهم ونبايعهم. فقال: يا أبا الرَّبِيع، لا تخالطوهم، فإن الأكراد حيٌّ من أحياء الجن كشف الله عنهم الغطاء، فلا تخالطوهم"[3] .

وقال الكُلِيني أيضاً:

"عن على بن إبراهيم، عن إسماعيل بن محمد المكّي، عن على بن الحسين، عن عمرو بن عثمان، عن الحسين بن خالد، عمن ذكره، عن أبي الرَّبيع الشامي، عن أبي عبد الله عليه السلام [= جعفر الصادق]: ولا تُنْكِحوا الأكرادَ أحداً، فإنهم من جنس الجن كشف الله عنهم الغطاء "[4] .

**في مجال اللغة:**

قال الزَّبِيدي في معجم (تاج العروس):

"الكُرد (بالضم) جيل معروف، وقبائل شتى، الجمع أكراد... واختُلف في نسبهم؛ فقيل: جدّهم كُرْد بن عمرو مُزَيْقِياء، وهو لقب لعمرو، لأنه كان كل يوم يلبس حلّة، فإذا كان آخر النهار مزّقها لئلا تُلْبَس بعده... وهذا الذي ذهب إليه المُصنّف هو الذي جَزم

---

١. الراغب الأصبهاني: محاضرات الأدباء، ١/١٦٠ .

٢. الطبري: جامع البيان، ١٠/٤٣ . القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ١١/٢٠٠، الآلوسي: روح المعاني، ١٧/٦٧ - ٦٨ .

٣. الكليني: الكافي، ٥/١٥٨، مصدر إلكتروني.

٤. الكليني: الكافي، ٥/٣٥٢، باب من كره مناكحته.

به ابن خَلِّكان في (وَفَيات الأعيان)، في ترجمة المُهلَّب بن أبي صُفْرة، قال: إن الأكراد من نسل عمرو مُزَيقياء، وقعوا الى أرض العجم، فتناسلوا بها، وكثر ولدهم، فسمُّوا الأكراد. قال بعض الشعراء:

لَعَمْرُكَ، ما الأكرادُ أبناءُ فارسٍ     ولكنّهم كُرْدُ بنُ عَمرِو بن عامرِ

هكذا زعم النسّابون. وقال ابنُ قُتَيْبة في كتاب (المعارف): تَذكر العجم أن الأكراد فَضْلُ طعام بِيُوراسف (بِيوَراسب). وذلك أنه كان يأمر أن يُذبَح له كلَّ يوم إنسانان، ويُتّخَذ طعامُه من لحومهما، وكان له وزير يقال له: أَرْيابيل، فكان يَذبح واحداً، ويُبقي واحداً يَسْتَحْييه، ويَبْعث به الى جبل فارس، فتوالدوا في الجبال وكثروا.

قال شيخنا: وقد ضعّف هذا القول كثير من أهل الأنساب.

قلت: وبيوراسف هذا هو الضحّاك الماري (المادي/الميدي)، مَلَك العجم بعد جَمْ بن سليمان ألف سنة. وفي (مفاتيح العلوم) هو معرَّب (دَهْ آك)؛ أي ذو عشر آفات. وقيل: معرّب أزده؛ أي التنِّين، للسِّلْعَتَين (الزيادتين) اللتين كانت له. وقال أبو اليقظان: هو كُرد بن عمرو بن عامر بن رَبيعة بن عامر بن صَعْصَعة.

وقد ألّف في نسب الأكراد فاضلُ عصره العلاّمة محمد أفندي الكردي، وذكر فيه أقوالاً مختلفة بعضُها مصادم للبعض، وخبط فيها خبط عَشواء، ورجّح فيه أنه كُرْد بن كنعان بن كُوش بن حام بن نوح، وهم قبائل كثيرة، ولكنهم يرجعون الى أربعة قبائل: السُّوران، والكُوران، والكلهور، واللُّر. ثم إنهم يتشعّبون الى شعوب وبطون وقبائل كثيرة لا تُحصى، متغايرة ألسنتهم وأحوالهم. ثم نقل عن (مناهج الفِكَر ومباهج العِبَر) للكُتْبي ما نصُّه: أما الأكراد فقال ابن دُرَيْد في (الجَمْهَرة): الكُرْد أبو هذا الجيل الذين يسمُّون بالأكراد، فزعم أبو اليَقْظان أنه كُرْد بن عَمْرو بن عمرو بن صَعْصَعة. وقال ابن الكَلْبي: هو كُرْد بن عمرو مُزَيْقياء، وَقعوا في ناحية الشَّمال لمّا كان سيل العَرِم، وتفرّق أهلُ اليمن أيدي سبأ"[1] .

ثم نقل الزَّبيدي عن كاتب اسمه محمد أفندي الكردي ما يلي:

"وقال المسعودي: ومن الناس من يزعم أن الأكراد من ولد رَبيعة بن نِزار، ومنهم من زعم أنهم من ولد كُرْد بن كَنْعان بن كُوش بن حام. والظاهر أن يكونوا من نسل سام،

---

١. الزبيدي: تاج العروس، مادة كرد.

كالفُرس، والمعروف منهم السُّورانية، والكُورانية، والعمادية والحَكارية، والمحمودية والبُخْتية، والبَشْنَوية، والجُوبية، والزَّرْزائية، والمَهْرانية، والجاوانية، والرضائية، والسَّروجية والهارونية، واللُّرية، الى غير ذلك من القبائل التي لا تُحصي كثرةً، وبلادهم أرض الفارس وعراقُ العجم، وأذربيجان والإربل والموصل"[1] .

ولم نجد هذا القول عند المسعودي، لا في كتابه (مروج الذهب)، ولا في كتابه (التنبيه والإشراف)، ولعله مأخوذ من كتاب للمسعودي مفقود، وأضاف الزَّبِيدي يقول:

"قلت: والذي نقل البُلْبِيسيّ عن المسعودي نص عبارته: هكذا تنازع الناس في بدء الأكراد، فمنهم من رأى من رَبيعة بن نِزار بن بَكْر بن وائل، انفردوا في الجبال قديماً لحال دعاهم الى ذلك، فجاوروا الفُرس، فحالت لغتهم الى العُجْمة، وولد كل نوع منهم لغة لهم كردية. ومنهم من رأي أنهم من ولد مُضَر بن نِزار، وأنهم من ولد كُرْد بن مرد بن صَعْصَعة بن هَوازِن، انفردوا قديماً لدماء كانت بينهم وبين غسّان، ومنهم من رأى أنهم من ولد رَبيعة بن مُضَر، اعتصموا بالجبال طلباً للمياه والمرعى، فحالوا عن العربية لمن جاورهم من الأمم. وهم عند الفرس من ولد كُرد بن أَسْفَنْديار بن مَنُوَجْهر. ومنهم من ألحقهم بإماء سليمان عليه السلام، حين وقع الشيطان المعروف بالجَسَد على المنافقات، فعلِقن منه، وعُصم منهن المؤمنات، فلما وضعن قال: اكردوهن الى الجبال...

ثم قال محمد أفندي المذكور: وقيل أصل الكرد من الجن، وكل كردي على وجه الأرض يكون ربعه جنّياً، وذلك لأنهم من نسل بِلْقيس، وبلقيس بالاتفاق أمها جنّية. وقيل: عصي قوم من العرب سليمان عليه السلام، وهربوا الى العجم، فوقعوا في جَوار كان اشتراها رجل لسليمان عليه السلام، فتناسلت منها الأكراد. وقال أبو المُعين النَّسَفي في (بحر الكلام): ما قيل إن الجنّي وصل حُرَم سليمان عليه السلام، وتصرّف فيها، وحصل منها الأكراد، باطل لا أصل له. انتهى.

قلت: وذكر ابن الجوّاني النسّابة ... عند ذكر ولد شالَخ بن أَرْفَخْشَذ[2] ما نصُّه: والعقب من فارسان بن أهلوا بن أَرم بن أَرْفَخْشَذ أكراد بن فارسان جد القبيلة المعروفة بالأكراد، هذا على أحد الأقوال. وأكثر من يَنسبهم الى قَيس، فيقول: كُرد بن مرد بن عمرو بن صَعْصَعة بن مُعاوية بن بكر بن هَوازِن بن منصور بن عِكْرِمة بن

---

١. المرجع السابق نفسه.

٢. في العهد القديم: شالَح بن أَرْفَكْشاد.

خَصَفَة بن قَيس عَيْلان بن مُضَر بن نِزار بن مَعَدّ بن عَدْنان،... والله أعلم "[1] .

وقال الفَيْروزآبادي في معجم (القاموس المحيط):

" الكَرْدُ ... جِيلٌ معروف، الجمع أكْرادٌ، وجَدُّهُم كُرْدُ بنُ عَمْرٍو مُزَيْقِياءَ بنِ عامرِ بنِ ماءِ السَّماء "[2] .

هذا أبرز ما جاء في مصادر التراث الإسلامي حول أصل الكرد.

وبقي أن نتساءل: أين هي الحقيقة؟

---

١. الزبيدي: تاج العروس، مادة كرد.

٢. الفيروزآبادي: القاموس المحيط، مادة كرد.

## ٧

# أصل الكرد في التراث الإسلامي - ٢

**ظاهرة فريدة:**

سبق أن استعرضنا أبرز الروايات التي جاءت في مصادر التراث الإسلامي حول أصل الكرد، والمثير للانتباه كثرة تلك الروايات وتشعّبها، وهذا الأمر بحد ذاته ظاهرة فريدة جديرة بالبحث والتأمل، وفيما يلي خلاصة الروايات:

٠١ الكرد عرب من نسل عَمرو بن صَعْصَعة (عرب الشمال).

٠٢ الكرد عرب من نسل رَبيعة بن نِزار بن مَعَدّ بن عَدْنان (عرب الشمال).

٠٣ الكرد عرب من نسل مُضَر بن نِزار بن مَعَدّ بن عَدْنان (عرب الشمال).

٠٤ الكرد من نسل كُرْد بن مَرْد بن صَعْصَعَة بن هَوازِن، من فرع قَيس عَيْلان بن مُضَر بن نِزار بن عَدنان (عرب الشمال).

٠٥ الكرد من بقية أولاد حُمَيد بن زُهير بن الحارث بن أَسَد بن عبد العُزّي بن قُصَيّ (من قريش- عرب الشمال).

٠٦ الكرد عرب من نسل عَمرو مُزَيْقِياء (عرب الجنوب- اليمن).

٠٧ الكرد من نسل قوم من العرب عصوا النبي سليمان، وهربوا الى العجم، وزنوا بجوار كن للنبي سليمان.

٠٨ الكرد أعراب فارس.

٠٩ الكرد من نسل أَسْفَنْدِيار بن مَنُوشَهْر.

٠١٠ الكرد من نسل أكراد بن فارسان بن أهلوا بن إرَم بن سام بن نوح.

٠١١ الكرد من نسل أَشُوذ [أَشُور]، ولأشوذ أربعة من الولد هم: إيران، ونَبِيط، وجَرْمُوق، وباسِل، ومن إيران: الفرس والكرد والخَزَر.

٠١٢ الكرد من نسل الشبان الذين نجوا من الضحّاك (أزدهاك)، والتحقوا بالجبال،

وتناسلوا هناك.

١٣. الكرد والكُرْج (الجورجيون) من نسل واحد: " ويقال في المسلمين الكُرد، وفي الكفار الكُرْج "[١] .

١٤. الكرد هم من بني إيران بن أشور، بن سام، بن نوح.

١٥. الكرد من نسل كُرد بن كَنعان بن كُوش بن حام بن نوح.

١٦. الكرد من نسل كُرد بن مُرْد بن يافث بن نوح.

١٧. الكرد من نسل شيطان يسمّي (الجَسَد)، فقد زنى هذا الشيطان بجواري النبي سليمان بن داود، وبنسائه المنافقات، فحملن منه، وأنجبن الكرد.

ونخرج من هذه الروايات بالملاحظات الآتية.

**الروايات والملاحظات:**

الملاحظة الأولى: أول ما يلفت الانتباه كثرة الروايات الدائرة حول أصل الكرد في المصادر الإسلامية، واختلاف تلك الروايات، فالكرد تارة من نسل عربي، وتارة أخرى من نسل فارسي، وثالثة من نسل سام بن نوح، أي هم (ساميون) حسب التصنيفات الحديثة للشعوب، ورابعة هم من نسل يافث بن نوح، أي هم (آريون)، وخامسة هم ليسوا بشراً، وإنما هم فريق من الجن تجسّدوا في أشكال آدمية، وسادسة نصف الكردي أدمي (من جهة الأمهات) ونصفه الآخر شيطاني (من جهة الأب: الشيطان الجَسَد).

والحقيقة أن اهتمام مصادر التراث الإسلامي بأصول الشعوب وطباعها لم يكن مقصوراً على الكرد، وإنما كان موجَّهاً الى شعوب أخرى، نذكر منهم العرب عَدنانيين وقَحْطانيين، والروم، والفرس، والدَّيْلَم، والنَبْط (النَّبِيط)، والسُّريان، والقُبط، والنُّوبة، والتُّرك، والبَرْبَر (الأمازيغ)، وشعب التِبّت، وشعب الأندلس (إسبانيا). لكن لم تكن الروايات الدائرة حول أصل هذه الشعوب كثيرة ومختلفة، ومتضاربة أحياناً، كالروايات الدائرة حول أصل الكرد.

والأرجح أن وراء الأمر سببين اثنين:

---

١. انظر القَلْقَشَنْدي: صبح الأعشى، ١/٤٢٣ - ٤٢٤ .

١ – السبب الأول هو الغموض الذي كان يحيط بالكرد، فمن خلال مراجعاتي للأدب العربي قبل الإسلام (الجاهلي)– ولا سيما الشعر– لم أجد سوى إشارات قليلة جداً الى الكرد، قياساً بالفرس مثلاً، وهذا يعني أن العرب ما كانوا يمتلكون، قبل الإسلام، معلومات كافية عن الكرد، ولم يعرفوهم عن قرب إلا مع بدء الفتوحات الإسلامية، والصراع مع الدولة الساسانية الفارسية.

٢ – السبب الثاني ناجم الى حد كبير عن السبب الأول، فندرة المعلومات عن الكرد قبل الإسلام أدّى الى قبول كل الروايات؛ مهما كانت درجة اختلافها وتخبّطها وتناقضها، وهذا أمر يستوي فيه رواة الأخبار القدامي سواء أكانوا من العرب أم من غير العرب.

والمثير للإنتباه أننا لا نجد الروايات تتزاحم حينما يكون الأمر متعلقاً بأصول الشعوب الأخرى، ولنأخذ الترك مثلاً، فليس في شعر العرب قبل الإسلام ذكر لهم، وكانت مواطنهم تقع في وسط آسيا، وهذا يعني أنهم كانوا بعيدين جداً عن العرب في الجاهلية، بخلاف الكرد، فلماذا لا نجد كثرة الروايات وتخبّطَها وتناقضها بشأن أصلهم أيضاً؟ أما كان المنطق يقتضي أن تكون الروايات الدائرة حول أصلهم أكثر اختلافاً وتخبّطاً وتناقضاً من الروايات المتعلقة بأصل الكرد؟

ولماذا لا نجد ذلك الاختلاف والتخبط في أصل الفرس أيضاً، علماً بأنهم كانوا– ومازالوا– من جيران الكرد القريبين جداً، وبينهم وبين الكرد قرابة في الأصل الآرياني، وفي الثقافة الزردشتية، هذا عدا خضوع الشعبين معاً لدولة قادها الميد (أجداد الكرد) تارة، ولأخرى قادها الفرس الأخمين والساسانيون تارة ثانية؟

وباختصار: لماذا خُصّ الكرد وحدهم بكل هذا التأصيل والتشعيب؟

الملاحظة الثانية: الروايات التي أرجعت أصل الكرد الى العرب كثيرة، وهي مختلفة في التفاصيل، فرواية واحدة فقط تجعلهم من نسل العرب القحطانيين (عرب اليمن/العاربة)، وهي الرواية التي أرجعتهم الى الجد الأكبر (عمرو مُزَيْقياء)؛ وهذه الرواية منسوبة الى النسّابة ابن الكَلْبي، فقد قال: "هو كُرْد بن عمرو مُزَيْقياء، وَقعوا في ناحية الشمال لما كان سيل العَرِم، وتفرّق أهلُ اليمن أيدي سَبَأ"[١] .

---

١. انظر الزبيدي: تاج العروس، مادة كرد.

وأكثر الروايات تجعل الكرد من نسل العرب العدنانيين (عرب الشمال – المستعربة)، وأقدم من نُسب إليه أصل هذه الروايات هو النسّابة العربي (أبو اليَقْظان)[1] ، ومعروف في كتب الأنساب أن العرب العدنانيين هم من نسل نِزار بن مَعَدّ بن عدنان. ويتفرع من نزار فرعان اثنان:

– فرع رَبِيعَة بن نزار.
– وفرع مُضَر بن نزار.

وينقسم فرع مُضَر بن نزار بدوره الى فرعين أصغر هما:

– فرع إلياس بن مُضَر، ومنه قريش.
– وفرع قيس عَيْلان بن مُضَر، ومنه بنو هَوازِن.

وبمراجعة الروايات التي أرجعت أصل الكرد الى الفرع العربي العدناني يتضح أنها مختلفة، فرواية تنسبهم الى فرع رَبيعة بن نِزار، وأخرى تنسبهم الى فرع مُضَر بن نزار، ووصل الاختلاف الى داخل الفرع المُضَري، فرواية تنسبهم الى قَيس عَيْلان بن مُضر. وأخرى تنسبهم الى قُصَيّ، وهو أعظم شخصيات قُرَيش، والجد الأكبر لبني هاشم (أسرة النبي محمد)، وقد مر أن الجد الأكبر لقبيلة قريش هو إلياس بن مُضر. فماذا وراء الاختلاف في الروايات التي نسبت الكرد الى العرب؟

الملاحظة الثالثة: ثمة روايات أرجعت أصل الكرد الى الفرس مباشرة حيناً، والى الشعوب الآريانية حيناً آخر، والمقصود بالشعوب الآريانية تلك الشعوب التي عاشت في آريانا، وهي المنطقة الجغرافية التي تشمل الآن كردستان، وإيران، والقسم الشمالي الغربي من أفغانستان (خُراسان قديماً)، وتلك الروايات غامضة بشكل عام، فالكرد تارة (أعراب فارس)، والمقصود بالأعراب (البدو)، والمقصود بكلمة (فارس) بلاد فارس، أي منطقة آريانا الغربية (إيران حالياً)، وليس المقصود (إقليم فارس) الذي يقع في جنوب غربي إيران حالياً.

ورواية أخرى تنسب الكرد الى الأصل الفارسي مباشرة، من خلال (أَسْفَنْديار بن مَنُوشَهْر)، ورواية أخرى تجعلهم من سلالة الشبان الذين كان وزير الملك الضحّاك (أزدهاك) يطلق سراحهم، ويأمرهم بالهروب الى الجبال، فتزاوجوا هناك وتناسلوا، وكان منهم الكرد.

---

١ . المرجع السابق، مادة كرد.

وثمة جملة من الأسئلة: ما حقيقة الصلة بين الفرس والكرد؟ وما حقيقة قصة الضحاك؟ أهي أسطورة أم حقيقة؟ وماذا كان أصل أولئك الشبّان؟ هل كانوا من الفرس؟ أم من الميد؟ أم كانوا من جنسيات أخرى؟

الملاحظة الرابعة: هناك رواية جعلت الكرد والكُرج (الجورجيون) من أصل واحد، واتخذت الدين معياراً للتمييز، فالكرد هم المسلمون، والكُرج هم المسيحيون (الكفّار حسب التوصيفات الإسلامية التراثية). فهل اعتمد صاحب هذه الرواية على التقارب اللفظي بين اسمي (الكُرْد، الكُرْج)؟ وهل اتخذ ذلك التقارب اللفظي دليلاً على أن الشعبين شعب واحد في الأصل؟ أم أنه اعتمد أموراً أخرى مثل الجوار الجغرافي بين الكرد والكرج في جنوب غربي القوقاز؟ أم أن ثمة دليلاً آخر غير هذا وذاك؟

الملاحظة الخامسة: أرجعت بعض الروايات أصول الكرد الى مراحل قديمة جداً، ولم تقف عند تنسيبهم الى العرب والفرس، واعتَمدت على التقسيمات الواردة في التوراة حول أصل الشعوب؛ فشعوب العالم – بحسب التوراة– تعود الى أبناء نوح الثلاثة، وهم سام (جد الساميين)، وحام (جد الحاميين/الأفارقة)، ويافث (جد بقية الشعوب). ونجد ضمن هذا التوجيه اختلافاً كبيراً، فالكرد تارة من بني أشور بن سام، وتارة من بني كنعان بن كوش بن حام، وثالثة من بني مرد بن يافث.

فلماذا كل هذا التضارب الشديد في تنسيب الكرد؟ وأين هي الحقيقة؟

الملاحظة السادسة: إن بعض الروايات جعلت الكرد مخلوقات مكوّنة من جنسين:

– الجنس الأول آدمي، باعتبار أن أمهات الكرد هن الجواري الآدميات اللواتي كنّ في قصر النبي سليمان.

– والجنس الآخر شيطاني، نسبة الى الشيطان المعروف باسم (الجَسَد).

وبشأن الجنس الثاني تذكر الروايات أن الشيطان (الجسد) زني بالجواري المنافقات، فأنجبن منه الكرد، ولهذه الرواية علاقة بالآية القرآنية: {وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ}[1] .

وقد جاء في كتب تفسير القرآن، حول هذه الآية، روايات متعددة وطويلة، خلاصتها

١. سورة ص، الآية ٣٤ .

أن النبي سليمان أراد دخول الخلاء لقضاء الحاجة، فخلع خاتمه، وأعطاه لإحدي نسائه، وكانت لها مكانة خاصة عنده بسبب جمالها، لكنها كانت حديثة عهد بالوثنية، فانتهز الشيطان الجسد الفرصة، وتقمّص شكل سليمان، واحتال على المرأة وأخذ منها الخاتم، وعندئذ جُرّد سليمان من جميع سلطاته، وصار الشيطان الجسد هو الآمر الناهي، وأصبح يضاجع زوجات سليمان ونسائه.

وبعد حين استردّ سليمان خاتمه، فاستردّ سلطاته، وأبطل ما قام به الشيطان الجسد، لكن نساءه وجواريه كن قد حملن من الشيطان، وكان من المستحيل أن يمنعهن من الوضع. وابن جرير الطبري هو من المفسرين القلائل الذين ذهبوا الى أن اللّه عصم نساء سليمان من الشيطان الجسد، فلم يضاجعهن[1] . وأورد الآلوسي حول تفسير هذه الآية أن النبي سليمان:

"قال: لأطوفنّ الليلة على سبعين امرأة، تأتي كل واحدة بفارس يجاهد في سبيل الله تعالى، ولم يقل: إن شاء الله. فطاف عليهن، فلم تحمل إلا امرأة، وجاءت بشقِّ رجل (نصف رجل)... فالمراد بالجسد ذلك الشِّقُّ الذي ولد له، ومعنى إلقائه على كرسيه وَضْعُ القابلةِ له عليه ليراه".

وقد ذهب النَّسَفي هذا المذهب أيضاً، فقال: "وأما ما يُروى من حديث الخاتم والشيطان، وعبادة الوثن في بيت آل سليمان عليه السلام، فمن أباطيل اليهود"[2] .

لكن معظم المفسرين أخذوا بالتفسير الأول. والمهم أنه لم يأت ولا في كتاب واحد من كتب تفسير القرآن أن الكرد من سلالة الشيطان الجسد وجواري النبي سليمان؛ وللتحقق من ذلك رجعت الى أكثر من عشرين كتاباً من كتب التفسير، بين قديم وحديث، أذكر منها: (تفسير الطَبَري، وتفسير القُرْطُبي، وتفسير ابن كَثِير، وتفسير البَغَوي، وتفسير البَيْضاوي، وتفسير الآلوسي، وتفسير النَّسَفي، وتفسير الكشّاف للزَّمَخْشَري، وتفسير النّيسابوري، وتفسير أبي السُّعود، وتفسير الجَلالَين، وتفسير في ظلال القرآن). فمن أين جاءت إذاً الرواية التي جعلتِ الكرد من نسل الشيطان الجسد؟! ومن يقف وراءها؟ ولماذا تم اختلاق تلك الرواية أصلاً؟

---

١. انظر ابن الجَوْزي: زاد المسير، ١٣٢/٧ – ١٣٨ . والبَغَوي: معالم التنْزيل، ٦٠٤/٤ – ٦٠٦ . وابن كَثير: تفسير القرآن العظيم، ٥٧/٧ – ٥٨ .

٢. الآلوسي: روح المعاني، ١٩٨/٢٢ – ١٩٩, وانظر النَسَفي: مدارك التنْزيل، ١٩٤/٣ .

الملاحظة السابعة: بعض الروايات جعلت الكرد نتاج تزاوج جنسين هما الجن والنساء الآدميات، لكن النساء هذه المرة جوارٍ هنديات، والجن جن البحر وليسوا جن البر، ومرة أخرى نري أن للنبي سليمان علاقة بالموضوع، وأنه أمر أمهات الكرد الهنديات أن ينتقلن بأولادهن من تلك الجزيرة النائية في قلب البحر الى بلاد فارس، لكن ذلك النسل الهجين (الجني / الآدمي) مارس قطع الطرق، فأمر النبي سليمان بطردهم من السهول الى الجبال. وتشتق هذه الرواية اسم (الكرد) من قول النبي سليمان (اكردوهم الى الجبال).

وينطلق مخترع هذه الرواية من فرضيتين:

- الأولى أن النبي سليمان كان يتكلم العربية.

- والثانية أن غزوات النبي سليمان وصلت الى الهند شرقاً.

والحقيقة أن كلتا الفرضيتين محض اختلاق؛ فلغة النبي سليمان كانت العبرانية (الكنعانية أصلاً)، وليس العربية. ومعروف أن سليمان حكم بين سنتي (٩٦١ - ٩٢٢ ق.م)، حسبما ذكر سبتينو موسكاتي[1] ، أو بين سنتي (٩٦٥ - ٩٢٨ ق.م)، حسبما ذكر أبراهام مالمات، وحاييم تدمور[2] .

أضف الى ما سبق أن سليمان لم يستطع فرض سيطرته الكاملة على الممالك الآرامية في سوريا المجاورة لفلسطين شرقاً، فكيف وصل بغزواته الى الهند؟ وكيف اخترق سوريا التي كان الحثيون الأقوياء يحكمون نصفها الشمالي بدءاً من مدينة (حَماه)؟ وكيف اخترق سليمان بلاد الرافدين حيث كان الآشوريون الأقوياء يحكمون؟ وكيف اخترق كردستان وفارس حيث كان يسيطر الميديون والفرس؟

إذاً فرواية كون الكرد من نسل الجن وجواري النبي سليمان هي من نسج الخيال، وتتعارض مع الحقائق البيولوجية والتاريخية والجغرافية، وقد تكون مستقاة في الأصل من الروايات العبرانية (الإسرائيليات)، إذ إن تلك الروايات كانت شائعة في غربي آسيا عن طريق أتباع اليهودية والمسيحية، وكانت تهدف الى تضخيم شخصية النبي سليمان، وتعظيم شأنه ونفوذه، ومع ذلك يبقي سؤال جدير بالاهتمام؛ هو: لماذا كانت

---

١. سبتينو موسكاتي: الحضارات السامية القديمة، ص ١٤٤ .

٢. أبراهام مالمات، وحاييم تدمور: العبرانيون وبنو إسرائيل، ص ٢١٦ .

صورة الكرد بالذات هي المعرّضة للتشويه في تلك الروايات؟ ولماذا كان عليهم أن يدفعوا هذا الثمن الغالي من هُويّتهم؟

هنا لا بد من العودة بالذاكرة ثانية الى الصراع الأخميني- الميدي، فقد كان الملك الميدي كَيْ أخسار قد تحالف مع الملك البابلي (الكلداني) نبوبولاصر، ضد الإمبراطورية الآشورية، وأفلح الحليفان في إسقاطها سنة (٦١٢ ق.م)، وتقاسما ممتلكاتها، وصارت مملكة إسرائيل في أرض كنعان (فلسطين) من نصيب البابليين، وقاوم العبرانيون الحكم البابلي، وتعرّضوا للقهر والانتقام، وقد هاجم الملك البابلي نبوخذ نصّر (بُختُنصّر) بن نبوبولاصر (وصهر الملك الميدي كي أخسار) مدينة (أورشليم) عاصمة مملكة يهوذا سنة (٥٨٦ ق.م)، ودمّرها، وسبي عدداً كبيراً من العبرانيين، ونفاهم الى بلاد الرافدين، فتوزّعوا في بابل وميديا وفارس، وأصبحوا مع مرور الأعوام قوة اقتصادية وثقافية لا يستهان بها[1] .

ويبدو أن الملك الأخميني كورش الثاني كان قد بني علاقات وثيقة مع النخب العبرانية في المنفي، وذلك حينما كان يعدّ العدّة لإسقاط الملك الميدي أستياگ، وكان من مصلحة العبرانيين إسقاط مملكة ميديا وحليفتها مملكة بابل، ليتخلّصوا من الأسر، وقد أفلح كورش في إسقاط الملك الميدي أستياگ سن (٥٥٠ ق.م)، ثم توجّه سنة (٥٣٩ ق.م) لإسقاط المملكة البابلية أيضاً، وكان ذلك بتعاون وثيق مع النخب العبرانية، وكان الثمن الذي قبضته تلك النخب هو مرسوم أصدره كورش، يسمح بموجبه للعبرانيين بالعودة الى مملكة يهوذا، وإعادة بناء الهيكل[2] .

ويبدو أيضاً أن النخب العبرانية كانوا أداة ثقافية وإعلامية ناشطة في ذلك العهد، إضافة الى نشاطهم الاقتصادي والسياسي، وقد أحسن الملوك الأخمينيون استثمار تلك القدرات لتعزيز سلطتهم، وتشويه صورة الميديين وحلفائهم البابليين، وجاءت تفاصيل التحالف الأخميني العبراني في (سِفْر أستِير) من كتاب (العهد القديم)، وكان على الكرد أن يرثوا تبعات التآمر الأخميني- العبراني على أسلافهم الميديين، وأن يظهروا في الذاكرة الغرب آسيوية بتلك الصورة الشنيعة.

---

١. محمد بيومي مهران: تاريخ العراق القديم، ص ٤٤٥، ٤٤٧- ٤٤٨ .

٢. سبتينو موسكاتي: الحضارات السامية القديمة ص ١٤٧ . إسرائيل فنكلشتاين: التوراة اليهودية، ص ٣٦٧, ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ٥١ .

# ٨

# التنافس العربي على الكرد

## كيف نقرأ التاريخ؟

كتابة التاريخ شيء، وقراءة التاريخ شيء آخر. ويكاد يكون من المحال أن توجد كتابة تاريخية بلا نوايا، بغضّ النظر عن طبيعة تلك النوايا من حيث كونها إيجابية أم سلبية، وثمة قطبان اثنان كانا - وسيظلان - مؤثرين في الكتابات التاريخية، إنهما: الثقافة، والسياسة.

ولقراءة التاريخ قراءة صائبة ودقيقة تجب الإجابة عن أربعة أسئلة:

١ - من هو المؤرخ الذي سرد المعلومة التاريخية؟

٢ - من أين استقى ذلك المؤرخ المعلومة التي سردها؟

٣ - ما هو المناخ الثقافي والسياسي الذي كان يحيط بالمؤرخ؟

٤ - ما هي الذهنية التي صدر عنها المؤرخ في سرد المعلومات؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة أمر مهم للتعامل مع كتابات المؤرخين بشكل عام، ولوضعها في سياقاتها الثقافية والسياسية الصحيحة، وهو- حسبما أري- أكثر أهمية حينما نتعامل مع كتابات المؤرخين المسلمين بشكل خاص، لأن كتاباتهم في عهد التأسيس (القرن الأول والثاني والثالث الهجري) كانت تقع، بهذا القدر أو ذاك، تحت تأثير الأمور الآتية:

١ - استقاء المعلومات من مصادر مجهولة تماماً في كثير من الأحيان، والاكتفاء بعبارات غامضة مثل ( قيل، قال بعضهم، رأي بعضهم، زعم، زعموا ..).

٢ - إسناد المعلومة، بعض الأحيان، وعبر سلسلة من العنعنات، الى راوٍ، من غير ذكر ذلك الراوي أية مصادر استقي منها المعلومة (كتاب، شاهد على الحدث، آثار، ....)

والإيهام بأنه ثقة، ولا مجال للشك في أقواله.

٣ – الوقوع في أسر الخرافات والأساطير، وعدم الاحتكام، في نقل المعلومة، الى منطق العقل ومقتضيات الواقع، ولاسيما في المعلومات المتعلقة ببدايات نشأة الشعوب وتفرعها.

٤ – ضعف الحس العلمي النقدي، والشغف برواية ما هو مثير من الغرائب والعجائب.

٥ – الوقوع تحت تأثير الروايات التي تُرجمت من الكتب الفارسية والسريانية والعبرانية، وعدم تمحيصها تمحيصاً علمياً كافياً.

٦ – الافتقار– بعض الأحيان– الى القدر الكافي من النزاهة العلمية، والانسياق مع التوجهات الدينية والتيارات المذهبية، وتلبية توجّهات الوضع السياسي القائم.

٧ – الوقوع تحت تأثير شهوة (تنفيخ المعلومة)، وتنفيخ المعلومة يعني (تنفيخ الكتاب)، فيصبح ضخماً، بل يصبح مجلدات ضخمة، ولا يخفي شغف الذهنية الشرقية التقليدية بالجانب الكمي على حساب الجانب الكيفي (النوعي)، والمؤسف أن هذه الذهنية ما زالت تفعل فعلها على الصعيد الثقافي.

**العرب والتاريخ قبل الإسلام:**

وما دمنا بصدد أصل الكرد في التراث الإسلامي، فلنقم بجولة سريعة في ربوع نشأة (علم التاريخ) عند العرب في الإسلام، إذ المعروف أن الأمية كانت غالبة على العرب قبل الإسلام، ولم يكن في المجتمع العربي القَبَلي مؤسسات علمية تساعد على البحث والتأليف والنشر، وأقصى ما رواه مؤرخو الأدب في هذا المجال أن النخبة العربية اختارت بعض القصائد العربية المتميّزة في العصر الجاهلي (عصر ما قبل الإسلام)، لبعض كبار الشعراء، فكتبتها وعلّقتها على جدار الكعبة، أو وضعتها في خزانة الكعبة، فسمّيت تلك القصائد باسم (المعلَّقات)، وما زال هذا الاسم قائماً، وما عدا ذلك لم نجد في مصادر التراث العربي أنه كان ثمة كتب ومراجع تاريخية كانت النخب العربية تتوارثها قبل الإسلام. ومن باب الحذر نستثني العرب (الحُنَفاء)، ومنهم الشاعر الثقفي أُميّة بن أبي الصلّت، والمتنوّر المكي زيد بن عمرو بن نُفَيْل، وهو ابن عم عمر بن الخطّاب[١] ، ونستثني

---

١. ابن هشام: السيرة النبوية، ٢/٥٣، ٧٣ . ابن حبيب: المحبَّر، ص ١٧١ . المسعودي: مروج الذهب، ١/٧٠ – ٧١ .

أيضاً العرب الذين تنصّروا أو تمجّسوا (اعتنقوا الزردشتية) أو تهوّدوا، فهؤلاء كانوا يطّلعون على كتب العقائد التي اعتنقوها، ونذكر منهم على سبيل المثال المكي المتنصّر وَرَقة بن نَوْفَل ابن عم السيدة خديجة زوجة النبي محمد[1] ، والمكي الآخر النَّضْر بن الحارث بن كَلَدة الذي كان متأثراً بالثقافة الزَّرْدَشتية، ومطّلعاً على بعض أخبار التاريخ الفارسي، فكان يعارض الرسول، ويروي لقريش أخبار أَسْفَنْديار وغيره من ملوك الفرس، وقد أمر النبي محمد بقتله يوم فتح مكة عقاباً له[2] .

على أن من المفيد الأخذ في الحسبان أن عدد هؤلاء المتنورين كان قليلاً جداً، بالقياس الى سائر العرب، وكانوا يقيمون- على الغالب- في المراكز الرئيسة الواقعة على الخط التجاري الدولي المعروف باسم (طريق البخور)، وأبرز تلك المراكز هي يَثْرب ومكة والطائف، وهي تقع جميعها في المنطقة الجغرافية المعروفة باسم (الحجاز) في غربي شبه الجزيرة العربية، ثم إن هؤلاء المتنورين كانوا شبه معزولين وشبه منبوذين من غالبية المجتمع العربي ذي الثقافة الوثنية، ولم يكن لهم تأثير يُذكر في رسم ملامح الثقافة العربية.

ويمكن الترجيح بأن العرب عبروا من العصر الجاهلي الى العصر الإسلامي، وهم لا يملكون مدوّنات تاريخية، كتلك التي كانت عند الفرس والرومان واليونان والمصريين والهنود، ولم يكن في التراث الثقافي العربي حينذاك علم يصحّ أن يُطلق عليه اسم (علم التاريخ). حسناً، وهل معني ذلك أن العرب كانوا شعباً بلا تاريخ؟ لا بكل تأكيد، إذ من المحال أن تكون الشعوب بلا ذاكرة، ومن المحال أن تكون بلا تاريخ، وإن تاريخ كل شعب يتشكل وينتظم وفق أوضاعه البيئية والمجتمعية والسياسية والاقتصادية، وكذلك كان الأمر بالنسبة الى المجتمع العربي، وعلى ضوء ذلك ينبغي البحث في (التاريخ) عند العرب.

إن العرب قبل الإسلام، ومع ظهور الإسلام في أوائل القرن السابع الميلادي، حسبما ورد في المصادر العربية، كانوا يتألفون بشكل عام من فرعين رئيسين هما:

١- عرب الجنوب (اليمن) المنتمون الى الجد الأكبر قَحْطان، وتطلق عليهم المصادر العربية الإسلامية اسم (العرب العارِبة)؛ أي العرب الأصلاء، وكان هؤلاء أصحاب

---

١. ابن هشام: السيرة النبوية، ٥٣/٢ . والمسعودي: مروج الذهب، ٧٤/١، ٧٣ .

٢. ابن حبيب: المحبّر، ص ١٦١، والمسعودي: مروج الذهب، ٢٥٠/١ - ٢٥١

دول تعود الى حوالي ألف عام قبل الميلاد، من أبرزها دولة مَعِين، ثم دولة قَتَبان، ثم دولة سَبأ، ثم دولة حِمْيَر، وكانت تلك الدول تمتلك مراكز تجارية في الطرف الجنوبي من طريق البخور، لكنها انتهت الى الضعف والزوال، ووقعت اليمن في قبضة الاحتلال الحبشي حلفاء الروم سنة (٥٢٥ م)، وانتهي الاحتلال الحبشي سنة (٥٧٥ م)، وحل محله النفوذ الفارسي الساساني، وكان من المتوقَّع أن يوجد في تلك البلاد مصادر تاريخية، لكن الغريب أن الأمر لم يكن كذلك، ولم يبق من شاهد على تلك الدول والممالك سوى مصدرين هما: الآثار القائمة، والروايات الشفهية[١] .

٢- عرب الشمال المنتمون الى الجد الأكبر عَدنان، وتطلق عليهم المصادر العربية الإسلامية اسم (العرب المستعرِبة)، وتنسبهم الى النبي إسماعيل ابن النبي إبراهيم، ومعروف أن عرب الشمال لم تكن تجمعهم دولة، وإنما كان النظام القبلي هو السائد بينهم. وبعبارة أخرى: كان كل فرد يحمل جنسية قبيلته، وكان لكل قبيلة حِماها (وطنها) وشعراؤها وخطباؤها (إعلاميوها) ونسّابوها ورواة أخبار حروبها (مؤرخوها).

وخلاصة القول أن العرب قبل الإسلام كانوا يمتلكون بعض المعلومات التاريخية، لكنها كانت مبثوثة في قصائد الشعراء وخطب الخطباء، وكان النسابون ورواة الأخبار هم المطّلعون عليها، وكانت تلك المعلومات تنتقل من جيل الى آخر عبر الروايات الشفوية، ولذلك كانت عرضة للضياع، وللتحريف والتشويه، وللحذف والإضافة.

### العرب والتأريخ في الإسلام:

قد يُظن أننا ابتعدنا عن موضوعنا الأساسي، وهو أصل الكرد في المصادر الإسلامية، والحقيقة أننا ما زلنا في صلب الموضوع، فما جاء حول أصل الكرد في تلك المصادر يعود بلا ريب الى مصادر أقدم، بلي، هذا هو المفترض، وإلا فمن المنطقي أن نحكم عليها بأنها مختلقة، والأرجح أن معظم ما جاء حول الكرد في مصادر التراث العربي إنما وُجد بعد ظهور الإسلام، وهذا ما يجب أن نتناوله بالتحقيق والتمحيص، وفي سبيلنا الى ذلك دعونا نتذكر الحقائق الآتية:

---

١. أحمد عادل كمال: الطريق إلى المدائن، ص ٤١ . سبتينو موسكاتي: الحضارات السامية القديمة، ص ١٩، ١٩٣ . فيليب حتّي وآخران: تاريخ العرب، ص ٩٩ .

١٠ ظهر الإسلام بين عرب الشمال، وكان رسول الإسلام قُرَشِيّاً من عرب الشمال، وجاء القرآن (كتاب الإسلام) بلهجة قريش، وهي القبيلة الأرفع مكانة بين عرب الشمال.

٢٠ إن القبائل الجنوبية (القحطانية) التي رحلت الى الشمال، بعد خراب سد مَأْرِب، اكتسبت ثقافة عرب الشمال، ونذكر منها- على سبيل المثال- قبيلة طيِّئ، فهي إحدي فروع قبيلة مَذْحِج القحطانية الكبري، ونذكر قبيلتي (الأَوْس والخَزْرَج) في يَثْرِب- سمّيت (المدينة) في الإسلام- فهما تنتسبان الى قبيلة الأَزْد القحطانية الكبري، وكذلك المَناذِرَة أصحاب الحِيرة في جنوب غربي العراق، والغَساسِنَة في جنوبي بلاد الشام.

٣٠ لم يُلغ الإسلام النظام القبلي، وبتعبير آخر: لم يُلغ الجنسية القبلية، وإنما أوجد الى جانبها جنسية أوسع وأشمل هي الجنسية الإسلامية، وهذا يعني أن كل قبيلة احتفظت بتراثها الشفوي؛ أي بتاريخها الخاص، وبه كانت تُعرف عند القبائل الأخرى.

٤٠ صارت القبائل أكثر حرصاً على تاريخها في القرن الأول الهجري، لسببين: الأول انتظام أبناء كل قبيلة تحت رايتها في الغزوات والفتوحات الإسلامية، لبثّ روح التنافس في ميادين الحروب. والثاني قيام الخليفة الثاني عمر بن الخَطّاب بإحداث (الديوان)، وكانت مهمة القائمين على (الديوان) تسجيل أسماء أفراد كل قبيلة في سجل خاص، بقصد إحصائهم حيناً، وتوزيع حصصهم المالية من بيت المال ومن الغنائم حيناً آخر.

وفي كنف هذا التغيير الكبير الذي أحدثه الإسلام في المجتمع العربي، ولحاجة كل قبيلة الى التفاخر بمآثرها في خضمّ الفتوحات من ناحية، وخلال الصراعات المذهبية والسياسية من ناحية أخرى، نشطت الروايات التاريخية، ولاقت رواجاً كبيراً، ويذكر هاملتون جِبْ أن:

"نشاط النسّابين، الذي قوي حين استُحدث الديوان، وحين تضاربت مصالح الأحزاب العربية المتنافسة، بلغ في الفترة الأموية حداً اضطرب معه علم الأنساب كله"[١] .

---

١٠ هاملتون جب: دراسات في حضارة الإسلام، ص ١٤٦ .

وكانت النتيجة أن روايات النسّابين دُوِّنت مدمَجةً ضمناً في الأحداث التي واكبت ظهور الإسلام وانتصاره داخل شبه الجزيرة العربية، وعلى الصعيد الإقليمي، ولا شك في أن تدوين القرآن والأحاديث النبوية كان من جملة العوامل المساعدة على البدء بتدوين أخبار العرب، وظهور الكتابات التاريخية في المجتمع العربي.

**رحلة الى البدايات:**

لكن كيف كانت تلك الكتابات التاريخية؟

إن أقدم المؤرخين العرب الذين صنّفوا كتباً في التاريخ، وذكرتهم المصادر الإسلامية، رجلان اثنان: عُبَيْد بن شَرِيَّة الجُرْهُمي ( ت نحو ٦٧ هـ - نحو ٦٨٦ م)، ووَهْب بن مُنَبِّه (ت ١١٤ هـ - ٧٣٢ م)، وقد ذكر هاملتون جِب أن كتابات هذين المؤرخين: "برهان ساطع على أن العرب الأُوَل كانوا يفتقرون الى الحس والمنظور التاريخيين، حتى عندما يتطرقان الى ذكر أحداث تكاد تكون معاصرة لهما. ومع هذا فقد تقبلّت الأجيال المتأخرة أكثر ما كتباه، وأدخله المؤرخون وغيرهم من المؤلفين في كتبهم. وكان ابن إسحاق ممّن رووا عن عُبيد، ... حتى الطَّبَري- وهو يعدّ فريداً في ميدان التأليف الديني- استمد في تفسيره الكبير للقرآن، كثيراً من أقاويل وهب بن مُنَبِّه ... وهكذا بقيت هذه الأساطير عنصراً مخالفاً للمنطق في ميدان التدوين التاريخي العربي كله، فكانت عقبة في سبيل نشوء ملكة النقد، وفي الوصول الى أيّ فهم واضح للتاريخ القديم"[1] .

أجل، هكذا كان شأن التدوين التاريخي في القرن الأول الهجري، وجدير بالذكر أن المؤرخين لم يُرجعوا الروايات الدائرة حول أصل الكرد الى أيّ من هذين المؤرخين، وإنما أرجعوا بعضها الى اثنين من مشاهير علماء النسب العرب:

- الأول هو ابن الكَلْبي، محمد بن السائب بن بِشْر بن عمرو بن الحارث الكَلْبي، أبو النَّضْر ويُعرف بـ (ابن السائب الكَلْبي) (ت ١٤٦ هـ - ٧٦٣ م)، نسّابة، راوية، عالم بالتفسير والأخبار وأيام العرب، من أهل الكوفة، مولده ووفاته فيها، وهو من قبيلة (كَلْب) اليمنية[2] .

---

١. المرجع السابق، ص ١٤٤- ١٤٥ .

٢. ابن النديم: الفهرست، ١/ ١٦٧، والزركلي: الأعلام، ٨/ ١٣٣ .

–و الثاني هو أبو اليَقْظان، واسمه عامر بن حَفْص، واشتهر بلقب سُحَيْم لسواد لونه، توفي سنة (١٧٠ هـ) بحسب ابن النَّديم، وسنة (١٩٠ هـ - ٨٠٦ م) حسبما جاء في الأعلام للزِّركلي، وله كتب، منها (أخبار تَمِيم) و(كتاب النَّسَب الكبير)، وقد وُصف بأنه " ثقةٌ فيما يرويه "[١] .

وقد مر أن الزَّبِيدي نقل ما يلي: "وقال أبو اليقظان: هو كُرْدُ بن عمرو بن عامر بن رَبِيعَةَ بن عامر بن صَعْصَعَةَ " . ثم أورد الزَّبِيدي ما يلي: "أمّا الأكرادُ فقال ابن دُرَيْدٍ في الجَمْهَرة: الكُرْدُ أَبو هذا الجِيلِ الذين يُسمَّوْن بالأكراد. فزعمَ أبو اليَقْظان أنّه كُرْدُ بن عمرو بن عامر بن ربيعة بن عامر بن صَعْصَعَةَ. وقال ابن الكلبي: هو كُرْد بن عمرو مُزَيْقِياءَ . وقعوا في ناحية الشَّمال لمَّا كان سَيْلُ العَرِم، وتَفَرقَ أَهلُ اليَمن أَيْدِي سَبَأ"[٢] .

ومر قبل قليل أن ابن الكلبي توفّي سنة (١٤٦ هـ)، وأن أبا اليقظان توفّي سنة (١٧٠ هـ) أو سنة (١٩٠ هـ)، وهذا يعني أن أقدم خبر مدوّن عن أصل الكرد، في التراث العربي، يرجع الى حوالي منتصف القرن الثاني الهجري، أما قبل ذلك، أي طوال القرن الأول الهجري، فلم يصلنا شيء مدوّن، ولكن ما لا شك فيه أن كلاً من ابن الكلبي وأبي اليقظان قد اقتبس روايته من مصدر سابق عليه، وقد يكون لكل من عُبَيْد بن شَرِيَّة الجُرْهُمي ووَهْب بن مُنَبِّه علاقة بتلك الرواية وانتشارها بعدئذ بين علماء الأنساب، وخاصة أنهما كانا من المصنّفين، وقد يكون مصدر الرواية شخصاً آخر غير هذين المؤرخين.

والمهم أن تسلسل الرواية الخاصة بأصل الكرد يقف عند ابن الكلبي وأبي اليقظان؛ هذا مع العلم أن النخب الثقافية العربية، متمثّلةً في الصحابة والتابعين، ما كانوا يجهلون الكرد، فقد كان من الصحابة جابان الكردي، وكان بين التابعين أكثر من شخصية كردية، أبرزها مَيمون الكردي ابن جابان المذكور، وكان حيّاً في أواخر القرن الأول الهجري[٣] .

---

١. ابن النديم: الفهرست، ١٦٥/١ - ١٦٦، والزركلي: الأعلام، ٣٥٠/٣ .

٢. الزبيدي: تاج العروس، مادة (كرد).

٣. انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٢٣٦/٣ . ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب، ج ٢، باب السين والراء. وانظر أحمد الخليل: تاريخ الكرد في الحضارة الإسلامية، ص ١٥١ - ١٥٣ .

**نقد الروايات:**

وثمة ثلاثة تساؤلات جديرة بالإهتمام.

التساؤل الأول: لماذا تأخر شيوع ذكر نسبة الكرد الى العرب طوال قرن ونصف من الزمان تقريباً؟ هل للمسألة علاقة بالصراعات التي نشبت في المجتمع الإسلامي حينذاك؟ إنها كانت صراعات لها أوجه ثلاثة، لكنها كانت تتقاطع وتتشابك على نحو عجيب:

- الوجه الأول هو الصراع بين السلطة الأموية ومعارضيها من الشيعة والخوارج.

- والوجه الثاني هو الصراع بين العرب العدنانيين والعرب القحطانيين، وكان حكّام بني أمية يجدّدون ذلك الصراع، ويستقوون كل مرة بفريق لإخضاع الفريق الآخر.

- والوجه الثالث هو الصراع بين المسلمين الموالي (غير العرب) وبين السلطات الأموية ذات العصبية العربية.

ولمزيد من التوضيح فلنعد الى الرواية الأقدم؛ وهي رواية ابن الكلبي، فقد توفّي هذا النسّابة سنة (١٤٦ هـ)، والأرجح أن روايته لهذا الخبر لم تكن قبيل وفاته مباشرة، وإنما قد تعود الى ما قبل ذلك بعقد أو بعقدين وربما أكثر، وضروري هنا أن نأخذ في الحسبان أن هذا النسّابة عاصر أحداث الثورة العباسية ضد الدولة الأموية، وتكللت تلك الثورة بالنجاح سنة (١٣٢ هـ)، أي قبيل وفاة ابن الكلبي بـ (١٤) سنة فقط.

ودعونا ننقّب أكثر في سيرة ابن الكلبي، فقد جاء في المصادر أنه "شَهد وقعة دَير الجَماجم مع ابن الأشْعَث "[١] ، وكانت تلك الوقعة سنة (٨٢ هـ)، وابن الأشعث هذا هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكِنْدي (قتل سنة ٨٥ هـ - ٧٠٤ م)، وكان قائد الجيش الأموي المقاتل في الجبهة الشرقية ضد الترك، لكنه اختلف مع أميره الحجّاج بن يوسف الثقفي والي بني أمية على العراق وفارس، وقاد ثورة خطيرة ضده وضد الحكم الأموي سنة (٨١ هـ، أو ٨٢ هـ)، وقاتل معه كثيرون من الموالي، ودفع عبدالرحمن حياته ثمناً لتلك الثورة.

ولعل الأمر يصبح أكثر وضوحاً إذا علمنا أن قبيلة كِنْدة يمنية (قحطانية)، وأن ابن

---

٠١ الزركلي: الأعلام، ١٣٣/٨ .

الكلبي ينتمي الى قبيلة كَلْب، وهي يمنية (قحطانية) أيضاً، وأن بني أمية وواليهم الحجّاج هم من عرب الشمال (بنو عدنان)، وهكذا فإن هوى ابن الكلبي كان يمانياً، وكان من معارضي الحكم الأموي، وكان من الموالين للثورة العباسية ضد دولة بني أمية، حسبما يُفهم مما ذكره ابن النديم في كتابه (الفهرست)[1] .

ونصبح أكثر تفهّماً لإهتمام ابن الكَلْبي (اليماني) بالكرد حينما نعرف الجغرافيا التي تمركزت فيها ثورة ابن الأشعث؛ إنها منطقة جنوب شرقي العراق حالياً، وجنوب غربي إيران، وكانت بعض مناطق جنوبي كردستان تشكل قسماً كبيراً من الجغرافيا التي اندلعت فيها تلك الثورة.

وبتحديد أكثر دقة: إن قسماً كبيراً من جغرافيا الثورة هي منطقة الكرد اللور (يسمّون الآن الفَيْلي)، وهي تتاخم الأهواز (خوزستان) جنوباً، ومنطقة الجبال (إقليم الجبال) شمالاً، وذكر كل من الطَّبَري وابن الأثير أن ابن الأشعث خسر إحدي معاركه في السوس (سوسا) أمام عمارة بن تميم قائد جيش الحجّاج، فانهزم ومن معه، "وساروا حتى أتوا سابُور، واجتمع إليه الأكراد، فقاتلهم عُمارة قتالاً شديداً على العَقَبة (المضيق)، فجُرح عُمارة وكثير من أصحابه، وانهزم عُمارة وترك لهم العَقَبة"[2] .

والتساؤل الثاني: ماذا وراء الاختلاف في نسبة الكرد الى الفرع القحطاني تارة والى الفرع العدناني تارة أخرى؟ هل كان ثمة تنافس بين نسّابي الفرعين لتنسيب الكرد الى هذا الفرع دون ذاك؟ وما سبب ذلك التنافس؟

هنا لا بد من التدقيق في رواية الزَّبِيدي السابقة الذكر، فالملاحظة الأولى أن ابن الكلبي ينسب الكرد الى الفرع القحطاني (الجنوب)، أما أبو اليقظان فينسبهم الى الفرع العدناني (الشمال). ومرّ أن ابن الكلبي قحطاني، وبمراجعة سيرة أبي اليقظان يتضح أنه من الفرع العدناني، وكان النسّابة الحامي لتواريخ ذلك الفرع، وهذا واضح في مؤلفاته، فمنها: كتاب حلف تميم بعضها بعضاً، وكتاب أخبار تميم، وكتاب نسب خِنْدِف وأخبارها، وتَميم وخِنْدِف من القبائل المُضَرية العدنانية.

وهكذا بات واضحاً أن التنافس على تنسيب الكرد الى العرب العدنانيين والى العرب القحطانيين كان قائماً، ونصبح أقرب الى استكشاف أبعاد تلك المنافسة حينما نعود

---

١. ابن النديم: الفهرست، ١٦٧/١ .

٢. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٤/، ٤٨٤ وانظر تاريخ الطبري، ٣٦٨/٦ .

الى مـا رواه الزَّبِيـدي مـرة ثـانيـة، ونقـرأه بمزيد من الدقـة، فـالزَّبِيـدي نـفسـه يمني (قحطاني)، لكنه توفي سنة (١٢٠٥ هـ - ١٧٩٠م)، أي أنه من أبناء القرن الثامن عشر الميلادي، وحينذاك كانت حدّة التنافس العدناني/ القحطاني قد همدت، على النقيض مما كـان عليـه الأمر فـي القرون الـهجـرية الثـلاثة الأولى، ولذا نقل الزَّبِيـدي رواية أبي اليقظان بأمانة، من غير تشكيك فيها، فقال: "وقال أبو اليقظان: ...".

والأمر مختلف في الرواية التي سـاقها ابن دُرَيْد، وقد أوردها الزَّبِيدي أيضاً بأمانة، فقد قال ابن دُريد: "فزعمَ أَبو اليَقْظانِ..... وقال ابن الكلبِيِّ: ...". والفرق كبير بين دلالة كلمة (قال) ودلالة كلمة (زعم)، فالأولى خبر حيادي يحتمل الصدق والكذب، أما الثانية فتحمل في طيّاتها عناصر التشكيك والاتهام بالكذب، ومن الأمثال العربية القديمة (زعموا: مَطِيَّةُ الكذب)؛ أي إذا قيل: (زعم فلان كذا) فذلك تنبيه الى أنه يكذب. والغريب أن ابن دُرَيد لم يستخدم مع ابن الكلبي الكلمة الاتهامية (زعم)، وإنما استخدم الكلمة الحيادية (قال).

ولا نعرف سبب هذا التمييز إلا إذا عرفنا من هو ابن دُرَيْد؛ إنه محمد بن الحسن بن دُرَيْد الأزْدي (٢٢٣ - ٣٢١ هـ ، ٨٣٨ - ٩٣٣ م)، من أزْد عُمان من قحطان، وكنيته أبو بكر، ولد في البصرة، وانتقل الى عُمان، فأقام بها اثني عشر عاماً، وعاد الى البصرة، وهو من أئمة اللغة والأدب، وكانوا يقولون: ابن دريد أشعر العلماء وأعلم الشعراء.

وهكذا فقد بطل العجب إذ عُرف السبب، فابن دُريد القحطاني أمضي معظم حياته في القرن الثالث الهجري، وهو القرن الذي كانت فيه آثار التنافس العدناني القحطاني مـا تزال قـائمـة في المجـتمـع العربي، ولذا فـهـو منحـاز الى ابن الكلبي القـحطاني، ومتحـامل على أبي اليـقظان العدناني، رغم أن هذا الأخير كـان مـعروفاً بأنه ثقة في رواياته كما مر.

وظل التنافس على تنسيب الكرد قائماً الى القرن الرابع الهجري، وأوضح مثال على ذلك ما قاله المسعودي بهذا الشأن، فبعد أن استعرض الآراء المختلفة بشأن أصل الكرد، ختم الكلام بعبارة يقينية واضحة، فقال مفصحاً عن رأيه: "وما قلنا عن الأكراد فـالأشـهـر عند النـاس، والأصحّ من أنسـابهم أنهم من ولد رَبيعـة بن نِزار". وهكذا نفى المسعودي أن يكون الكرد من الفرع القحطاني، وجعلهم من الفرع العدناني حصراً.

وهذا يستدعي أن نتساءل: من هو المسعودي؟ إنه على بن الحسين بن على (ت ٣٤٦

هـ - ٩٥٧ م)، وهو مؤرخ قدير وصفه هاملتون جِبْ بقوله: "ومن حق المسعودي أن يُعَدّ من أعظم المؤرخين العرب"[1] ، والمسعودي عربي قحّ من ذرّية الصحابي المشهور عبد الله بن مسعود، وينتمي عبد الله بن مسعود الى القبيلة المُضرية العدنانية هُذَيْل؛ وهكذا نجد أن المسعودي يصنّف الكرد في قائمة قومه العدنانيين، وليس في قائمة القحطانيين، وهذا دليل على أن ذيول التنافس القبلي بين الفرعين الكبيرين كانت ما تزال حية في عهده (القرن الرابع الهجري).

**ظاهرة فريدة:**

والمثير في الموضوع أن الروايات المنسوبة- حول أصل الكرد- الى النسّابة العرب الأقحاح روايات لا تخرج عن حدود الواقعية، وهي بعيدة كل البعد عن الجانب الخرافي الأسطوري، كما أنها خالية من كل ألوان الدس والتحامل والتشويه؛ فالكرد في هذه الروايات بشر عاديون، ينتمون الى بني آدم، وليسوا من الجن، كما أنهم ليسوا كائنات مستنسَخة مشوَّهة، نصفها آدمي (من خلال الأمهات)، ونصفها الآخر شيطاني (من خلال الشيطان المعروف بالجَسَد).

ولا تقف دلالات روايات النسّابة العرب عند هذا الحد بشأن الكرد، وإنما توحي، على نحو واضح، بأن الكرد أناس غير رديئين، بل توحي بأنهم أناس ممتازون، وجديرون بأن يكونوا من العرب، سواء أكانوا عدنانيين أم قحطانيين، وسواء أكانوا من مُضَر أم من رَبيعة. بل دعوني أقل: إن إقبال النسّابة العرب على تنسيب الكرد الى الأصل العربي كان- وَفق أعراف ذلك العصر- نوعاً من التشريف والتكريم للكرد، بلى، كان ذلك امتيازاً يدعو الى الفخار.

ولا تتضح أبعاد ذلك التشريف والتكريم إلا إذا استكشفنا المُناخات السياسية والثقافية والاجتماعية التي كانت سائدة حينذاك، فالعرب- أقصد الأقحاح المعروفين بقبائلهم وأنسابهم، وليس عرب اللغة- كانوا الأمة التي أنجبت النبي محمداً، وبلغتهم كان القرآن وكان الحديث النبوي وكانت سائر أنواع الإنتاج الثقافي، ومنهم كان الخليفة (أمير المؤمنين)، ومنهم كان السادة والقادة وكبار الولاة، في حين كانت بقية الشعوب الإسلامية تسمّي (الموالي)، ومن يرجع الى مصادر التراث العربي قبل

---

١. هاملتون جب: دراسات في حضارة الإسلام، ص ١٥٥ .

الإسلام وفي الإسلام يدرك كم كان العربي معتزاً بهويته القومية، وكم كان ينظر الى (الأعاجم) بإستعلاء، وحسبي أن أذكر الأدلة الآتية:

قدَّم نافعُ بن جُبَيْر بن مُطْعِم (قرشي) رجلاً من أهل الموالي يُصلِّي به، فقالوا له في ذلك؛ فقال: إنَّما أردتُ أن أتواضع لله بالصَّلاة خلفَه. وكان نافعُ بن جُبَيْر هذا إذا مَرَّت به جِنازة قال: من هذا؟ فإذا قالوا: قُرَشي؛ قال: وا قَوْماه! وإذا قالوا: عربيّ؛ قال: وا بلدَتاه! وإذا قالوا: مَوْلي؛ قال: هو مالُ الله يَأخذ ما شاء، ويَدَع ما شاء "[1] .

تزوّج عبد الله بن كَثِير، مولي بني مَخْزُوم، من امرأة عربية، وهو يحبها وهي تحبه، لكن حاكم العراق مُصْعَب بن الزُّبَيْر ابن العَوّام فرّق بينهما، لا لشيء، سوى أنها عربية، وأنه من الموالي[2] .

أراد أحد كبار الدَّهاقِين (وجهاء القري في بلاد فارس) أن يتزوج امرأة من باهِلَة، وكانت باهِلة من أصغر قبائل العرب وأكثرها ضَعَة، فرفضت القبيلة طلبه. ففكر الدِّهْقان في سَبيها، وأثارت هذه الحادثة حرباً كبيرة انتصر فيها العرب[3] .

كانت العرب، الى أن عادت الدولة العباسية، إذا أقبل العربي من السوق ومعه شيء، فرأي مولي دفعه إليه ليحمله عنه، فلا يمتنع، ولا السلطان يغيّر (يستنكر) عليه، وكان إذا لقيه راكباً وأراد أن ينزل فعل، وإذا رغب أحد في تزوّج مولاة خَطبها الى مولاها دون أبيها وجدّها "[4] .

إن ما أوردناه هو قليل مما جاء في التراث العربي حول موقف العرب من الموالي، فكيف تجاوز النسّابة الفوارق التي كانت مرسومة بين العرب والموالي اجتماعياً؟ وكيف تجرّأوا على إدخال الكرد الى ملكوت التميّز العربي حينذاك؟ وقد فعلوا ذلك إزاء البربر (الأمازيغ) أيضاً، ولم يفعلوه لا إزاء النبط (سكان جنوبي العراق)، ولا إزاء الفرس والترك، ولا ننس في الوقت نفسه أن الكرد - قبل الإسلام- كانوا يختلفون عن العرب لغة وديناً، ومع ذلك كان النسابة والمؤرخون يبحثون عن العوامل التي تبرر ذلك الاختلاف، ونذكر هنا ما نقله المسعودي قائلاً:

---

١. ابن عبد ربّه: العقد الفريد، ٤١٢/٣ - ٤١٣ .

٢. محمد عمارة: فجر اليقظة العربية، ص ٩٦ .

٣. زاهية قدورة: الشعوبية، ص ٥٠ .

٤. أحمد أمين: ضحى الإسلام، ٢٥/١ .

"وقد اعتصموا في الجبال طلباً للمياه والمراعي، فحالوا عن اللغة العربية لما جاورهم من الأمم".

وللمرء أن يتساءل: ما أسباب التنافس بين نسّابي عرب الجنوب ونسّابي عرب الشمال تارة، وبين نسّابي عرب الشمال من مُضَر ورَبيعة تارة أخرى، على تنسيب الكرد الى هذه الفرع أو الى هذه القبيلة؟

الحقيقة أن الأسباب غير معروفة بدقة، لأن أصحاب الروايات لم يذكروها، وليس لنا إلاّ أن نلجأ فيها الى الظن والترجيح، وربما لأن الكرد كانوا يشكّلون قوة قتالية هامة، سواء أكان ذلك خلال الصراع بين الشيعة والدولة الأموية، أو بين العباسيين والدولة الأموية، وكانوا يسكنون جغرافيا واسعة، وكان كل طرف من الأطراف العربية المتنافسة والمتصارعة حريصاً على جذب تلك القوة الى جانبه.

وأخيراً يبقي التساؤل الثالث والأهم، وهو:

ما مدى صحة نسبة الكرد الى العرب؟

## ٩

# هل الكرد من أصل عربي؟

### عَود على بَدء:

مرّ سابقاً أن نسبة الكرد الى العرب أُسندت الى اثنين من أشهر النسابين العرب، ومن أقدمهما في الإسلام، هما ابن الكَلْبي وأبو اليَقْظان (عاشا في القرن الثاني الهجري)، وعلمنا أيضاً أنه كان ثمة تنافس واضح بين نسّابي الفرع القحطاني ونسّابي الفرع العدناني في هذا المجال، بل وصل التنافس الى داخل الدائرة العدنانية حول تنسيب الكرد الى قبائل مُضَر تارة والى قبائل رَبيعة تارة أخرى. ولم يقف التنافس عند هذا الحد، وإنما وصل الى داخل القبائل المُضَرية نفسها، فمن الرواة من نسب الكرد الى قريش (من أحفاد إلياس بن مُضَر)، ومنهم من نسب الكرد الى عامر بن صَعْصَعَة (من أحفاد قَيْس عَيْلان بن مُضَر).

ووجدنا مؤرخاً عربياً عدنانياً قحّاً، هو المسعودي (ت ٣٤٦ هـ- ٩٥٧ م)، لم يتردد في تدوين الروايات التي نسبت الكرد الى العرب، والمثير أن هذا المؤرخ القدير بدأ بسرد الروايات التي نسبت الكرد الى العرب، ثم ذكر الروايات التي نسبت الكرد الى أصول أسطورية خرافية، وعلّق على جميع ذلك بقوله: "وما قلنا عن الأكراد فالأشهر عند الناس، والأصح من أنسابهم أنهم من ولد ربيعة بن نزار"[١]؛ أي أن الكرد- بحسب رأي المسعودي- عرب عدنانيون.

ونستخلص من تعليق المسعودي أموراً ثلاثة:

- الأول: أن المسعودي حكم بنسبة الكرد الى العرب العدنانيين، والى فرع ربيعة خاصة.

- والثاني: أن المسعودي شكّك في الروايات التي نسبت الكرد الى الفرع القحطاني، والى الجن، والى الشيطان (الجَسَد).

---

١. المسعودي: مروج الذهب، ٢/١٢٤ .

- والثالث: صحيح أن المسعودي لم يذكر الأدلة التاريخية التي بني عليها حكمه، وساق بناء عليها عبارته الفاصلة " والأصح ". لكن لا نعتقد أن مؤرخاً مثله يتخذ هذا الحكم إلاّ بعد أن يكون قد قارن بين الروايات المختلفة، ووجد من المبررات ما يحمله على ترجيح رواية على أخرى.

وميزة المسعودي أنه لخّص في كتابه جميع الروايات السابقة على عصره والمعاصرة له؛ أي أنه تتبّع الروايات والأقوال الخاصة بأصل الكرد طوال ثلاثة قرون، وغربلها، وصنّفها، ويبدو أن كل من تناول الحديث عن أصل الكرد بعد المسعودي إنما اقتبس منه، أو اقتبس من المصادر ذاتها التي اقتبس منها المسعودي، ولم يأت مؤرخو القرن الخامس الهجري ومَن جاء بعدهم بجديد في هذا المجال إلا نادراً.

ومن تلك الروايات النادرة ما نقله الزَّبِيدي ( ت ١٢٠٥ هـ - ١٧٩٠ م) في كتابه (تاج العروس)، إذ قال: "وقيل: عصى قوم من العرب سليمانَ عليه السلام، وهربوا الى العجم، فوقعوا في جَوارٍ كان اشتراها رجل لسليمان عليه السلام، فتناسلت منها الأكراد"[١] . وهذه رواية متأخرة جداً عن عصر المسعودي.

ولا ننس أن الزَّبِيدي لم يذكر المصدر الذي استقى منه هذه الرواية، واكتفي بعبارة (وقيل...)، لكن الجديد في روايته أنها نقّحت أصول الكرد من الجانب المغرق في الخرافية؛ أقصد التنسيب الى الجن والى الشيطان (الجَسَد)، فأجداد الكرد في هذه الرواية ليسوا جناً ولا شياطين، وإنما هم بشر عاديون من العرب، تزوّجوا - على نحو غير شرعي- من جواري النبي العبراني سليمان؛ إذ هذا هو المفهوم من عبارة (وقعوا في جَوارٍ)، ولا تذكر الرواية هويّة أولئك الجواري، والمؤكد أنهن غير عربيات، وإلا لنصّت الرواية على ذلك، ونخرج من هذه الرواية بأمرين:

- الأمر الأول: أن الكرد من سلالة عربية، لكنهم ليسوا عرباً أقحاحاً، وإنما هم من العرب الهُجَناء، قال ابن منظور الإفريقي: "والهَجِينُ العربيّ ابنُ الأمَة لأنه مَعِيبٌ... الهَجِين الذي أبوه خير من أُمه ... قيل لولد العربيّ من غير العَربية هَجين... الهجين من الخيل الذي ولدته بِرْذَوْنة من حِصَانٍ عربي... الفَحل الهَجين إذا أَراد أَن يَضرِب كرائم الإِبل قَرَعُوا أَنفه بعصاً أَو غيرها ليَرْتَدّ عنها ويتركها"[٢] . وهكذا فالمراد من هذه الرواية

---

١. الزبيدي: تاج العروس، مادة (كرد).

٢. ابن منظور: لسان العرب، مادة (هجن). البِرْذَوْنة: فرس غير أصيلة. يضرب: يلقح. كرائم الإبل: الأصيلة.

أن الكرد عرب، لكنهم عرب من الدرجة الثانية.

- والأمر الثاني: أن الكرد ليسوا عرباً هجناء فقط، وإنما هم عرب عصاة على النبي سليمان أيضاً، وهكذا فقد جمعوا بين افتقارهم الى الشرعية المجتمعية (الأصالة الكاملة)، وافتقارهم الى الشرعية الدينية (التقوى، وطاعة النبي سليمان).

وبعد هذا كله تري أين الصوت الكردي في زحمة هذه الآراء؟

## ماذا قالت النخب الكردية؟

الحقيقة أن الصوت الكردي موجود أيضاً، وثمة ستة من الكرد القدماء الذين تناولوا علاقة النسب بين الكرد والعرب.

أما الأول والأقدم فهو الشاعر الحسين بن داود البَشْنَوي (ت ٤٦٥ هـ - ١٠٧٤ م)، قال العماد الأصفهاني:

"ومن الأكراد الفضلاء الحسين بن داود البَشْنَويّ، ابنُ عمِّ صاحب فَنَك، عصرُه قديم، وبيتُه كريم، ... توفّي في سنة خمس وستين وأربعمائة، وله ديوان كبير، وشعرٌ كثير"[١] .

وبخصوص قلعة فَنَك قال ياقوت الحموي:

"وفَنَك أيضاً قلعة حصينة منيعة لأكراد البَشْنَويّة قرب جزيرة ابن عُمر (جزيرة بوتان)، بينهما نحو من فَرْسَخين (١١ كم تقريباً)، ولا يقدر صاحب الجزيرة ولا غيره – مع مخالطتهم للبلاد– عليها، وهي بيد هؤلاءِ الأكراد منذ سنين كثيرة نحو الثلثمائة سنة، وفيهم مُرُوّة وعصبية، ويحمون من يلتجئ إليهم، ويُحسنون إليه"[٢] .

وكان الشاعر الحسين بن داود البشنوي معاصراً لأحداث نشأة الإمارة الدُّوستكية الكردية– عُرفت بعدئذ باسم (الدولة المروانية)– وخاصة كفاح الأمير الكردي باز (باد) بن دُوسْتِك الحَميدي ضد الدول البويهية وحلفائهم الحَمْدانيين والعُقَيْليين، وكان الكرد البَشْنوية– أصحاب قلعة فَنَك– من أنصاره، ووصف هذا الشاعر معركة باجُلايا التي دارت بين باز وخصومه، وقُتل فيها[٣] . والذي يهمنا في الأمر أن الحسين بن داود البَشْنَوي يقول في بيتين من قصيدة له:

---

١٠ العماد الأصفهاني: خريدة القصر، ٥٤١/٢ .

٢٠ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٣١٦/٤ - ٣١٥ .

٣٠ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٩/ ٣٥ . عمر رضا كحّالة: معجم المؤلفين، ٣٨٢/١٣ .

إن يَعْرِف الناسُ رَسْمَ الذُّلِّ في جهةٍ فالذلُّ عنـد بني مِهْرانَ مجهـــولُ
نحن الذُّؤابةُ من كُرْدِ بنِ صَعْصَعةٍ من نَسْلِ قيسٍ لنا في المَحْتِدِ الطُّولُ[1]

ومن الواضح أن البشنوي يفتخر بإنتساب قومه الى قبيلة مِهْران (أي الشمسانيون، نسبة الى مِهْر اسم الشمس)، والأرجح أنها القبيلة الكردية المعروفة الآن باسم (ميران= مِهران)، ويبدو أن قبيلة (بَشْنَوي) فرع منها، ولا يكتفي الشاعر البشنوي بذلك، بل يفتخر بأن قومه سادة بني (كُرْد بن صَعْصَعَة)، من فرع قَيس عَيْلان العدناني (عرب الشمال)، وهذا يعني أنه كان مطّلعاً على الروايات التي نسبت الكرد الى العرب، وأنه يقر بأن الكرد عرب عدنانيون.

ومرة أخرى نسب البشنوي نفسه الى فرع قيس من العرب العدنانيين (عرب الشمال)، وذلك في قصيدة أفصح فيها عن تشيّعه، وعن إخلاصه لآل البيت، وهاجم الذين اغتصبوا حق آل البيت في الخلافة، وهو يقصد خلفاء بني العباس، وسمّاهم (النَّواصِب)، وهو المصطلح الذي يطلقه الشيعة على من لا يقر من أهل السُنّة بأحقية على بن أبي طالب وذريته من فاطمة بنت النبي محمد بالخلافة، قال البشنوي:

أآلُ طــهَ بلا نصيـــبٍ ودولةُ النَّصْبِ في انتصابِ؟!
إنْ لم أُجرِّد لهـا حُسامي فلست من قيسٍ في اللُّبابِ
مَفاخِرِ الكُرْدِ في جُدودي ونَخوةُ العُرْبِ في انتسابي[2]

ويبدو أن مسألة انتساب الكرد الى العرب غير واضحة في ذهن البشنوي، أو ربما أن له تصوراً معيّناً لم نفهمه، فهو ينتسب الى عرب قيس العدنانيين، وفي الوقت نفسه يجمع في نسبه بين الكرد والعرب، وكأن الكرد غير العرب، وهذا مخالف لما سبق أن قاله من أن قومه ينتسبون الى كرد بن صَعْصَعَة، تري هل كان يقصد أن قومه جمعوا بين أمجاد الأصل (العرب) وأمجاد الفرع (الكرد) معاً؟ ربما.

وأما الكردي الثاني الذي تناول مسألة نسبة الكرد الى العرب فهو الملك الأيوبي المعزّ إسماعيل بن طُغْتِكين (قتل سنة ٥٩٨ هـ - ١٢٠٢ م)، لكن جدير بالانتباه أن الرجل نسب قومه الأيوبيين فقط الى العرب، والى قريش على وجه التحديد، ولم يدّع أن الكرد

---

١. العماد الأصفهاني: خريدة القصر، ٥٤٢/٢ . والذؤابة: الرأس والقمّة.
٢. المرجع السابق، ٥٤٢/٢ .

كلهم عرب، فقد ذكر ابن الأثير في أن إسماعيل بن سيف الإسلام طُغتكِين بن أيوب صار ملك اليمن بعد وفاة أبيه طُغتكين أخي صلاح الدين، وأضاف قائلاً:

"وكان أهوجَ، كثيرَ التخليط، بحيث إنه ادّعى أنه من قريش من بني أميّة، وخطب لنفسه بالخلافة، وتلقّب بالهادي، فلما سمع عمّه الملك العادل (أخو صلاح الدين) ذلك ساءه وأهمّه، وكتب إليه يلومه ويوبّخه، ويأمره بالعَوْد الى نسبه الصحيح، ويترك ما ارتكبه مما يضحك الناس منه، فلم يلتفت إليه، ولم يرجع وبقي كذلك، وانضاف الى ذلك أنه أساء السيرة مع أجناده وأمرائه، فوثبوا عليه وقتلوه، وملّكوا عليهم أميراً من مماليك أبيه"[1] .

وقال المقريزي في أحداث سنة (٥٩٤ هـ):

"ادّعى معزّ الدين إسماعيل بن سيف الإسلام طُغْتكِين ملك اليمن الإلهيةَ نصف نهار، وكتب كتاباً وأرّخه من مقرّ الإلهية، ثم رجع عن ذلك، وادّعى الخلافة، وزعم أنه من بني أُميّة، ودعا لنفسه في سائر مملكته بالخلافة، وقطع الدعاءَ من الخُطبة لبني العبّاس"[2] .

وقال الزركلي:

"المعزّ الأيوبي: إسماعيل بن طُغتكِين بن أيوب، سلطان اليمن، خرج في زمان أبيه عن مذهب أهل السُّنّة في اليمن، واتّبع مذهب الإسماعيلية، فطرده أبوه، فخرج من زَبِيد يريد بغداد، فتوفّي أبوه عقب خروجه (سنة ٥٩٣ هـ)، فعاد قبل أن يبتعد، ودخل زَبيداً فمكث يوماً، وخرج الى تَعِز، فأظهر فيها مذهبه، وقَوِيت به الإسماعيلية. وكان فارساً سفّاكاً للدماء، شاعراً، وقيل: خولط في عقله، فادّعي أنه قُرَشي النسب، من بني أُميّة، وخوطب بأمير المؤمنين، ثم تألّه، وأمر أن يكتب عنه (صدرت هذه المكاتبة من مقرّ الإلهية)، وبغى وطال ظلمه، الى أن قتله بعض من معه من الأكراد في زَبِيد، ونصبوا رأسه على رمح، وداروا به بلاد اليمن"[3] .

وهكذا نجد أن جميع الروايات تؤكد أن الملك الأيوبي إسماعيل كان صاحب طموح سياسي، وأنه طمح الى منصب الخلافة، وهو منصب خاص بقبيلة قريش العربية حسب أغلب المدارس الفقهية الإسلامية، ووجد أن ثمة عائقاً (ڤيتو) هائلاً يعترض

---

١٠ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ١٢/ ١٣٠ .

٢٠ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ١/١٧٣- ١٧٤ .

٣٠ لزركلي: الأعلام، ١/٣١٦ .

سبيل أحلامه، وهو أن الخليفة لا بد أن يكون عربي النسب، ومن قبيلة قريش، فقرر التغلب على ذلك (الفيتو)، فاختلق لأسرته الأيوبية نسباً عربياً قرشياً أموياً، واختار بني أمية تحديداً لأنهم كان أصحاب الخلافة قبل العباسيين، ولكن الرجل لاقي معارضة شديدة من عمّه الملك العادل، ومن سائر أفراد الأسرة الأيوبية، واستنكروا عليه الانخلاع من أصله الكردي، ولما خالفهم وأصرّ على الاستمرار في مشروعه السياسي الطموح، اتخذوا قرار القضاء عليه.

وأما الكردي الثالث الذي أورد نسبة الكرد الى العرب فهو القاضي المؤرخ ابن خَلِّكان الإرْبِلي (ت ٦٨١ هـ - ١٢٨٢ م)، فقد قال في معرض حديثه عن ترجمة القائد العربي المُهَلَّب بن أبي صُفْرة:

" وحكي أبو عمر ابن عبد البَر صاحب كتاب (الاستيعاب) في كتابه الذي سمّاه (القَصْد والأمَم في أنساب العرب والعجم)، وهو كتاب لطيف الحجم، أن الأكراد من نسل عمرو مُزَيْقِياء"[١] .

وابن عبد البَر هو يوسف بن عبد الله القُرْطُبي (ت ٤٦٣ هـ - ١٠٧١ م)، ولا ريب في أنه قد استقى هذه المعلومة ممن سبقه من النسّابة والمؤرخين، من أمثال المسعودي وغيره، وها نحن نري أن ابن خلّكان قد أورد المعلومة من غير تعليق عليها، مع العلم أنه قاضٍ مؤرخ، ومن منهج القضاة أن يدققوا ويحققوا، وهذا أمر عهدناه منه في مواضع من كتابه (وَفَيات الأعيان)، وكنا نتوقع منه أن يفعل ذلك بشأن هذه المسألة أيضاً، وخاصة أنه كردي، ينتسب الى جعفر بن يحيي بن خالد البَرْمَكي، وكان حريصاً على أن ينقل خبر نسبه البرمكي الكردي الى ابنه موسى، وأكد أن قبيلته التي ينتسب إليها كردية واسمها (زرزْاري- ولد الذئب).

وأما الكردي الرابع الذي ذكر نسبة الكرد الى العرب فهو الملك الأيوبي المؤرخ أبو الفِداء إسماعيل (ت ٧٣٢ هـ - ١٣٣١ م)، إن جدّه الخامس هو شاهِنْشاه أخو السلطان صلاح الدين الأيوبي، ولكن الجدير بالانتباه أن أبا الفداء لم يجزم بانتساب الكرد الى العرب، وإنما نقل بأمانة ما ورد في المصادر، ولم يذكر رأيه في الموضوع، واكتفى بأن قال:

"والفُرس فرق كثيرة، فمنهم الدَّيْلَم، ... ومنهم الجِيل ... ومنهم الكرد،... وقيل: إن

---

١. ابن خلّكان: وفيات الأعيان، ٥/٣٥٧ .

الكرد من العرب، ثم تَنَبّطوا . وقيل: إنهم أعراب العجم"[1] .

وأما الكردي الخامس الذي تناول مسألة تنسيب الكرد الى العرب فهو العلاّمة محمد أفندي الكردي، ولم نجد في المصادر معلومات كافية عنه، ويبدو أنه كان من مشاهير علماء عصره، وإذا أخذنا في الحسبان أن لقب (أفندي) ظهر في عهد الدولة العثمانية، وكان يُطلق على كبار العلماء والموظفين، ويعادل لقب (أستاذ) في عصرنا، فلنا أن نقول:

إنه من علماء الكرد المتأخرين في الدولة العثمانية، وذكر الزَّبِيدي أن العلامة محمد أفندي استقى معلوماته من كتاب (مناهج الفِكَر ومناهج العِبَر) للكُتْبي، وبالعودة الى (كشف الظنون) لحاجي خليفة وجدنا ما يلي:

"مناهج الفِكَر ومناهج العِبَر ... للشيخ جمال الدين محمد بن إبراهيم الوَطْواط الكُتبي الورّاق، المتوفّي سنة ٧١٨ هـ"[2] .

وهكذا لا يبقي شك في أن العلامة محمد أفندي الكردي عاش في القرن الثامن الهجري (١٦ م) أو فيما بعد، وقد رجّح عبّاس العَزّاوي في كتاب (عشائر العراق) أن محمد أفندي المذكور هو محمد بن سليمان الكردي الذي ذكره المُرادي في كتاب (سِلْك الدُّرر)، وأنه توفّي سنة (١١٩٤ هـ - ١٧٨٠م)[3] .

وأورد الزَّبِيدي ذكر العلامة محمد أفندي في (تاج العروس) قائلاً:

"وقد ألّف في نسب الأكراد فاضل عصره العلاّمة محمد أفندي الكردي، وذكر فيه أقوالاً مختلفة بعضُها مصادم للبعض، وخَبَط فيها خَبْط عَشْواء، ورجّح فيه أنه كُرْد بن كنعان بن كُوش بن حام بن نوح، وهم قبائل كثيرة، ولكنهم يرجعون الى أربعة قبائل: السُوران، والكُوران، والكَلْهُور، واللُّر. ثم إنهم يتشعّبون الى شعوب وبطون وقبائل كثيرة لا تُحصى، متغايرة ألسنتهم وأحوالهم[4] .

وأضاف الزَّبِيدي قائلاً:

"ثم قال محمد أفندي المذكور: ... وقيل: عصي قوم من العرب سليمان عليه

---

١ - أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ١/٨٣ .

٢ - حاجي خليفة: كشف الظنون، ٢/١٨٤ .

٣ - عشائر العراق، ١/٢٠١، المرادي: سِلك الدُّرَر في أعيان القرن الثاني عشر، ٤/١١١ .

٤ - الزبيدي: تاج العروس، مادة (كرد).

السلام، وهربوا الى العجم، فوقعوا في جوار كان اشتراها رجل لسليمان عليه السلام، فتناسلت منها الأكراد"[1] .

وخلاصة ما نخرج به مما أورده محمد أفندي أنه كان يمتلك معلومات دقيقة حول الفروع الرئيسة التي يتألف منها الكرد، فذكر (السُوران والطُوران والكَلْهُور واللُّور)، ولعله جعل الكُرْمانْج والسوران فرعاً واحداً، ويبدو أنه ضاع في زحمة الروايات القديمة، ووقع في أسرها، باعتبارها كانت مرتبطة على الغالب بسياق (المقدس)، فجمع بين الأقوال المختلفة والمتباينة، وكانت النتيجة أنه رجّح رأياً مفاده أن الكرد ينتسبون الى "كُرْد بن كنعان بن كُوش بن حام بن نوح"، وبذلك يكون محمد أفندي قد أخرج الكرد من دائرة الانتساب الى العرب والفرس دفعة واحدة، باعتبار أن هذين الشعبين هما من سلالة (سام بن نوح) حسب التصنيف التوراتي، وصنّف الكرد في بني كنعان، ونسبهم من ثَمّ الى حام بن نوح، ولذا حكم عليه الزَّبِيدي بأنه "خَبَط فيها خَبْط عَشْواء".

وأما الكردي السادس الذي أورد نسبة الكرد الى العرب فهو إبراهيم فَصِيح الحَيْدري (ت ١٢٩٩ هـ - ١٨٨١ م)، قال عنه الزركلي: "إبراهيم بن صِبْغة الله بن أسعد الحَيْدري، فَصِيح الدين، ويقال له إبراهيم فصيح، أديب بغدادي المولد والمنشأ والوفاة، كردي الأصل، تولّي نيابة القضاء ببغداد، وألّف كتباً"[2] .

وقد قال عبّاس العَزّاوي في كتابه (عشائر العراق):

"ومن المتأخرين إبراهيم فَصيح الحَيْدري، قد تعقّب ما جاء في تفسير الآلوسي، فقال: والأكراد كلهم على ما في القاموس( المُحيط) من أولاد كُرْد بن عمرو مُزَيْقيا....

فعلى هذا تكون الأكراد من أشراف العرب وأكابرهم، وكرمُهم وشجاعتُهم وغيرتُهم أعدلُ شهود على كونهم من أشراف العرب. وأما ذكرُ بعضهم من أنهم ليسوا من العرب فهو من قبيل التعصب، وكفي صاحب القاموس تصحيحاً وشهادة، فهم- على ما ذكره المجد(الفَيْروُزآبادي) صاحب القاموس- من قحطان من العرب العاربة نسباً؛ لأن مُزَيقياء - على ما ذكره علماء النسب- من بني قحطان، وتبدّل لسانهم لقرب

---

٠١ المرجع السابق نفسه.

٠٢ الزركلي: الأعلام، ٤٤/١ .

منازلهم من العجم "[1] .

ومن الواضح أن هذا العالم الكردي لم يكن راضياً عما أورده الآلوسي حول عدم نسبة معظم الكرد الى العرب، وأحيا من جديد الرواية التي أوردها الفَيْرُوزآبادي بشأن نسبة الكرد الى بني قحطان، وله في ذلك حجتان نراهما بعيدتين عن الموضوعية ومنطق العلم:

- الأولى احتجاجه بما أورده الفَيْرُوزآبادي، وكأن الفيروزآبادي حُجّة في هذا المجال، علماً بأن الرجل لغوي وليس نسّابة ولا مؤرخاً، وأنه استقى معلومته هذه مما جاء قبله في روايات المسعودي وغيره.

- والثانية اتهام علماء الكرد غير المتفقين معه بأنهم متعصبون، وما هكذا يكون الحِجاج العلمي الرشيد والرصين.

## أين هي الحقيقة؟

كي نجيب بـ (نعم) أو (لا) عن هذا السؤال، دعونا نلق نظرة فاحصة على المعلومات والمعطيات المتعلقة بالموضوع، وإليكم خلاصتها:

أولاً: بُنيت الروايات التي نسبت الكرد الى أصل عربي على عبارات غير دقيقة، أبرزها: (قيل، ويقال، ومن الناس من رأي، ومن الناس قال، ومن الناس من زعم...).

ثانياً: لم يرد في تلك الروايات أدلة تاريخية ولغوية واثنولوجية تؤكد نسبة الكرد الى العرب، سوى إشارات قليلة الى الشبه من حيث البداوة التي كانت غالبة على الشعبين قديماً، والشبه في بعض القيم مثل الأَنَفة والشجاعة والكرم والغَيرة.

ثالثاً: لم نجد في كتب الأنساب المهتمة بقبائل العرب أية قبيلة باسم كرد، بل لم يقف مؤلفوها عند الروايات التي نسبت الكرد الى العرب، وهذا دليل على أنهم كانوا يعرفون عدم صحة تلك الروايات، فأهملوها، وأذكر من تلك الكتب: (نَسَب قحطان وعدنان للمُبَرِّد)، و(جَمْهرة أنساب العرب لابن حَزْم الأندلسي)، و(لُبّ اللُّباب في تحرير الأنساب للسُّيوطي)، و(نهاية الأَرَب في معرفة أنساب العرب للقَلْقَشَنْدي)، و(الأنساب للسَّمْعاني)، والأغرب من هذا كله أنه لم يرد شيء عن ذلك في كتاب (جَمْهَرة أنساب

---

١. عبّاس العزّاوي: عشائر العراق، ١/١٤١ .

العرب لابن الكَلْبي)، وابن الكلبي هذا هو هشام بن محمد بن السائب الكلبي، وهو واحد من أقدم نسّابَين عربيَّين أُسندت إليهما روايات نسبة الكرد الى العرب، فكيف لا ينقل عنه ابنه هشام ذلك وينقله الآخرون؟ تُري هل أشاع ابن السائب تلك الروايات، واختلف معه ابنه هشام في ذلك فأهملها؟

رابعاً: ثمة مؤرخان مشهوران في ميدان التاريخ الإسلام، هما الطَّبَري وابن الأثير (عز الدين)، فما رأي كل منهما في هذا الباب؟

أما الطَّبَري (ت ٣١٠ هـ - ٩٢٣ م) فهو أقدم المؤرخين المسلمين، ومن أكثرهم دقة في سرد المعلومات، وهو من مشاهير مفسري القرآن، وكان يطبّق ضوابط الأحاديث النبوية على الخبر التاريخي، من حيث صحة الإسناد، والغريب أنه لم يعرّج على أصل الكرد لا من قريب ولا من بعيد، ولم ينسبهم الى أحد، وإنما كان يذكرهم باسم (الأكراد) حيناً، وباسم (الكرد) حيناً آخر، يقيناً منه بأنهم شعب له خصوصيته العرقية، وليس مضافاً الى شعب آخر.

وأما ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ - ١٢٣٣ م) فنهج نهج الطَّبَري، ولا ننس أنه كان معاصراً للدولة الأيوبية الكردية، بل إن أسرته تنتمي الى جزيرة ابن عُمر (جزيرة بُوتان) في شمالي كردستان (جنوب شرقي تركيا حالياً)، وقد صنّفه بعض المؤلفين الكرد- ومنهم المؤرخ محمد أمين زكي- ضمن مشاهير الكرد؛ باعتبار لقب (الجَزَري) نسبة الى مدينة (جزيرة ابن عُمَر)، والمهم أن هذا المؤرخ الخبير بالكرد، والمنتمي الى الجغرافيا الكردية لم ينسب الكرد سوى الى أنفسهم؛ هذا مع كثرة اهتمامه بالبحث في أصول شعوب غربي آسيا، وخاصة العرب والفرس.

خامساً: من المؤرخين والعلماء القدماء من رفض صراحةً نسبة الكرد الى العرب، قال ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ - ١٤٠٦ م): "وقد قيل إن الكرد والدَّيْلَم من العرب، وهو قول مرغوب عنه"[1] .

وقال الآلوسي:

"والذي يغلب على ظني أن هؤلاء الجيل الذين يقال لهم اليوم أكراد لا يبعد أن يكون فيهم من هو من أولاد عمرو مُزَيْقيا، وكذا لا يبعد أن يكون فيهم من هو من العرب، وليس من أولاد عمرو المذكور، إلا أن الكثير منهم ليسوا من العرب أصلاً. وقد انتظم

٠١ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٣/، ١٤ ومرغوب عنه: مرفوض.

في سلك هذا الجيل أناس يقال: إنهم من ذُرّية خالد بن الوليد، وآخرون يقال: إنهم من ذُرّية مُعاذ بن جَبَل. وآخرون يقال: إنهم من ذُرّية العبّاس بن عبد المُطَّلِب، وآخرون يقال: إنهم من بني أُميّة، ولا يصحّ عندي من ذلك شيء، بيد أنه سكن مع الأكراد طائفة من السادة أبناء الحسين، رضي الله تعالى عنهم، يقال لهم البَرْزَنْجية، لا شك في صحة نسبهم"[١] .

وقال المَقْريزي، وهو يتحدث عن تاريخ الأسرة الأيوبية:

"وقيل هم يُنسَبون الى كُرد بن مَرد بن عمرو بن صَعْصَعَة بن معاوية بن بَكْر، وقيل هم من ولد عمرو مُزَيْقيا بن عامر ابن ماء السماء، وقيل من بني حامد بن طارق، من بقية أولاد حُمَيد بن زُهير بن الحارث بن أَسَد بن عبد العُزّي بن قُصَيّ. وهذه أقوال الفقهاء لهم، ممن أراد الحُظْوة لديهم، عندما صار المُلك إليهم، وإنما هم قبيل من قبائل العجم"[٢] .

سادساً: تؤكد جميع الدراسات العلمية في العصر الحديث أن الكرد من العرق الآري (الهندو أوربي)، وليسوا من العرق السامي، واستدلوا على ذلك بالاختلاف الجوهري بين اللغتين الكردية والعربية من حيث الخصائص الصوتية والصرفية والنحوية، لكن لا ننس أن من الرواة من برر ذلك بأن أولئك العرب خالطوا العجم، فنسوا لغتهم.

وعلى أية حال لم يتخذ علماء العصر الحديث مسألة اللغة وحدها دليلاً على أن الكرد شعب آري، وإنما ربطوا ذلك بكثير من الأدلة التاريخية والأركيولوجية والاثنولوجية، وتناولوا وجود الكرد في إطار الهجرات الكبري التي قامت بها الشعوب الآرية من وسط آسيا باتجاه الجنوب (الهند) والغرب (إيران وكردستان)، والشمال (أوربا)، وتلك الأدلة مبسوطة في معظم المؤلفات التي دارت حول الكرد، وذكر الكاتب الأرمني أرشاك سافراستيان بعضها في كتابه (الكرد وكردستان)، كما أننا ذكرنا أهمها في كتابنا (تاريخ الكرد في الحضارة الإسلامية).

وخلاصة ما جاء في تلك المؤلفات أن الكرد هم أحفاد الأقوام التي سكنت جبال زغروس منذ فجر التاريخ (لوللو، طوتي، سوباري)، واندمج مع تلك القوام آريون قادمون من الشرق والشمال الشرقي، ومن أبرز هؤلاء الأقوام (الكاشيون،

---

١. الآلوسي: روح المعاني، ١٠٣/٢٥ .

٢. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ٢٣٢/٢ .

الحوريون/الميتّانيون، والنايريون، والميديون).

هذه هي الحقيقة إذا انطلقنا من السؤال: هل الكرد من أصل عربي؟ أما إذا سألنا: ألا يمكن أن تكون ثمة جذور إثنولوجية مشتركة بين العرب والكرد؟ فالنتائج ستكون مختلفة، بل قد تكون غريبة ومثيرة، وربما تُهدّم كثيراً من القناعات التي عُدّت وما زالت تُعدّ من الثوابت التاريخية الراسخة، لكن البحث في المسألة من هذا المنظور بحاجة الى قدر كبير من الحفر في تاريخ شعوب غربي آسيا قبل الميلاد بأكثر من ثلاثة آلاف عام، وتدقيق النظر في التكوين البَدئي للعرب والكرد، والتحرك على امتداد ثلاثين قرناً قبل الميلاد (٣٦ قرناً قبل الإسلام)، وفي جغرافيا شاسعة، تمتد من وسط آسيا شرقاً الى نهر النيل غرباً، ومن جبال القوقاز (قفقاسيا) شمالاً الى اليمن جنوباً.

والحقيقة أنني لم أُثر موضوع احتمال وجود جذور إثنولوجية مشتركة بين العرب والكرد على أنه مجرد (فرضية)، وإنما لأنني لمحت في تاريخ العرب والكرد، قبل الميلاد بثلاثين قرناً، مؤشرات قليلة تُشعر بأن المسألة أكبر من أن تكون مجرد فرضية، وتشجّع المرء على متابعة الاستقصاء في هذا المجال، والبحث عن الأدلة التاريخية التي قد- الى الآن أقول: قد- تؤكد أن ما هو مشترك بين العرب والكرد لا يقتصر على الإسلام فقط، وإنما له صلة- الى حد ما- بالجانب الإثني أيضاً.

وهذا كله بحاجة الى المزيد من التسلّح بآليات التفكير العلمي، والالتزام بالمزيد من معايير البحث الموضوعي النزيه، وفوق هذا وذاك إنه بحاجة الى مزيد من الجرأة على التحرر من جبروت خريطة الأنساب العبرانية المهيمنة الى الآن على تصنيف الشعوب في ثقافات شرقي المتوسط.

## ١٠

# الكرد في الذاكرة العربية قبل الإسلام

علمنا فيما مضى أن الكرد خسروا مكانتهم القيادية في تاريخ غربي آسيا منذ سقوط مملكة ميديا سنة (٥٥٠ ق.م)، وصاروا أتباعاً للدول الفارسية، وفرضت عليهم السياسات الفارسية أن ينتقلوا رويداً رويداً الى منطقة الظل، بل إن تلك السياسات كانت ترمي الى تفريغ الذاكرة الغرب آسيوية من كل ما يتعلق بأمجاد ميديا. لكن يبدو أن تلك الأمجاد كانت قد شاعت وتأصلت، وصارت أقوى من أن تُمحي، وفيما يلي بعضها.

**السلاح الميدي:**

قال الشاعر اليَثْرِبي عبد الله بن رَواحَة (من مشاهير الصحابة في الإسلام) يردّ على منافسه الشاعر اليَثْرِبي قَيْس بن الخَطيم، قبل الإسلام:

ومُعْتَرَكٍ ضَنْكٍ يُرى الموتُ وَسْطَهُ    مَشَينا له مَشْيَ الجِمال المَصاعِبِ

برَجْلٍ تَرى الماذِيَّ فوق جلودهمْ    وبَيْضاً نَقيّاً مثلَ لون الكواكـب [1]

[معترك: معركة. ضنك: حامية جداً. المصاعب: جمع مُصْعَب، وهو الفحل القوي الذي لا يُركب، ويُترك للفحولة، وبه سمّي العرب اسم مُصْعَب، ومنهم مُصعب بن الزُّبَيْر بن العَوّام. رَجْل: مقاتلون مشاة. الماذيّ: السلاح. بَيض: جمع بيضة، أي خوذة].

وقال النابغة الذُّبْياني (شاعر جاهلي) يمدح بعض العرب:

مُسْتَحْقِبي حلَقِ الماذِيِّ يَقْدُمُهم    شُمُّ العَرانينِ ضَرّابُونَ للهامِ [2]

[مستحقب: حامل معه. حلق الماذي: السلاح. العرانين: الأنوف. الهام: الرؤوس].

وبالعودة الى معجم (لسان العرب، مادة مَذَيَ) نجد ما يلي:

---

١. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٦٨٣/١ .

٢. النابغة الذبياني: ديوان النابغة الذبياني، ص ٢٣٠ .

- " المَذْيُ البَلَل اللَّزِج الذي يخرج من الذَّكَر".
- " المِذاء أَن تَجْمع بين رجال ونساء، وتتركهم يلاعب بعضهم بعضاً".
- " المَذاء: الدِّياثة، والدَّيُّوث الذي يُدَيِّث نفسَه على أَهله فلا يبالي ما يُنال منهم ".
- "الماذِيُّ: العسَل الأبيض".
- "الماذِيَّةُ: الخَمْرة السهلة السَّلِسة شُبِّهت بالعسل".
- "الماذِيَّةُ: من الدروع البيضاء ودِرْعٌ ماذِيَّة سهلة لَيِّنة".
- "الماذِيُّ: السلاح كله من الحديد. ... الماذيُّ الحديد كله؛ الدِّرْع والمِغْفَر والسلاحُ أَجمع، ما كان من حديد فهو ماذيٌّ ... ويقال الماذِيُّ: خالص الحديد وجَيِّدُه".

وجاء في معجم (تاج العروس، مادة مَوَذَ) للزُّبَيْدي ما يلي:

- "المَاذِيُّ: العَسَلُ الأَبْيضُ".
- "والماذِيُّ: الدِّرْعُ اللَّيِّنَةُ السَّهْلَةُ".
- "والماذِيُّ: السِّلَاحُ كُلُّه الدِّرْعُ والمِغْفَرُ وغيرُهما".
- "والمَاذِيَّةُ: الخَمْرُ".

والمعروف في اللغة العربية أن الأسماء والأفعال تقوم على الجذور الثلاثية، وأن الصيغ المشتقة من الجذر اللغوي الواحد يتضمن كلٌّ منها شيئاً ما من المعني الأصلي للجذر، ولنأخذ على سبيل المثال الجذر اللغوي (ج ن ن)، فجميع الكلمات المشتقة منها تشتمل، بمستويات مختلفة، على معني (الاستتار والغموض)، وإليكم مشتقات ذلك الجذر ومعني كل مشتق:

- الجِنِّيّ: غير المرئي وهو عكس الإنسي (المرئي).
- الجَنين: الولد ما دام في بطن أمه.
- المجنون: الذاهب العقل.
- الجَنّة: المكان الكثيف الشجر، فيستتر ما بداخله ولا يظهر.
- الجُنّة: الدرع تستر جسم لابسه.
- الجِنّة: الجنون، والجِن.
- المِجَنّة: التُّرْس.

- جَنّ الليل: أظلم.
- اجتَنّ: استتر.

وتعالوا نطبّق هذه القاعدة على ما أدرجه ابن منظور والزَّبِيدي ضمن مشتقات الجذر اللغوي (م ذ ي) و( م و ذ)، سنجد أن البون شاسع بين بعض تلك المشتقات، وإذا كنا نجد وجهاً للتشابه بين (المَذْي) و(الماذِيّ، بمعني العسل) و(الماذِيّة بمعني الخمرة) من حيث الليونة والبياض، فلا أدري كيف يمكن التوفيق بين معاني هذه الكلمات من حيث الطعم، لا بل إن التوفيق يبدو صعباً حينما نصل الى كلمة (الماذيّة بمعني الدرع البيضاء)، ويصبح ضرباً من المُحال حينما نصل الى كلمة (الماذيّ بمعني السلاح المصنوع من الحديد الخالص الجيد).

حسناً، إذاً ما الذي جعل ابن منظور والزَّبِيدي وغيرهما من اللغويين يُدرجون بعض الكلمات الغريبة ضمن أسرة لغوية واحدة؟

هنا ينبغي أن نأخذ في الحسبان أن لغة كل شعب هي جزء جوهري من هويته، كما أنها بنية أصيلة من ثقافته في عصور التكوين، بل لعلها أكثر تلك البنى أصالة، وأصدقها تجسيداً لملامح تلك الثقافة، وأقدرها على الصمود في وجه التقلّبات والتحوّلات عبر القرون، وقل الأمر نفسه في اللغة العربية، إنها تحمل في طيّاتها ملامح الثقافة العربية في عهود التكوين الأولى، فالفرد يحمل جنسية القبيلة، ومبرّر حمله لتلك الجنسية هو أن يكون له موقع في سلسلة نسب القبيلة.

وماذا إذا لجأ أحد الغرباء الى القبيلة، وعاش فيها، وقرر قادة القبيلة منحه جنسية القبيلة؟ هنا يحصل (الدخيل) على الجنسية عبر آلية (الإلحاق)، ويأخذ (الإلحاق) أحياناً شكل (المولي)- بالكردية (كِرِيفْ Kirîf) فيما أعلم- وبموجب هذه الآلية يفوز الغريب بجنسية القبيلة.

وهذا ما فعله اللغويون في المجال اللغوي، فالكلمات التي تنتسب الى الجذر اللغوي في الأصل تحمل جنسية (الجذر اللغوي) بالأصالة، أما الكلمات الدخيلة فمنحوها جنسية الجذر اللغوي بالإلحاق، ومثال ذلك:

- كلمة (زَنْجَبيل) غير العربية أُلحقت بالجذر (ز ن ج).
- كلمة (سُرادِق) الكردية الفارسية ألحقت بالجذر ( س ر د).
- كلمة (فِرْدَوْس) اللاتينية أُلحقت بالجذر (ف ر د).

وماذا كان اللغويون يفعلون حينما كانوا يجدون كلمات لا يمكن إلحاقها بقبيلة لغوية معيّنة؟ حينئذ كانوا يختلقون قبيلة لغوية جديدة، ويعطونها اسماً، ويمنحون جنسيتها لتلك الكلمات الغريبة الوافدة؛ ومثال ذلك كلمات (إسْطَبْل، أُسْطُرْلاب، أُسْطُوانة، أُسْطورة، أُسْطول)، فقد اختلقوا لها القبيلة اللغوية؛ أقصد الجذر اللغوي (أ س ط)؛ والدليل على ذلك أننا لا نجد كلمة عربية أصيلة مشتقة من هذا الجذر.

ولنعد الى كلمة (الماذيّ) فهي في رأينا غير عربية الأصل، ولا تحمل جنسية الجذر (م ذ ي) والجذر (م و ذ) بالأصالة، وإنما بالإلحاق ليس غير، وهي معرّبة من كلمة (مادي)، فالعرب كانوا يحوّلون حرف الدال (د) في كثير من الكلمات غير العربية الوافدة الى حرف الذال (ذ)، ومثال ذلك (بغداد / بغداذ)، (آزاد / آزاذ)، (آباد / آباذ)، (همدان / همذان)، (قُباد / قُباذ)، (سُنباد / سُنباذ)، والأمثلة على ذلك كثيرة في كتب التراث العربي. وعدا هذا فإن الطَّبَري أورد اسم الميد بصيغة (ماذ)، وسمّي الملك الأخميني كورش (كيروش الماذَوي)، كما أن ابن خَلْدون أورد اسم الملك الأخميني داريوس بصيغة (داريوش ملك ماذي).

وكلمة (مادي) هي بالآشورية (ماداي) Medai، و(أماداي) Amadai، و(ماتاي) Matai، وبالعيلامية الحديثة (ماتا- په) Mata- pe، وبالعبرية بالقديمة (ماداي)، وبالفارسية القديمة (مادا) Mada، وباليونانية القديمة (مادُوي/ميدُوي) Medoi ،Madoi [1]، وهي كلمة (ميدي) المعروفة في الدراسات الحديثة، وتعني الميدين (أحد فروع الشعب الكردي قديماً).

وقد يقال: ما علاقة الميديين باسم (الماذيّ) الذي يعني السلاح؟

هنا لا بد من مراجعة سريعة لتاريخ الميديين؛ فالميديون شعب هندو أوربي (آري)، وصل الى غربي آسيا قبل الميلاد بأكثر من ألف عام، واستقر في منطقة جبال زاغروس وحوافّها، وتحديداً في المنطقة التي كنت تُعرف قبل ذلك باسم (غُوتيوم- طُوتيوم) نسبة الى شعب (غُوتي= كُوتي= جُوتي= جُودي)، وكان الميديون يتألفون من اتحاد ستة قبائل، سمّاها دياكونوف:

Boudloi, Magoi Boussi, Paretaknoi, Strouknates, Arizantoi ، وقد سمّاها هيرودوت (بوسّي، وباريتاسيين، وستروكاتي، وأريزانتي، وبودلوي، وماجي)، وكانت

١٠ دياكونوف: ميديا، ص ١٤٦ .

اللغة الميدية مشتركة بين أفراد هذا الاتحاد القبلي، ويستفاد مما ذكره أرشاك سافراستيان أن ميديا هي امتداد جغرافي وتاريخي وثقافي لگوتيوم[1] .

ووقع الميديون تحت هيمنة إمبراطورية آشور في البداية، لكن سلطات آشور عجزت عن فرض سيطرتها الكاملة عليهم، إذ كانوا يقاومونها باستمرار، ثم برز من الميديين زعماء عظام (دياكو، خُشْتريت، كَيْخُسرو)، امتازوا بالذكاء والحنكة وقوة الإرادة، فوحّدوا القبائل الميدية، ووضعوا قواعد الدولة، وانتقلوا بوعي الإنسان الميدي من دائرة (القبيلة) الى دائرة (الأمة)، وأسسوا جيشاً قوياً، وألحقوا الفرس بالدولة الميدية، ثم عقدوا تحالفاً مع الدولة البابلية التي كانت ترزح تحت الاحتلال الآشوري، وأعلنوا الحرب على السلطة الآشورية، وقضوا عليها سنة (٦١٢ ق.م).

إن سقوط الإمبراطورية الآشورية القوية والشرسة، على أيدي الميديين، وتحرير شعوب غربي آسيا من جبروتها، كان حدثاً هائلاً في ذلك العصر، ودوّي صداه في أرجاء العالم القديم، وهل كان من الممكن للميديين أن يقضوا على دولة عظمى معروفة بقوة الشكيمة كالدولة الآشورية، لولا وجود جيش ميدي يمتلك أقوى أسلحة ذلك العصر، ويمتاز بالفروسية والخبرة القتالية المتطورة؟

إن انتصار الميديين، وتأسيس إمبراطورية قوية ومزدهرة، جعل اسمهم مخلداً في ذاكرة شعوب العالم القديم، حتى إنه بعد سقوط إمبراطورية ميديا في قبضة أتباعهم الفرس الأخمين سنة (٥٥٠ ق.م) كان ملوك العالم القديم ومؤرخوه يطلقون على ملوك الأخمين الأوائل لقب (الملك الميدي) تارة، ولقب (ملك فارس وميديا) تارة أخرى، كما جاء في التوراة[2] ، وأصبح زيّ الفارس الميدي مشهوراً بين شعوب غربي آسيا وعند اليونان. وفيما يلي بعض الشواهد على ذلك:

– وصف هيرودوت جيش الملك الفارسي أَحْشَوِيَرش (إكزِرْسيس) ابن دارا الأول الزاحف على أوربا، فقال: "أولاً الفرس، ويرتدون القبّعة المثلّثة وهي من اللبّاد الناعم، والقميص المطرَّز مع أكمامه، وفوقه الدرع الذي يبدو كحراشف السمك، والسِّروال، وأما عَتادهم فهو التُّرس المصنوع من قضبان الصَّفصاف، وتحته المِقلاع والرمح

---

١. انظر هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٨٠. دياكونوف: ميديا، ص ١٤٣، ١٤٦ . أرشاك سافراستيان: الكرد وكردستان، ص ٢٤، ٢٥ .

٢. سفر المكابيين الأول، الأصحاح ١، الآية ١، والأصحاح ١٤، الآية ٢ .

القصير، والقوس القوية، والسهام المصنوعة من الخَيزران، والخنجر المربوط بالنِّطاق على الفخذ اليمني... أما الفرقة الميدية فكانت بقيادة تيجرانيس الأخميني، ومسلّحة بذات العُدّة والعتاد كالفرس، والحق أن هذا النمط من اللباس ميديّ الأصل، وليس زيّاً فارسيّاً بأيّ شكل"[1] .

- في تراقيا "ولما وصل أحْشَويرش وجيشه الى أكانثوس أظهر الصداقة لأهلها، وقدم لهم هدية من الأزياء الميدية"[2] .

- في جيش أحْشَويرش الزاحف على اليونان، كان سلاح (السرنجيين)، وهم من أقوى فرق الجيش الفارسي "القوس والنُّشّاب والرماح الميدية"[3] .

- في جيش أحْشَويرش الزاحف على اليونان: "أما الآريون فكان على رأسهم سيزامنس بن هيدرانيس، وسلاحهم القوس الميدي"[4] .

- "إن الميديين، بالنسبة الى الفرس والسكايين، كانوا معروفين بالشجاعة، ويُعتمد عليهم، وهؤلاء كانوا القوة الضاربة الرئيسية في جيش خُشْيارشاه"[5] .

وصحيح أن الفرس الأخمين قضوا على دولة ميديا، لكن شهرة العسكرية الميدية ظلت حية في ذاكرة شعوب غربي آسيا مدة طويلة، وبما أن الدول الفارسية المتعاقبة كانت تحكم العراق وبعض السواحل الغربية من الخليج، وبما أن ملوك الحِيرَة العرب (بنيت الكوفة بالقرب منها في الإسلام) كانوا من أتباع الدولة الفارسية، وكان عرب شبه الجزيرة العربية يتعاملون تجارياً مع الدولة الفارسية، كان من الطبيعي أن تنتقل إليهم شهرة السلاح الميدي، وشهرة زيّ المقاتل الميدي، وأن يفخروا بالأسلحة الميدية (المادية/الماذية) التي كانوا يقتنونها.

وها قد سافرنا بعيداً مع اللغة فالجغرافيا فالتاريخ، لكن كيف يمكن للباحث أن يرفع بسرعة حطاماً معلوماتياً هائلاً، تراكم عبر ثلاثين قرناً بعضه فوق بعض، وغيّب عن الأبصار والأسماع والأذهان والأفئدة ما يتعلق بالكرد من حقائق؟!

---

٠١ هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٥١٥- ٥١٦ .

٠٢ المرجع السابق، ص ٥٣١ .

٠٣ المرجع السابق، ص ٥١٧ .

٠٤ المرجع السابق نفسه.

٠٥ دياكونوف: ميديا، ص ٤١٢ .

**اللباس الكردي:**

المعلومة الثانية أكثر لصوقاً بالكرد، ويبدو أنها أحدث من (السلاح الماذيّ)، وهي تتعلق بلباس كان معروفاً عند العرب قبل الإسلام، وكانوا يسمّونه (الكُرديّ)، وإليكم خبره، فقد جاء في (سُنن أبي داود) ما يلي:

"عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي خَمِيصَةٍ لَهَا أَعْلَامٌ (أهداب)، فَقَالَ: شَغَلَتْنِي أَعْلَامُ هَذِهِ، اذْهَبُوا بِهَا إِلَى أَبِي جَهْمٍ، وَأْتُونِي بِأَنْبِجَانِيَّتِهِ. حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مُعَاذٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ يَعْنِي ابْنَ أَبِي الزِّنَادِ قَالَ: سَمِعْتُ هِشَاماً يُحَدِّثُ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ بِهَذَا الْخَبَرِ، قَالَ: وَأَخَذَ كُرْدِيّاً كَانَ لأَبِي جَهْمٍ. فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الْخَمِيصَةُ كَانَتْ خَيْراً مِنْ الْكُرْدِيِّ"[1] .

وخلاصة ما جاء في كتاب (عون المعبود) حول مضمون الحديث أن (الخَمِيصَة) "كِسَاء مُرَبَّع لَهُ عَلَمَانِ"، وأن "خَمِيصَة هِيَ ثَوْب خَزّ أَوْ صُوف مُعْلَم. وَقِيلَ: لا تُسَمَّى خَمِيصَة إِلاَّ أَنْ تَكُون سَوْدَاء مُعْلَمَة، وَكَانَتْ مِنْ لِبَاس النَّاس قَدِيماً". و(الأنْبِجَانِيَّة) "كِسَاء غَلِيظ لا عَلَم لَهُ"، نسبة إِلَى مَوْضِع يُقَال لَهُ أَنْبِجَان. وأضاف صاحب (عون المعبود) يقول: "(وَأَخَذَ كُرْدِيّاً): أَيْ رِدَاء كُرْدِيّاً. الْكُرْد بِالضَّمِّ. وَيُشْبِه أَنْ يَكُون الرِّدَاء مَنْسُوباً إِلَى كُرْد بن عَمْرو بن عَامِر بن رَبِيعَة بن صَعْصَعَة، وَكَانَ عَمْرو بن عَامِر يَلْبَس كُلّ يَوْم حُلَّة، فَإِذَا كَانَ آخِر النَّهَار مَزَّقَهَا لِئَلاَّ تُلْبَس بَعْده، هَكَذَا ضَبَطَ نَسَبه أَبُو الْيَقْظَان أَحَد أَئِمَّة النُّسَّاب"[2] .

ونستخلص الحقائق الآتية من الحديث النبوي السابق:

١ – كان الكساء الكرديّ الذي ارتداه النبيّ لا يقلّ زخرفة عن الخميصة، في وقت كان النبي يريد كساء أكثر بساطة، كي لا يشغله عن الصلاة.

٢ – كانت البضائع المصنوعة في بلاد الكرد تصل الى أسواق بلاد العرب، وكانت تحمل معها اسمها (الكردي)، ويبدو أن هذا الاسم كان يساهم في الترويج لتلك البضاعة، وهذا يذكّرنا في العصر الحديث بحرص تجار حلب، عند عرض بضاعتهم، على ذكر اسم (كردي) لبعض المنتجات الواردة من جبل الكرد في

---

٠١ أبو داود: سُنن أبي داود، ٣٠٣/١ – ٣٠٤ .

٠٢ محمد شمس الحق العظيم آبادي: عون المعبود، ٤٠٩/٢ .

عفْرين، مثل (زيت كردي، سُمّاق كردي، زَعْتَر كردي).

٣ – وصول التجار العرب، أو التجار الذين كان العرب يتعاملون معهم، الى بلاد الكرد، ووجود علاقات تجارية بين الفريقين.

٤ – رغم وقوع الكرد تحت سلطة الدول الفارسية المتتابعة لم يفقدوا هويتهم، وبها كانوا يُعرَفون حتى في أعماق بلاد العرب.

٥ – شيوع تنسيب الكرد الى أصل عربي من سلالة كرد بن عمرو بن عامر، ودور النسّابة العربي أبي اليَقْظان في ذلك.

**الصحابي الكردي:**

للمعلومة الرابعة علاقة بالصحابي الكردي جابان، وقد بسطنا القول بشأنه في كتابنا (تاريخ الكرد في الحضارة الإسلامية)[1] ، فقد جاء في كثير من المصادر الإسلامية اسم صحابي يدعي جابان، وكنيته (أبو مَيْمون)، سمع من النبي محمد (صلى ألله عليه وسلم) حديثاً يفيد أن أيّ رجل تزوّج امرأة وهو ينوي ألاّ يعطيها الصَّداق (المَهر) لقي الله عز وجل وهو زانٍ[2] .

وعلى الغالب كان جابان مقيماً في المدينة (يَثْرِب)، حيث أقام النبي محمد بعد الهجرة، ولعله كان من أهل مكة، فهاجر الى المدينة بعد إسلامه؛ إذ المعروف أن جاليات فارسية ورومية وصابئة وحبشية كانت تقيم في مكة، لأغراض تجارية أو تبشيرية أو سياسية، وقد يكون جابان أحد أفراد تلك الجاليات.

ولعل جابان كان قد وقع في الأسر خلال الحروب الفارسية– البيزنطية، ثم بيع في أسواق النخاسة، وانتهي به الأمر الى مكة أو المدينة، باعتبارهما كانتا مركزين تجاريين بين العراق وبلاد الشام من ناحية، وبين اليمن بوّابة شبه الجزيرة العربية على إفريقيا وجنوبي آسيا من ناحية أخرى. والمؤكد أن جابان كان حديث عهد بالحجاز، وإلا فكيف أجاد اللغة العربية فهماً وتحدثاً؛ الى درجة أنه كان يفهم بدقة ما يسمعه من النبي، وينقل ما سمعه الى الآخرين بدقة؟

---

١. ص ١٥١ – ١٥٣ .

٢. ابن الأثير: أُسْد الغابة، ١/ ,٢٩٩ الذهبي: تجريد أسماء الصحابة، ٧١/١ . ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، ١/ ,٢٠١ الآلوسي: روح المعاني، ١٠٣/٢٦ .

وهذا كله يقودنا الى الحقائق الآتية:

١ - إن جابان كان كردياً، فقد نصّت المصادر على كردية ابنه ميمون، ويسمّي (ميمون الكردي).

٢ - إن جابان كان من الصحابة، وكان شديد الورع، الى درجة أنه كان يتحرّج في رواية الأحاديث عن النبي، مخافة السهو أو الخطأ.

٣ - إن سماع جابان من النبي كان متكرراً؛ أي أنه كان يجالسه مراراً، وإلا فلماذا يطالب الناس ابنه ميموناً بأن يروي لهم ما سمعه عن أبيه عن النبي؟

٤ - كان الكرد معروفين عند العرب قبل الإسلام بأنهم شعب قائم برأسه، معروف باسمه، ولذا لم يُسَمّ ميمون بن جابان باسم (ميمون الفارسي) كما قيل لسلمان (سلمان الفارسي)، بل سُمّي (ميمون الكردي).

وجملة القول أن العرب في الجاهلية الأخيرة (فترة حوالي ٢٠٠ سنة قبل الإسلام) ما كانوا يجهلون الكرد جهلاً تاماً، وإنما كانوا يمتلكون معلومات محدودة عنهم، وهذا أمر منطقي، فحينذاك لم يكن الكرد يجاورون العرب من الشرق والشمال مباشرة، إذ كان أقصى مكان يصل إليه الحضور العربي هو منطقة الحِيرة في جنوب غربي العراق (شرقي نهر الفرات، قرب الكوفة حالياً)، وكان الفرس يحكمون العراق، ويشكلون فاصلاً بين العرب والكرد.

وجدير بالملاحظة أن صورة الكرد في الذاكرة العربية حينذاك لم تكن رديئة، ولم تكن سلبية، إنها كانت صورة عادية، وكانت تبلغ أحياناً مستويات تدعو الى الإعجاب، حسبما وجدنا من خلال (السلاح الماذي/الميدي)، و(الكساء الكردي)، وإطلاق اسم (كرد) على بعض أبناء العرب (كرد بن عمرو).

لكن بعد ذلك كيف أصبحت صورة الكرد في التراث الإسلامي؟

## ١١

# الكرد في أسطورة الضحّاك - ١

استعرضنا في الصفحات السابقة صورة الكرد في الذاكرة العربية قبل الإسلام، واتضح أن المعلومات في هذا المجال كانت قليلة، ومع ذلك ظلّت تلك الصورة متماسكة في صدر الإسلام (عهد النبوة والخلفاء الراشدين لغاية سنة ٤٠ هـ)، وظلت كذلك طوال العهد الأموي أيضاً (٤١ - ١٣٢ هـ)، واحتفظت بتماسكها في العقود الأولى من العهد العباسي، ثم طرأت عليها تحوّلات جديدة، أنتجت في كثير من الأحوال صوراً غريبة عن الكرد، وقدّمتهم الى الأجيال الغرب آسيوية على نحو مشوَّه وفي مشاهد منفِّرة، بل نجد بين أيدينا من المعطيات ما يوحي بأنه كانت ثمة مشاريع قائمة خصّيصاً لهذا الغرض.

ودعونا نتناول بالتحليل أحد مشاريع تشويه صورة الكرد، إنه متمثل في قصة الضحّاك (الأزْدِهاق)، لكن قبل ذلك دعونا نقم بجولة مع المؤرخين والمدارس التاريخية ومنهج المؤرخين في التراث الإسلامي، خلال القرون الهجرية الثلاثة الأول؛ لأن تلك القرون تُعَدّ الينبوع المعرفي الذي كان يستقي منه المؤرخون رواياتهم في القرون التالية، وباطلاعنا على مرتكزات الثقافة فيها نصبح أقدر على معرفة الجهة صانعة المعلومة والمروّجة لها، ونصبح أقرب الى الواقعية في فهم المعلومة، وأقرب الى المنطقية في الحكم عليها.

**مؤرخون ومدارس ومناهج:**

هناك ثلاث حقائق مهمة في ميدان التعامل مع الروايات المتداولة في مصادر التراث الإسلامي عامة، وفي مصادر التاريخ الإسلامي خاصة.

الحقيقة الأولى: تتعلق بهوية المؤرخين المسلمين الأوائل؛ أقصد مؤرخي القرون الهجرية الثلاثة الأولى، كما تتعلق بالمصادر التي كانوا يستقون منها معلوماتهم حول الأحداث الغابرة، وإليكم ثَبْتاً بأسماء مشاهير مؤرخي تلك الفترة:

١٠- عُبَيْد بن شَرِيَّة الجُرْهُمي (ت نحو ٦٧ هـ - ٦٨٦ م): من المعمَّرين، أصله من عرب الجنوب (اليمن)، كانت قبيلته جُرْهُم صاحبة النفوذ في مكّة زمن النبي إبراهيم (القرن ١٩ ق.م)؛ حسبما تقول الروايات الدينية، ويفتقر عُبَيد - أغلب الأحيان- الى الحس التاريخي الدقيق، ويقع نهجه في رواياته تحت تأثير الأساطير والإسرائيليات، ومع ذلك كان شديد التأثير في الرواة والمؤرخين بعده[١] .

٢٠- وَهْب بن مُنبِّه (ت ١١٤ هـ - ٧٣٢ م): من أشهر مؤرخي القرن الأول الهجري، أمه يمنية من حِمْيَر، وأبوه من المقاتلين الفرس الذين أرسلهم كسرى أنو شروان الى اليمن سنة (٥٧٥ م)، لمساعدة الزعيم اليمني سَيف بن ذي يَزَن على دحر الأحباش الذين احتلوا اليمن سنة (٥٢٥ م)[٢] . ويفتقر وَهْب، مثل عُبيد، الى الحس التاريخي الدقيق، وتغلب الأسطوريات والإسرائيليات على رواياته، وكان شديد التأثير في المؤرخين بعده، حتى إن الطَّبَري، وهو من أبرز أعلام التأليف في المجال الديني، استمدّ في تفسيره الكبير للقرآن كثيراً من أقاويل وَهْب[٣] .

٣٠- محمد بن إسحاق بن يَسار (ت ١٥١ هـ - ٧٦٨ م): من المَوالي، وكان جدّه يَسار ممن أُسروا في العراق سنة (١٢ هـ)، ومعروف أن الفرس كانوا يحكمون الجزيرة قبل غزوات العرب المسلمين، ويقول هاملتون جب: "ومن الخطأ أن نبحث عن أيّ مؤثرات سوى المؤثِّرات الفارسية البعيدة في المفهوم الذي قام عليه كتاب ابن إسحاق"[٤] .

٤٠- هشام بن محمد الكَلْبي (ت حوالي ٢٠٤ هـ - ٨١٩ م)، نسّابة ومؤرخ عربي، كان يستمد معلوماته مما كان يتوافر في الحِيرة من الكتب، ومعروف أن الحِيرة كانت مركزاً للنصاري النَّساطرة، وكانت تحت النفوذ الفارسي سياسةً وثقافةً، واهتم هشام بجمع الأخبار من محفوظات كنائس الحِيرة، كما أنه اعتمد على المواد الفارسية التي تُرجمت له[٥] .

---

١٠- هاملتون جب: دراسات في حضارة الإسلام، ص ١٤٤ - ١٤٥ .

٢٠- فيليب حتّي وآخران: تاريخ العرب ص ٩٨، ١٠١ .

٣٠- هاملتون جب: دراسات في حضارة الإسلام، ص ١٤٤ .

٤٠- المرجع السابق، ص ١٤٩ . كتاب ابن إسحاق هو (السيرة النبوية) التي هذّبها ابن هشام، ويُعرف أحيانا باسم (سيرة ابن هشام).

٥٠- المرجع السابق، ص ١٤٧ .

٠٥ محمد بن عمر الواقِدي (ت ٢٠٧ هـ - ٨٢٣ م)، وهو من الموالي، ويُعَدّ من أقدم المؤرخين في الإسلام ومن أشهرهم، وهو من حُفّاظ الحديث، وُلد بالمدينة وتوفّي بالعراق.

٠٦ أبو عُبَيْدَة مَعْمَر بن المُثَنّي (ت ٢٠٩ هـ - ٨٢٤ م)، من الموالي، أصله من الجزيرة، والمشهور أنه من الفرس، وهو من كبار اللغويين، وكان مهتماً بذكر أخبار التاريخ الفارسي، فاتُّهم بالتحامل على العرب، وصُنّف في عِداد كبار الشعوبيين، والشعوبيون- بحسب المصادر الإسلامية- هم الأعاجم الذين لا يرون للعرب فضلاً على غيرهم من الشعوب، ويذكرون نقائصهم قبل الإسلام.

٠٧ أبو الحسن المَدائني (على بن محمد، ت ٢٢٥ هـ - ٨٤٠ م): من الموالي، بصري الأصل، أقام في المَدائن، فلُقّب بالمدائني[1] ، وقد اعتمد الطَّبَري والمهتمون بأخبار المغازي على كثير من رواياته.

٠٨ محمد بن سَعْد (ت ٢٣٠ هـ - ٨٤٤ /٨٤٥ م)، من موالي قبيلة بني زُهْرة القُرَشية، ولد في البصرة، وأقام في بغداد، وهو كاتب الواقِدي، وصاحب الكتاب التاريخي الشهير (طبقات ابن سَعد)، وقد استفاد في ذلك الكتاب من روايات أستاذه الواقدي.

٠٩ عُمَر بن شَبَّة (ت ٢٦٢ هـ - ٨٧٦ م)، من موالي قبيلة بني نُمَيْر، أديب نحوي إخباري لغوي فقيه، نشأ بالبصرة، وتوفّي بسامرّاء، في شمالي بغداد.

٠١٠ أحمد بن يحيي البَلاذُري (ت ٢٧٩ هـ - ٨٩٢ م)، ليس بعربي، والأرجح أنه من كتّاب الفرس، ومن أهل بغداد، وهو مؤرخ جغرافي نسّابة، وأحد المترجمين من الفارسية الى العربية، تلقّى العلم عن ابن سَعد والمَدائني، وله كتاب (فتوح البلدان).

٠١١ ابن واضح اليَعْقوبي (أحمد بن إسحاق ت ٢٨٤ هـ - ٨٩٧ م)، مؤرخ جغرافي كثير الأسفار، من أهل بغداد، صاحب كتاب (تاريخ اليعقوبي)، وهو من الموالي، والأرجح أنه فارسي.

---

٠١ نسبة إلى مدينة المدائن (تيسفون)، عاصمة الفرس في بلاد الرافدين (العراق)، سمّاها العرب المدائن لأنها كانت سبع مدن بينها مسافة قريبة، وتسمّى الآن (سلمان پاك)، وهي على دجلة بالقرب من بغداد. محمود شيت خطاب: قادة فتح بلاد فارس، ص ٢٨٤ .

١٢. الطَّبَري (محمد بن جرير ت ٣١٠ هـ - ٩٢٣ م)، أصله من طَبَرِستان في شمالي بلاد إيران (جنوبي بحر قَزْوين)، وهو من ذوي الثقافة الفارسية، "وقد اعتمد الطبري فيما يختص بتاريخ الفرس على ترجمات عربية لكتب فارسية، وخاصة كتب ابن المُقَفَّع، كما استمد من كتب هشام الكَلْبي الذي كان يعتمد في تاريخ ملوك الفرس والحِيرة على وثائق ومدوَّنات، وعوّل في تاريخ الروم على ما نقله من كتب نصارى الشام"[1] ، ومر في أثناء حديثنا عن وَهْب بن مُنَبِّه أن الطبري تأثر به.

وبتدقيق النظر في منابت هؤلاء المؤرخين إثنياً وجغرافياً وثقافياً يتضح أن المؤثرات العربية في رواياتهم كانت قليلة، وبخاصة حينما كان الأمر يتعلق بأخبار غير العرب قبل الإسلام.

الحقيقة الثانية: تتعلق بالمدارس التاريخية المؤثِّرة في إنتاج الأخبار وتسويقها، خلال القرون الهجرية الثلاثة الأولى، فثمة مدرستان رئيستان، كانتا مصدرين لمعظم الروايات الواردة في كتب المؤرخين والجغرافيين والموسوعيين المسلمين؛ أقصد الروايات ذات الصلة بأخبار ما قبل الإسلام:

١ - المدرسة اليمنية: كان مركزها اليمن، وكان وَهْب بن مُنَبِّه الفارسي الأصل من أبرز أساتذة تلك المدرسة، وقد مزج ببراعة بين ما جاء في مصادر التاريخ الفارسية من أحداث وأساطير، وبين ما جاء في الروايات العبرانية والنصرانية، حتى إنه صار من المقرَّبين الى خلفاء بني أُميّة، ومعروف أن اليهودية كانت قد انتشرت في اليمن برعاية من الملك اليمني ذي نُواس، وكانت النصرانية تنافسها بقوة، وكان الخصام شديداً بين الثقافتين، ثم دخلت الثقافة الفارسية الميدان، وصارت منافساً لليهودية والنصرانية، وكانت الدوائر التي تقف وراء هذه الثقافات، تعمل لتغليب ثقافتها على الثقافات الأخرى، ليس في اليمن فقط، بل في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية.

٢ - المدرسة العراقية: كان مركزها في العراق، وصحيح أن الثقافة الفارسية كانت مهيمنة هناك، لكن كان للثقافة النصرانية النَّسطورية حضور قوي أيضاً، وخاصة في الحِيرة (مركز الإمارة العربية التابعة للفرس)، وفي الجزيرة (بين النهرين دجلة

---

١. أحمد عادل كمال: الطريق إلى المدائن، ص ٢٠ - ٢١ . لمزيد من المعلومات راجع: الفِهرِسْت لابن النديم، وتاريخ الإسلام للذَّهَبي، ومعجم الأعلام للزركلي، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحّالة.

والفرات)، ومعروف أن النساطرة فرقة مسيحية، رفض مؤسسها نسطور الأخذ بالمذهب المَلْكاني (الخلقيدوني) الرسمي في الدولة البيزنطية، فتعرض أتباعه للإضطهاد، ولجأوا الى أراضي الدولة الساسانية عدوّة بيزنطا، ونشأ تحالف سياسي وثقافي وثيق بين الساسانيين والنساطرة، وكانت (أكاديمية) جُندي سابور (كُنْدَي شابور) "مركزاً للدراسات الآرامية، وكان أغلبية قوّادها من العلماء النسطوريين، بيد أنها كانت في الوقت نفسه مكاناً عاماً لاجتماع الثقافات الفارسية والهندية واليونانية والآرامية، وما ناولته للعرب كان مزيجاً من كل تلك الثقافات"[1] .

الحقيقة الثالثة: تتعلق بمنهج معظم المؤرخين المسلمين في التعامل مع الروايات والمعلومات، فهم في الغالب لا يكلّفون أنفسهم عناء تفحّصها، لا من حيث تتبّعُ المنشأ؛ تُري في أيّ وسط جغرافي وثقافي ظهرت أولاً؟ ولا من حيث تتبّعُ المسارات؛ تُرى كيف بدأت؟ وكيف انتهت؟ ولا من حيث طبيعتُها؛ تُرى أهي واقعية أم أسطورية؟ والمؤسف أن معظمهم يسرع الى تلقّف المعلومة، وخاصة إذا كان فيها شيء من الغرابة، فيتبنّاها بحماس، ويقدّمها الى الأجيال على أنها حقيقة أو شبه حقيقة؛ هذا عدا تركيزهم- قدامي ومحدثين- على (الكمّ) بدل (النوع)، ووقوعهم تحت تأثير الرغبة في (تنفيخ) الكتاب، كما أشرنا في صفحات سابقة؛ وها هو ذا المؤرخ الشهير ابن الأثير يفصح عن بعض ذلك قائلاً:

"فإني لم أزل محبّاً لمطالعة كتب التواريخ ومعرفة ما فيها، ... فلمّا تأمّلتها رأيتها متباينةً في تحصيل الغرض، يكاد جوهر المعرفة بها يستحيل الى العَرَض، فمن بين مطوِّل قد استقصي الطرق والروايات، ومختصرٍ قد أخلّ بكثير ممّا هو آت، ومع ذلك فقد ترك كلُّهم العظيمَ من الحادثات، والمشهورَ من الكائنات، وسوّد كثيرٌ منهم الأوراقَ بصغائر الأمور التي الإعراضُ عنها أولى، وتركُ تسطيرها أحْرى، ... وقد أرّخ كلٌّ منهم الى زمانه، وجاء بعده من ذَيّل عليه، وأضاف المتجددات بعد تاريخه إليه، والشرقيُّ منهم قد أخلّ بذكر أخبار الغرب، والغربيُّ قد أهمل أحوال الشرق؛ فكان الطالب، إذا أراد أن يطالع تاريخاً متصلاً الى وقته، يحتاج الى مجلدات كثيرة وكتب متعددّة، مع ما فيها من الإخلال والإملال"[2] .

---

١. هاملتون جب: دراسات في حضارة الإسلام، ص ٢٩٧ .

٢. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ١/٢ .

ولا ننس في الوقت نفسه أنه لم تكن ثمة مؤسسات أكاديمية تجمع المؤرخين، وتشرف على أعمالهم في إطار ضوابط نقدية محددة، وإنما كان المؤرخون يقومون بجهود فردية. ولا نُسقط من الحساب أيضاً أن العلم والأدب كانا من أبواب كسب الرزق في ذلك الحين، ومن وسائل الوصول الى أبواب الخلفاء والأمراء والى مجالسهم، وخاصة بالنسبة الى أبناء الموالي؛ وكلما كان المؤرخ غزير المعلومات، بغضّ النظر عن مصدرها وصحّتها، وكان أكثر سرداً للغرائب والعجائب، كانت سوقه أكثر رواجاً، وكان المردود المادي أوفى.

وبعد هذا لنعد الى أبرز الروايات ذات العلاقة بقصة الضحّاك.

**رواية الدِّينَوَري:**

ابن قُتَيْبَة الدِّينَوَري (عبد الله بن مُسلِم، ت ٢٧٦ هـ – ٨٨٩ م)، أديب نحوي لغوي، وهو بغدادي غير عربي، والأرجح أنه فارسي الأصل، لأنه يقال له (المَرْوَزِيّ) نسبة الى مدينة (مَرُو) عاصمة خُراسان، وهو ليس من أهل مدينة دِينَوَر (دَيْنَوَر) الكردية الواقعة في جنوبي كردستان (جنوب غربي إيران حالياً)، والتي كانت تابعة لولاية قَرْمِيسِين (كَرْمَنْشاه)، وإنما عمل قاضياً في دينور، فنُسب إليها، وكتابه (المعارف) أقدم مصدر إسلامي مطبوع ورد فيه خبر علاقة الكرد بقصة الضحّاك، فقد قال في كتابه ذاك تحت عنوان (الأكراد):

"تَذكر العجم أن الأكراد فَضْلُ طعام بِيوراسف؛ وذلك أنه كان يأمر أن يُذبَح له كلَّ يوم إنسانان، ويُتّخَذ طعامُه من لحومهما، وكان له وزير يقال له: أَرمائيل، فكان يَذبح واحداً ويَسْتَحْيي واحداً، ويَبْعث به الى جبال فارس، فتوالدوا في الجبال وكثروا"[1] .

وأورد الزَّبِيدي (ت ١٢٠٥ هـ – ١٧٩٠ م) رواية ابن قُتيبة، ثم علّق عليها قائلاً: "قال شيخنا: وقد ضعّف هذا القولَ كثيرٌ من أهل الأنساب. قلت: وبيوراسْف هذا هو الضحّاك الماري، مَلَكَ العجم بعد جَمْ بن سليمان ألف سنة. وفي (مفاتيح العلوم هو معرَّب دَهْ آك؛ أي ذو عشر آفات. وقيل: معرّب أزده؛ أي التنِّين، للسلْعَتَين اللتين كانتا له"[2] . وواضح أن

٠١ ابن قتيبة الدينوري: المعارف، ص ٦١٨ .

٠٢ الزبيدي: تاج العروس، مادة كرد. الماري: المادي. وكتاب (مفاتيح العلوم) هو كتاب للإمام فخرالدين الرازي (ت ٦٠٦ هـ)، يدور حول تفسير سورة (الفاتحة). السلعتان: الزائدتان اللحميتان.

ابن قتيبة نسب الرواية الى العجم، وهو يقصد الفرس، وواضح أيضاً أن علماء الأنساب ضعّفوها.

**رواية الطَّبَري:**

معروف أن الطَّبَري ( ت ٣١٠ هـ - ٩٢٣ م) من أبناء الثقافة الفارسية الأقحاح، ويتميّز بأنه موسوعي الثقافة، وهو من كبار مفسّري القرآن، كما أنه من كبار المؤرخين المسلمين، وها هو ذا المؤرخ ابن الأثير يقول في وصف كتاب (تاريخ الرُسل والملوك للطَّبَري)، والمشهور باسم (تاريخ الطبري):

"فابتدأتُ بالتاريخ الكبير الذي صنّفه الإمام أبو جعفر الطَّبَريّ؛ إذ هو الكتابُ المعوَّل عند الكافّة عليه، والمرجوعُ عند الاختلاف إليه،... فلمّا فرغتُ منه، وأخذتُ غيره من التواريخ المشهورة فطالعتها، وأضفت منها الى ما نقلته من تاريخ الطبري ما ليس فيه، ... وإنما اعتمدت عليه من بين المؤرخين؛ إذ هو الإمام المتقِنُ حقّاً، الجامعُ علماً وصحّةَ اعتقادٍ وصدقاً"[١] .

ولا ريب في أن الطبري كان يعلم الرواية الفارسية التي أقحمت الكرد في سياق قصة الضحّاك، لكنه أعرض عن ذكرها، ولم يقبل أن يوردها في كتاباته، وحينما يُعرض مؤرخ شهير وقدير كالطبري عن ذكر تلك الرواية فأقلّ ما يعني ذلك أنه طعن في مصداقيتها، وأباح للدارسين أن يَعُدّوها ضرباً من الاختلاق.

وقد ذكر الطبري أن الضحّاك هو (الأزدهاق)، والعرب تسمّيه الضحّاك، ويدّعي أهل اليمن أنه يمني، وأنه الضحّاك بن علْوان بن عُبَيد بن عُوَيْج، وأن أخاه سِنان حكم مصر حينما هاجر إليها النبي إبراهيم. وأما الفرس فيذكرون أن الأزدهاق هو بِيوَراسْب بن أَرْوَنْداسْب بن زينكاو بن ويرَوْشك بن تاز، بن فرواك بن سيامك بن مشا بن جِيُومَرت. ومنهم من يذكر له نسباً آخر هو أنه الضحّاك بن أندرماسب بن زنجدار (زنحدار) بن وندريسج بن تاج بن فرياك (فريال، فرمال) بن ساهمك (شاهمك) بن تاذي (ماذي/ مادي) بن جيومرت. ونقل الطبري عن هشام بن محمد الكلبي أن الضحّاك هو نَمْرود، وأن النبي إبراهيم وُلد في زمانه، وأنه الذي أمر بإحراق إبراهيم، كما ذكر الطبري قصة الحيّتين على منكبي الضحّاك، وإطعامهما من دماغ البشر.

---

١. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٣/١ .

وذكر الطبري أيضاً قصة ثورة كاوَه على الضحاك، وسمّاه (كابي)، ونسبه الى مدينة أصبهان (أصفهان)، وذكر أن قطعة الجلد التي اتخذها راية كانت من جلد أسد، فجعل ملوك الفرس تلك الراية علَمهم الأكبر، وسمّوها (دِرَفْش كابَيان)، وكانوا يتبرّكون بها، ولا يرفعونها إلاّ في الأمور العظام. وذكر الطبري قصة انتصار أفريدون على الضحّاك بفضل ثورة كاوَه، وفي مكان آخر من كتابه سمّي الضحّاك باسم (أجدهاق، وذكر أن عمره كان ألف سنة، وأن مدة حكمه كانت ستمئة سنة، وزعم بعضهم أن النبي نوحاً كان في زمانه[1] . ولم يذكر الطبري قطّ أن الكرد كانوا من سلالة الناجين من القتل.

**رواية الهَمَذاني:**

الهَمَذاني هو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق المعروف بابن الفقيه (توفي نحو ٣٤٠ هـ – نحو ٩٥١ م)، وهو من مدينة هَمَذان (هَمَدان= آمَدان)، وهي عاصمة الميديين القديمة أطبَاتانا، والهمذاني من كبار الجغرافيين في التراث الإسلامي، وقد أورد معلومات تفصيلية تتعلق بقصة الضحّاك، وصرّح في بدايتها بأنها "تدخل في باب الخرافة، ومقتبسة من روايات الفرس"، وفي هذه الرواية اسم الضحّاك هو بيوَراسْف، "ويقال إن طول أفريذون تسعة أرماح– والرمح بباعه ثلاثة أبْوُع– وعرض عَجُزه ثلاثة أرماح، وعرض صدره أربعة أرماح، ووسطه رمحان"[2] .

وذكر الهمذاني أن فريدون (أفريدون/أفريذون) جاء بالضحّاك من المغرب نحو المشرق، ليسجنه في جبل دُنْباوَنْد، فمرّ بكُورة (منطقة) إصبهان، فجلس للغداء، "فأدار سلاسله على جبل من جبال إصبهان، وأوثقه بأساطين وسكك من حديد قوية، وتوثّق منه حتى ظن أنه قد أحكم ما أراد، حتى إذا جلس على غدائه، اجتذب بيوَراسْف سلاسله مع تلك الأساطين والسكك، واحتمل الجبل يجرّه بسحره، ثم طار به في الهواء، فلحق فريدون به في مدينة بِزورند، وضربه بمِقْمَعة من حديد، فسقط بيوراسف مغشيّاً عليه، ورسا ذلك الجبل المنقول من إصبهان بمدينة الرّي"، ثم قاد فريدون بيوراسف من الرَّي نحو محبسه[3] .

---

٠١ الطبري: تاريخ الطبري، ١/١٩٤ – ٢٠١ .

٠٢ الهمذاني: البلدان، ص ٥٥٢ . والبوع: ثلاثة أذرع. والعجُز: المؤخّرة.

٠٣ المرجع السابق، ص ٥٤٩ . وزورند وردت من غير ضبط، وهي الرَّي.

وفي رواية الهمذاني اسم وزير الضحّاك هو أرمائيل، وهو الذي أشفق على الناس، "فإذا جاؤوه بالأساري من الآفاق ليذبحهم، ويأخذ أدمغتهم، فيغذّي الحيّتين، أعتق في كل يوم أسيراً، وذبح مكانه كبشاً، وخلط دماغه بدماغ المقتول، وغذا به الحيّتين أعواماً كثيرة، ثم بدا له في الذبح، فكان إذا جاؤوه بالأسارى أعتقهم، وأسكنهم الجبل الغربي من قرية ميندان... فكان كلما أعتق أسيراً أعطاه داراً، وأسكنه الجبل الغربي، وأمره أن يزرع لنفسه ما يريد ويبني ما يشاء. فكانوا يفعلون ذلك"[1] .

وبعد أن انتصر أفريدون على الضحّاك، وسجنه في جبل دُنباوَنْد، أوكل أمر حبسه الى الوزير الطبيب أرمائيل، وكان الوزير قد اهتدى الى طِلَّسْم، فطَلْسَم طعامَ الضحّاك، بحيث يشبع ولا يحتاج الى طعام آخر، وذات يوم أوفد أفريدون رسولاً الى الوزير ليأتيه بخبر الضحّاك، فأحبّ الوزير أن يُطلع الرسول على حال المعتقين من الذبح، فأمر "أن يوقد كلُّ واحد منهم على باب الموضع الذي هو فيه ناراً، ففعلوا . فقال الرسول: ما هذا؟ قال: هؤلاء المعتقون من الذبح. قال الرسول بالفارسية: وسْ مانا كي ته آزاد كردي؟ أي: كم من أهل بيت قد أعتقتهم! وتناهى الخبر الى أفريذون، فسرّ به سروراً شديداً"، ثم مضى أفريذون فشاهد الأمر على الواقع، وكافأ أرمائيل بأن أقطعه مدينة دُنباوند بقراها، واتخذ أفريدون يوم سجن بيوراسف عيد (المِهْرَجان)[2] .

وجاء في رواية أخرى نقلها الهمذاني، وهي لرجل من كَلْب (الأرجح أنه هشام بن محمد الكلبي): أن أفريدون أراد معاقبة الوزير أرمائيل بعد الانتصار على بيوراسف، لأنه كان صاحب الذبح، فقال الوزير :

"كان يأمرني بذبح اثنين في كل يوم، فكنت أذبح واحداً وأعتق الآخر. قال: وكيف علِمْتُ صحة ما ذكرت؟ قال: اركب معي حتى أُريَك إياهم. فركب معه، وسار حتى أشرف على جبال الدَيْلَم والشُّور، فنظر الى عالَم قد توالدوا وتناسلوا . فقال: هؤلاء كلهم عتقائي. فقال أفريذون: وسْ! ما نا كي ته آزاد كردي؟ كم من أهل بيت أعتقتهم! اذهب فقد ملّكتك عليهم، فأعطاه مملكة دُنْباوَنْد، فلم يزل الضحّاك عنده موثقاً ستة أشهر، ثم قتله يوم النيروز، فقالت الأعاجم: إمروز نُوروزي، أي: استقبلنا الدهر بيوم جديد، فاتخذوه عيداً"[3] .

---

١. المرجع السابق، ص ٥٥٠ – ٥٥١ . وبدا له: أي أعاد النظر في مسألة الذبح.

٢. المرجع السابق، ص ٥٥١ – ٥٥٢ .

٣. المرجع السابق، ص ٥٥٤ .

**رواية المسعودي:**

سبق أن أوردنا في المبحث الأول من هذه السلسلة الرواية التي ساقها المسعودي (ت ٣٤٦ هـ - ٩٥٧ م) بشأن الضحّاك والكرد، ولا بأس من عرضها ثانية، فقد قال:

"ومن الناس من رأى أن الضحّاك ذا الأفواه المقدَّم ذكره في هذا الكتاب، الذي تنازعت فيه الفرس والعرب من أيّ الفريقين هو، أنه خرج بكتفيه حيّتان، فكانتا لا تُغذَّيان إلا بأدمغة الناس، فأفني خلقاً كثيراً من فارس، واجتمعت الى حربه جماعة كثيرة وافاه أفريدون بهم، وقد شالوا راية من الجلود تسمّيها الفرس درِفْش كاوان، فأخذ أفريدونُ الضحّاكَ، وقيّده في جبل دُنْباوَنْد على ما ذكرنا، وقد كان وزير الضحّاك في كل يوم يذبح كبشاً ورجلاً، ويخلط أدمغتهما، ويُطعِم تَينك الحيّتين اللتين كانتا في كتفي الضحّاك، ويطرد من تخلّص الى الجبال، فتوحّشوا وتناسلوا في تلك الجبال، فهم بَدء الأكراد، وهؤلاء من نسلهم، وتشعّبوا أفخاذاً"[1] .

وأضاف المسعودي في المصدر السابق ذاته قائلاً: "وما ذكرناه من خبر الضحّاك فالفرس لا يتناكرونه، ولا أصحاب التواريخ القديمة والحديثة".

وذكر المسعودي قصة الضحّاك في كتابه (التنبيه والإشراف) فقال:

"بيوَراسْب، وهو الضحّاك مَلَك ألف سنة، والفرس تغلو فيه، وتُذكَر من أخباره أن حيّتين كانتا في كتفيه تعتريانه، لا تهدئان إلاّ بأدمغة الناس، وأنه كان ساحراً يطيعه الجن والإنس، ومَلَك الأقاليم السبعة، وأنه لما عَظُم بغيُه، وزاد عُتُوُّه، وأباد خلقاً كثيراً من أهل مملكته؛ ظهر رجل من عَوامّ الناس وذوي النُّسك منهم، من أهل إصبهان إسكاف كابي، ورفع راية من جلود علامةً له، ودعا الناس الى خلع الضحّاك وقتله، وتمليك أفريذون، فاتّبعه عَوامّ الناس، وكثير من خواصّهم، وسار الى الضحّاك، فقبض عليه، وأنفذه أفريذون الى أعلى جبل دُباوَنْد بين الرَّي وطَبَرِستان، فأُودِع هناك، وأنه حيّ الى هذا الوقت، مُقيَّد هناك، في أخبار يطول ذكرها، قد شرحناها في كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر"[2] .

---

٠١ المسعودي: مروج الذهب، ١٢٢/٢ - ١٢٣ . ولا يتناكرونه: لا ينفونه.

٠٢ المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ٧٥ - ٧٦ . والنسك: التقوى والزهد. ودباوند: هي دنباوند، وتسمى (دُماوَنْد) أيضاً.

وكي تكتمل الصورة دعونا نقرأ ما أورده المسعودي أيضاً حول أصل الكرد في كتابه (التنبيه والإشراف):

"وكذلك الأكراد عند الفرس من ولد كُرْد بن أَسْفَنْدِيار بن مَنُوشَهْر، منهم البازَنجان، والشوهجان، والشاذنجان، والنشاورة، والبوذيكان، واللُّرِّية، والجَوْرقان، والجاوانية، والبارسيان، والجَلالية، والمِسْتكان، والجابارقة، والجروغان، والكِيكان، والماجَرْدان، والهَذْبانية، وغيرهم ممن بزمام فارس وكَرْمان وسَجِستان وخُراسان وإصْبَهان وأرض الجبال من الماهات؛ ماه الكوفة، وماه البصرة، وماه سَبَذان والإيغارين، وهما البُرْج وكَرَج أبي دُلَفُ، وهَمَذان، وشَهْرزُور، ودراباذ، والصامَغان، وآذربيجان، وأرمينية، وأرّان والبَيْلقان، والباب، والأبواب، ومن بالجزيرة والشام والثغور"[1] .

وهكذا قدّم المسعودي ثلاث روايات:

- أما في الأولى فكان مجرد ناقل لما كان شائعاً عند "الفرس"، وبين "أصحاب التواريخ القديمة والحديثة".
- وأما في الثانية فذكر قصة الضحّاك، لكن من غير أيّ ذكر للكرد، اكتفاءً منه بما سبق أن أورده في كتابه (مروج الذهب).
- وأما في الثالثة فنقل ما رواه الفرس بشأن أصل الكرد، من غير ذكر أية علاقة لهم بقصة الضحّاك.

وأقل ما يمكن أن يقوله المرء، وهو يكرر النظر في هذه الروايات، أنها مضطربة ومحيّرة، ولا تستند على معلومات تاريخية موثّقة، وبالطبع لا نحمّل المسعودي مسؤولية ذلك، فحسبُ الرجل أنه كان أميناً في عرض ما وصل إليه من روايات الفرس، أما بالنسبة لرأيه هو فقد برأ ذمّته من هذه الرواية بصورة واضحة، وبين أيدينا دليلان على ذلك:

١ – الدليل الأول تصريحه بأن الفرس هم الذين يتداولون هذه الرواية فيما بينهم، ولا تلقي منهم إنكاراً، ولا علاقة لا للعرب، ولا لأيّ شعب آخر، بالترويج لها.

٢ – الدليل الثاني تصريحه بأن الأصح هو أن الكرد عرب من نسل ربيعة بن نزار (الفرع العدناني)، وبذلك يكون قد أخرج أصل الكرد من دائرة الأحداث المتعلقة بالضحّاك جملة وتفصيلاً.

---

١٠ المرجع السابق، ص ٧٨ . والماهات: الولايات.

وقد يقال: إن المسعودي نسب هذه الرواية الى "أصحاب التواريخ القديمة والحديثة" أيضاً، أفليس هذا دليلاً موثّقاً على صحّتها؟ وهل كان من الممكن أن يتفق المؤرخون- قديمهم وحديثهم- على رواية كهذه؛ لولا أنها كانت مؤكّدة؟ وإذا رددنا رواية تناقلها المؤرخون القدامى والمحدثين، وأجمعوا ضمناً على صحتها، أفلا يكون ذلك خلطاً للأوراق، ونزعاً للثقة من جميع ما رواه أولئك المؤرخون؟

إنها تساؤلات منطقية بكل تأكيد، وللإجابة عنها بمنطقية حسبنا أن نتذكر ما ورد قبل قليل بشأن أشهر المؤرخين المسلمين في القرون الهجرية الثلاثة الأولى، فإن أصحاب التواريخ القديمة والحديثة الذين ذكرهم المسعودي ليسوا إلاّ هؤلاء الذين ذكرناهم، ومن هم تَبَعٌ لهم، وكانوا جميعاً- أتباعاً ومتبوعين- ممن يدورون في فلك الروايات التي بثّتها المدرستان الثقافيتان الكبريان؛ مدرسة اليمن، ومدرسة العراق، وكانت هاتان المدرستان - كما علمنا قبل قليل- نتاج تمازج الثقافات الفارسية واليهودية والنصرانية.

**رواية الفِرْدَوْسي:**

سقطت الدولة الأموية سنة (١٣٢ هـ - ٧٥٠ م)، وحلّت الدولة العباسية محلها، ولولا جهود قادة كبار، منهم بُكَيْر بن ماهان، وأبو سلَمة الخلاّل، وأبو مُسْلم الخُراساني، وخالد البَرْمَكي، ومن ورائهم عشرات الآلاف من المقاتلين والمؤيدين - وكان جميعهم من الموالي (غير العرب)- لما استطاع العباسيون الوصول الى سُدّة الخلافة، ومنذ النصف الثاني من القرن الثاني الهجري ظهرت دول مستقلة وأخرى شبه مستقلة في الأجزاء الشرقية والغربية من الدولة العباسية.

ويهمنا الآن ما جري في الأجزاء الشرقية، وخاصة في بلاد الشعوب الآريانية (تسمي في مصادر التراث الإسلامي بلاد إيران)، وهي تضم بلاد الفرس والكرد والبُلُوش (البلوج) والآذريين والأفغان، فقد ظهرت في تلك البلاد الدولة الطاهرية، ومؤسسها هو القائد الفارسي الكبير طاهر بن الحسين، أسّسها في عهد الخليفة المأمون (ت ٢١٨ هـ)، وكانت عاصمتها نِيسابور، وورثتها الدولة الصُفّارية (٢٥٤ - ٢٩٠ هـ - ٨٦٧ - ٩٠٣ م)، ومؤسسها يعقوب بن الليث الصُفّار، وهو من أصل فارسي، ثم حلّت محلها الدولة السامانية (٢٦١ - ٣٨٩ هـ - ٨٧٤ - ٩٩٩ م)، وينتمي

السامانيون الى أسرة فارسية عريقة، يرجع أصلها الى بَهْرام جُور، الزعيم الفارسي الشهير قبل الإسلام[1] .

والحقيقة أن العنصر الفارسي كان ما زال قريب العهد بأمجاد الإمبراطورية الساسانية، وكانت الذاكرة الفارسية عامرة بسِيَر ملوك الفرس، وقد بدأ مثقفوهم بإعادة تنشيط تلك الذاكرة، وإحياء الشعور القومي الفارسي، بترجمة تواريخ ملوك الفرس الى العربية، وكان المثقف الفارسي ابن المُقَفَّع (قُتل سنة ١٤٢ هـ - ٧٥٩ م) من أبرز القائمين بذلك حينما ترجم كتاب (خُداي نامَه) من البهلوية الى العربية، وسمّاه (كتاب تاريخ ملوك الفرس)[2] .

وفي ظلال الدولة السامانية الفارسية، وبتشجيع من كبار الأمراء، نشط الأدباء والمؤرخون الفرس في مجال إحياء الثقافة الفارسية، وانتقلوا الى مرحلة جديدة هي التأليف بالفارسية بدل العربية، وفي إطار عملية الإحياء الشاملة هذه ظهرت النماذج الأولى من ملحمة (شاهْنامه)، وهي عبارة عن تدوين التاريخ الفارسي شعراً، فظهرت (شاهْنامة) أبي المؤيَّد البَلْخي، ثم (شاهنامة) أبي منصور الدَّقيقي، وهما من مشاهير شعراء الدولة السامانية، واستكمل الشاعر الفارسي الكبير أبو القاسم الفردوسي (ت ٤٠١ هـ أو ٤٠٣ هـ - ١٠١٠ أو ١٠١٢ م) ما بدأه البَلْخي والدَّقيقي، وانتهى من تأليف كتاب (شاهنامه) سنة (٣٨٤ هـ)، وظل ينقّحه حتى سنة (٤٠٠ هـ)[3] .

ويمكن القول بأن الفردوسي جمع في الشاهنامة معظم ما كان في الذاكرة الفارسية من تواريخ وأساطير تتعلق بالدول الفارسية، ولها صلة بسِيَر ملوكها قبل الإسلام. هذا وقد حاولنا رسم صورة واضحة للمُناخ الثقافي الذي ظهرت فيه ملحمة الشاهنامة، كي نقدم الدليل على أن هذه الملحمة تمثل خلاصة ما ترسّخ في الذاكرة الفارسية بشأن تواريخ ملوك الفرس، ونجد في الشاهنامة ذكراً لكل من الضحّاك (الأزدهاق)، ولخصمه فريدون (أفريدون/أفريذون)، وللثائر كاوَه الحداد، ولكن لم يأت لا الفردوسي، ولا من نقل عنهم الفردوسي، على أيّ ذكر بأن الكرد كانوا من نسل أولئك

---

١٠ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ٣/٦٥ - ٨٢ .

٢٠ الزركلي: الأعلام، ٤/، ١٤٠ أمين عبد المجيد بدوي: جولة في شاهنامة الفردوسي، ص٧ .

٣٠ انظر حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ٣/٨٢ . أمين عبد المجيد بدوي: جولة في شاهنامة الفردوسي، ص ١٠ - ١٩ .

الشباب الذين كانوا ينجون من القتل في عهد الضحّاك[1] .

وإليكم خلاصة ما ذكره الفردوسي:

في البدء حكم العالَم مَلِكٌ يُدعى جِيُومَرْت (جيومرث= كيومرت)، وهو يماثل (آدم) في خريطة الأنساب العبرانية المعتمَدة في اليهودية والمسيحية والإسلام، وكان لجيومرت ابن يُدعى سيامك، لكن أحد الجن قتل سيامك، فحزن جيومرت على ابنه حزناً شديداً، وسلّم مقاليد السلطة لحفيده أُوشهنج (هوشنگ) بن سيامك، وأُوشهنج هذا هو مكتشف النار، وواضع أبجديات الحضارة في العالم، صناعةً وزراعةً وتدجيناً للحيوانات، ثم تولّي الحكم بعده ابنه طَهْمُورث، فاستكمل مسيرة والده في ميدان التحضر، وكان العالم يفتقر حينذاك الى معرفة الخط والكتابة، فحارب طهمورث الجن، وسجن كثيرين منهم وأذلّهم، فوعدوه بأن يعلّموه الخط والكتابة إذا أطلق سراحهم، وتلك كانت بداية ظهور الكتابة في العالم[2] .

ثم حكم جَمْشيد بعد والده طهمورث، ومعني اسمه (شعاع القمر)، وسار شوطاً واسعاً في ميدان التحضر؛ إذ تفنّن في صنع الآلات الحربية، واتخذ الكتّان والحرير والصوف للثياب، ونشر الصناعات، ومنها الصناعات الطبية، في أرجاء العالم، وكلّف الجن بأعمال شاقة، وطار الى ممالك العالم على سرير كانت الجن تحمله (لاحظوا ما جاء في سيرة النبي العبراني سليمان حول هذه الأمور)، لكنه تجبّر وتكبّر، واستبدّ بالسلطة، فانشق ملوك الفرس الذي كانوا من أتباعه، واجتمعوا الى الضحّاك ابن ملك العرب، ليخلّصهم من جمشيد، فتولي الضحّاك الأمر، وتغلب على جمشيد بعد صراع طويل، وقتله بالمنشار[3] .

والضحّاك لقب، واسمه بِيوَراسب بن مِرْداس ملك العرب، وكان ملكاً صالحاً في البداية، وكان له خادم جنّي اسمه (إبليس)، وكان يظهر في شكل شاب وسيم، وأغرى إبليس الضحّاك بقتل والده، لفرض حكمه على العرب، لكن الضحّاك تردّد، ولم يوافق على ذلك رغم وسوسة إبليس له. وذات ليلة خرج الأب مِرْداس يمشي في بستان له، فوقع في بئر مغطاة بالحشيش، فطمرها إبليس بالتراب، وهكذا أصبح الضحّاك ملك العرب[4] .

---

١. الفردوسي: الشاهنامة، ص ١٠ – ١٦ .

٢. المرجع السابق، ص ٥ – ٨ .

٣. المرجع السابق، ص ٩ – ١٠ .

٤. المرجع السابق، ص ١٠ .

ولم يكتف إبليس بالخلاص من الأب، وإنما ظهر في شكل طبّاخ، وتولّي شؤون المطبخ الملكي، وتفنّن في صنع الأطعمة، فأُعجب به الضحّاك، وأراد مكافأته، فسأله: ماذا تطلب؟ فطلب الطبّاخ (إبليس) أن يقبّل منكبيه، فوافق الضحّاك، وما إن قبّل الطبّاخ منكبَي الضحّاك حتى غاب عن الأبصار، وظهر على كل منكب من منكبي الضحّاك حيّة سوداء أرعبت الملك والحاشية، ونصح الأطباء الضحّاك بقطع الحيتين، لكنهما كلما قُطعتا نبتتا من جديد، وهنا ظهر إبليس متنكّراً في زيّ طبيب، وأقنع الضحّاك بأن هذا قدر من الله، ولا بد من تغذية الحيتين بأدمغة الناس، كي يخفّ أذاهما؛ وكان غرض إبليس من ذلك أن يسفك الضحّاك دماء الناس، ويبيد الجنس البشري، وقد أصدر الضحّاك الأمر بقتل رجلين كل ليلة، وتقديم دماغيهما طعاماً للحيتين[1] .

وبعد فترة طويلة من ظلم الضحّاك تنبّأ أحد المنجّمين بأن مُلكه سيزول على يدي ملك اسمه أفريدون (فريدون)، لمّا يولد بعدُ، فصُعق أفريدون، ونشر رسله في أطراف البلاد لترقّب ولادة ذلك الطفل، والمبادرة الى قتله فور ولادته، وفي تلك السنة ولد أفريدون، وكان والده من جملة الذين قتلهم الضحّاك لإطعام الحيتين، وخافت عليه والدته من شر الضحّاك، فهربت به الى مرج تكسوه الخضرة، ويخص راعياً كانت له قطعان كبيرة من الغنم والبقر، فتعهّد للأم بتربية أفريدون، وهنا لاحظوا الشبه بين قصة أفريدون وشخصيات شهيرة أخرى:

١. سَرْجون الأول الأكادي: حملت به أمه الكاهنة سِفاحاً، ولما ولد جعلته في سلّة مطليّة بالقار، ووضعت السلة في النهر، فالتقطه البستاني (أكي)، وربّاه واتخذه ابناً[2] .
٢. النبي العبراني موسى: خبّأته أمه ثلاثة أشهر خوفاً من أن يقتله فرعون، ثم وضعته في صندوق صغير مطليّ بالقار، ووضعته بين الأعشاب بجانب نهر النيل، فوجدته جواري ابنة فرعون وهو يبكي، فرقّت له الأميرة الفرعونية، فتبنّت رعايته[3] .
٣. كورش الثاني الأخميني: والده قمبيز، وأمه ماندانا ابنة الملك الميدي الأخير أستياگ، وقد رأي الملك الميدي حلماً غريباً يتعلق بإبنته ماندانا، وفسّر المنجّمون الحلم بأن ابنته ستلد طفلاً، وسيخلعه حفيده ذاك من السلطة، ويحكم بدلاً منه،

---

١. المرجع السابق، ص١١ - ١٢ .
٢. توماس طمْسُن: الماضي الخرافي، ص ٥١١ - ٥١٢ .
٣. العهد القديم، سفر الخروج، الأصحاح ٢، الآيات ١ - ١٠ .

فقرر أستياگ الخلاص من الطفل فور ولادته، ولما ولد الطفل كلّف أستياگ القائدَ الميدي الكبير هارباط (هارباجوس) بتلك المهمة، فدفع هارباط الطفل الى الراعي ميثرادات (معناه: هبة الإله ميثرا) ليقتله، لكن زوجة الراعي رقّت للطفل، ونصحت زوجها بعدم قتله، وبتربيته وتبنّيه، ففعل الراعي ذلك[1] .

وبعد ثلاث سنوات استلمت الأم ولدها من الراعي، وهربت به الى بلاد الهند، وقصدت جبلاً عالياً، فرعاه أحد الرهبان هناك، وعلّمه مكارم الأخلاق، ثم زار أفريدون أمه، وقرر الثأر لوالده من الضحّاك، فنصحته والدته بالتريّث، وخلال تلك المدة كان اسم أفريدون يقلق الضحّاك ويرعبه، وفجأة قاد الحداد كاوَه (طاوه) ثورة عارمة ضده، إذا كان أحد أبنائه قد اختير ليكون دماغه طعاماً للحيتين، وأخذ كاوه قطعة جلد كان يغطي بها قدمه حينما كان يطرق الحديد، ورفعها على عصا، واتخذها راية، وسمّيت (دِرَفْش طاويان)، وراح ينادي بطاعة أفريدون، وقاد أفريدون الثورة على الضحّاك، وانتصر عليه، وجلس على عرش بلاد إيران، واقتاد الضحّاك الى مغارة في جبل دُنْباوَنْد، وسجنه هناك، كي يُعذَّب هناك الى يوم القيامة[2] .

ولا نجد أيّ ذكر للكرد في قصة الضحّاك.

**رواية ابن الأثير:**

ابن الأثير الجَزْري (عزّ الدين ت ٦٣٠ هـ - ١٢٣٣ م) مؤرخ مشهور، جمع في كتابه معظم المعلومات التي ذكرها كبار المؤرخين قبله، وها هو ذا يقول:

"ولا أقول: إني أتيت على جميع الحوادث المتعلقة بالتاريخ، ... ولكن أقول: إنني قد جمعت في كتابي هذا ما لم يجتمع في كتاب واحد، ومن تأمله علِم صحة ذلك"[3] .

وقال ابن الأثير في مكان آخر من مقدمة كتابه بشأن منهجه:

"على أني لم أنقل إلا من التواريخ المذكورة، والكتب الشهيرة، ممن يُعلَم بصدقهم، وصحّة ما دوّنوه، ولم أكن كالخابط في ظَلْماء الليالي، ولا كمن يجمع الحَصْباء واللآلي"[4] .

---

١٠ هيرودوت: تاريخ هيرودوت ص ٨٢- ٨٣ . هارفي بورتر: موسوعة مختصر التاريخ القديم، ص ٨٧ .

٢٠ الفردوسي: الشاهنامة، ص ١٤ - ١٨ .

٣٠ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٢/١ .

٤٠ المرجع السابق، ٣/١ .

وقد ذكر هذا المؤرخ المحقق معظم الأخبار المتعلقة بالضحّاك وكاوه (كابي) وأفريدون، واتخذ روايات الطبري أصلاً، وضم إليها ما جاء في المصادر الأخرى، فذكر أن بِيوَراسْب هو الأزدهاق، وقال:

"وأهل اليمن يدّعون أنّ الضحّاك منهم، وأنه أول الفراعنة، وكان مَلك مصر لما قدمها إبراهيم الخليل، والفرس تذكر أنه منهم، وتنسبه إليهم، وأنه بِيوَراسْب بن أرْوَنْداسْب بن رينكار بن وَنْدْرِيشْنْك بن يارين بن فروال بن سيامك بن ميشي بن جيومرث"[1].

وذكر ابن الأثير قصة الحيتين، وثورة كابي (كاوه)، وتأييده لأفريدون، وانتصار الأخير على بِيوَراسب، وحبسه في جبل دُنباوند، وأضاف قائلاً:

"وبعض المجوس تزعم أنه (أفريدون) وكّل به قوماً من الجن. وبعضهم يقول: إنه لقي سليمان بن داود، وحبسه سليمان في جبل دُنْباوَنْد، وكان (دنباوند) ذلك الزمان بالشام، فما برح بيوراسب بحبسه يجرّه حتى حمله الى خُراسان، فلمّا عرف سليمان ذلك أمر الجنّ فأوثقوه (الجبل) حتى لا يزول، وعملوا عليه طِلَّسْماً كرجلين يدقّان باب الغار الذي حُبس فيه أبداً؛ لئلا يخرج، فإنه عندهم لا يموت. وهذا أيضاً من أكاذيب الفرس الباردة، ولهم فيه أكاذيب أعجب من هذا تركنا ذكرها"[2].

وقال ابن الأثير أيضاً:

"وبعض الفرس يزعم أن أفريدون قتله يوم النَّيروز، فقال العجم عند قتله: إمْرُوز نَوْرُوز، أي استقبلنا الدهر بيوم جديد، فاتخذوه عيداً، وكان أسره يوم المِهْرَجان، فقال العجم: آمَد مِهْرَجان، لقتل من كان يذبح"[3].

وقال ابن الأثير أخيراً:

"وإنما ذكرنا خبر بِيوَراسْب ها هنا لأن بعضهم يزعم أن نوحاً كان في زمانه، وإنما أرسل إليه والى أهل مملكته، وقيل: إنه هو الذي بني مدينة بابِل ومدينة صُور ومدينة دمشق"[4].

ومرة رابعة لا نجد أيّ ذكر للكرد في قصة الضحّاك.

---

١. المرجع السابق، ٧٤/١ .

٢. المرجع السابق، ٧٦/١ .

٣. المرجع السابق نفسه.

٤. المرجع السابق، ٧٧/١ .

**رواية القَلْقَشَنْدي:**

القَلْقَشَنْدي (أحمد بن علي ٨٢١هـ - ١٤١٨ م)، موسوعي مصري، عُني في كتابه (صُبح الأعشى في صناعة الإنشا) بذكر معلومات تفصيلية عن طبقات ملوك بلاد آريانا (إيران) قبل الإسلام (الگيشداديون، الكيانيون، الأشغانيون، الساسانيون)، وقد ذكر الضحّاك، وصنّفه ضمن ملوك الطبقة الأولى، وهي طبقة الملوك الظيشداديين (بيشداذ)، وأنه صار ملكاً بعد جمشيد (جمشيذ)، وقال:

"ويُعرف بالدهاك، ومعناه عشر آفات، والعامة تسميه الضحّاك؛ وملَكَ جميع الأرض فسار بالجَوْر والعَسف، وبسط يده بالقتل، وأحدث المُكوس والعُشور، واتخذ المغنّين والملاهي"[١] .

وعاد القلقشندي مرة أخرى الى ذكر قصة الضحّاك حينما ذكر دين الزردشتية (المجوسية)، فقال بشأن المجوس: "ويسخطون على بِيوَراسْب؛ وهو رابع ملوكهم: وهو الضحّاك، يقال له بالفارسية: الدهاش[٢] ، ومعناه عشر آفات"، وذكر القلقشندي قصة الحيتين، وإطعامهما من أدمغة الناس، وثورة كاوه (كابي/كابيان)، وانتصار أفريدون على الضحّاك[٣] .

ومرة خامسة لا نجد أيّ ذكر للكرد في قصة الضحّاك.

ويبقي السؤال المهم: أين هي الحقيقة إذاً؟

---

١٠ القلقشندي: صبح الأعشى، ٤/٤١٠ . والعشور: الضرائب.

٢٠ بالكردية: دَهْ أيش Deh aish؛ أي العشر أوجاع.

٣٠ المرجع السابق، ١٣/٢٩٧ - ٢٩٨ .

١٢

# الكرد في أسطورة الضحّاك - ٢

## الإله مُولُوخ:

جاء في كتب التاريخ أن الإله الفينيقي بَعْل مُولُوخ (مُولُوك) كان شَرِهاً الى الدماء، مُغرَماً بالقرابين البشرية، وخاصة الأطفال، وكان حرقهم على مذبحه كان يرضيه، فيُنزل بركاته على أتباعه، ولمّا استولى الآشوريون على العاصمة الفينيقية صُور (في جنوبي لبنان)، في عهد الملك الفينيقي بيجماليون (٨٢٠ – ٧٧٤ ق.م)، رحل بعض الفينيقيين الى شمالي إفريقيا، واستقروا في شمالي تونس، وأسسوا هناك مدينة قرطاجة[1] .

ونقل الكهنة الفينيقيون معهم إلههم بَعْل مولوخ الى قرطاجة، وكان من البديهي أن تنتقل معه طقوسه أيضاً، ومنها حرق الأطفال، ولما حاصر الجيش الروماني قَرْطاجة سنة (٣٠٧ ق.م) أُحرق على مذبح الإله مولوخ مئتا غلام من أبناء أرقى أسر المدينة، وأقيم احتفال فخم بهذه المناسبة، وكي لا يسمع الآباء والأمهات وبقية الجمهور صراخ الأطفال وهم يحترقون، رتّب الكهنة فرقة موسيقية، تقوم بالدق على الطبول والنفخ في المزامير، فضاعت صرخات الأطفال وسط ذلك الضجيج والعجيج[2] .

والغريب أن فريقاً من منتجي الثقافة في العهود الإسلامية كانوا يمارسون نهجاً شبيهاً بما كان ينهجه الكهنة الفينيقيون إزاء التضحية بالأطفال للإله مولوخ، وكان ذلك النهج يؤدي في النهاية الى اغتيال الحقائق بعيداً عن الأنظار والأسماع، وتحت ستار كثيف من الضجيج والعجيج، وهذا النهج واضح الملامح في مجال التفسير والتاريخ واللغة والأدب وبعض كتب البلدان.

---

١. وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ٧٦/١ .

٢. ول ديورانت: قصة الحضارة، ٦١/٢ .

## آليّات التَّعْمية:

ويعتمد ذلك الفريق آليّات التعمية الآتية، وخاصة في مجال التاريخ:

١ – الآلية الأولى: هي مواجهة المتلقّي– سامعاً كان أم قارئاً– بضخامة (الكم) أقصد (تنفيخ) الكتاب، فيجد القارئ نفسه دفعة واحدة أمام عدد من المجلدات الضخمة، فيشعر للوهلة الأولى أن السيطرة على هذا (الجبل) المعلوماتي الهائل أمر في غاية الصعوبة؛ إذ من أين له الوقت الكافي لتقليب جميع تلك الصفحات الكثيرة؟ ومن أين له الصبر والجَلَد على فهم تلك المعلومات الغزيرة واستيعابها؟ وتؤدي هذه الآلية وظيفة تهيئة المتلقّي نفسياً لـ(التفكير في الاستسلام).

٢ – الآلية الثانية: هي مواجهة المتلقّي بكومة من الروايات، يأخذ بعضها برقاب بعض، ويُنسي آخرُها أوّلَها، وتحوّل هذه الآلية المتلقّي من وضعية (التفكير في الاستسلام) الى وضعية (الرغبة في الاستسلام)؛ إذ يجد نفسه– وهو يتعامل مع الكتاب الواحد ذي المجلدات العديدة– أمام حشد من الروايات المتداخلة، والمتشابهة حيناً والمتعارضة حيناً آخر، وكثير منها يبدأ بعبارات غامضة عائمة، أبرزها: (زعموا، وفي رواية، وقيل، ويقال، وقالوا، وقال آخرون، وقال بعضهم، وقال بعض الناس، ومن الناس من رأى، ومما رُوي عن السلَف، إلخ).

وفوق هذا فإن المؤرخ يعمد الى تخدير وعي المتلقّي، وإيهامه بأنه يقرأ معلومات موثّقة، لا سبيل الى الشك فيها، وخاصة حينما يذكر أسماء الرواة، ولنستشهد على سبيل المثال بنهج الطَّبَري في تاريخه، فالرجل أكثر مؤرخي القرن الثالث الهجري حرصاً على توثيق المعلومات، وتمسكاً بالأمانة العلمية، ورغبةً في كسب ثقة القارئ، وكان عُمدة المؤرخين المسلمين بعده، وإليكم بعض مرويّاته:

قال بشأن خَلق الشمس والقمر:

"أما ابن عبّاس فرُوي عنه أنه قال: خلق الله يومَ الجُمُعة الشمسَ والقمرَ والنجومَ والملائكةَ الى ثلاث ساعات بقيتْ منه. حدّثنا بذلك هنّاد بن السَّرِيّ، قال: حدّثنا أبو بكر بن عَيّاش، عن أبي سَعْد البقّال، عن عِكْرِمَة، عن ابن عبّاس، عن النبيّ صلّى الله عليه وسلم"[1] .

لاحظوا هنا ما يلي:

---

١. الطبري: جامع البيان، ٦٣/١ .

اعتماد أسلوب (العَنْعَنَة) المتّبَع في روايات الحديث النبوي، ويظهر ابن عبّاس (ابن عم النبي) في سلسلة السند، ويرفع ابن عباس الرواية الى النبي، وهذا يعني أن الرواية حديث نبوي، وبالعودة الى كتب الحديث النبوي، ولا سيما الكتب المعتمَدة منها (صحيح البُخاري، صحيح مُسْلِم، سُنَن النَّسائي، سُنن داود، سُنن ابن ماجَة، سُنن التِّرْمِذي)، لا نجد فيها أيّ حديث يتعلق بخَلق الشمس والقمر يوم الجمعة، ثم لاحظوا الإيهام بالدقة العلمية، فالخَلق لم يكن يوم الجمعة فقط، بل تم قبل انقضاء ذلك اليوم بثلاث ساعات.

وبعد أن يجد المتلقّي أن الرواية هي حديث نبوي، وأن في سندها الصحابي الشهير ابن عبّاس، وبعد أن يجد نفسه أمام هذه الشبكة المُحكَمة النسج، ويتعرض لهذا القصف الديني المركّز، كيف لا يرفع راية الاستسلام؟ ومن أين له أن يفكر حينئذ بأن وجود الأيام والساعات لم يكن إلا بعد خلق الشمس والقمر، وأن من المحال أن يوجد يوم الجمعة قبل وجود الشمس نفسها؟

ثم من أين للمتلقّي أن يعرف حقيقة (عِكْرِمة) الذي يحتكر نقل هذه الروايات عن ابن عبّاس؟ من أين له أن يعرف أن عِكرمة هذا كان عبداً من شعب الأمازيغ (البربر) يُباع ويُشترى ويُهدى، وأوّل ما فعله ابن عبّاس أنه جرّده من اسمه الأصلي، وفرض عليه اسماً عربياً، ثم علّمه ليوظّف قدراته بعدئذ في إذاعة رواياته وترويجها بين المسلمين على مر الأجيال، ولم يُعتقه ابن عبّاس، وظل يستثمر قدراته الى آخر لحظة، وإليكم ما قاله ابن خَلّكان في هذا الصدد:

"أبو عبد الله عِكْرِمة بن عبد الله، مَوْلى عبد الله بن عبّاس، رضي الله عنهما؛ أصله من البَربر من أهل المغرب، كان لحُصَيْن بن الحُرّ العَنْبَري، فوهبه لابن عبّاس رضي الله عنهما، حين وَلِيَ البَصْرة لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، واجتهد ابن عبّاس في تعليمه القرآن والسُّنَن، وسمّاه بأسماء العرب"[1] .

وأضاف ابن خلّكان قائلاً:

"ومات مولاه ابن عبّاس وعكرمة على الرِّقّ، ولم يُعتقه، فباعه ولده عليّ بن عبد الله بن عبّاس من خالد بن يَزيد بن مُعاوية بأربعة آلاف دينار، فأتى عِكرمة مولاه علياً، فقال له: ما خِيرَ لك، بِعتَ علمَ أبيك بأربعة آلاف دينار؟! فاستقاله وأقاله وأعتقه. وقال عبد الله

٠١ ابن خلّكان: وفيات الأعيان، ٢٦٥/٣ .

بن الحارث: دخلت على عليّ بن عبد الله بن عبّاس وعِكرمة مُوثَقٌ على باب كَنيف، فقلت: أتفعلون هذا بمولاكم؟! قال: إنّ هذا يكذب على أبي"[1] .

وكيف لا يفقد المتلقّي توازنه بعد أن يسمع الأقوال المتضاربة التي جاءت في وصف عكرمة، وإليكم بعض ما قيل فيه:

- "قال أبو خَلف عبد الله بن عيسي الخَزّاز، عن يحيي البَكّاء: سمعت ابن عمر يقول لنافع: لا تكذبْ عليّ كما كذب عِكرمة على ابن عبّاس"[2] .

- "عن عثمان بن حَكيم قال: كنت جالساً مع أبي أُمامة بن سَهْل، إذ جاء عِكرمة، فقال: يا أبا أُمامة، أذكّرك اللهَ، هل سمعتَ ابن عبّاس يقول: ما حدّثكم عني عِكرمة فصدّقوه، فإنه لم يكذب عليّ؟ فقال أبو أُمامة: نعم"[3] .

- "قال أيوب، عن عمرو بن دينار: دَفَع إليّ جابر بن زَيد مسائل، أسألُ عِكرمة، وجعل يقول: هذا عِكرمة مولى ابن عبّاس، هذا البحرُ فسلُوه "[4] .

- عن "ابن عُيَيْنَة، عن عمرو سمع أبا الشَّعْثاء يقول: هذا عِكْرمةُ مولي ابن عبّاس، هذا أعلمُ الناس"[5] .

وإليكم مثلاً آخر من (تاريخ الطبري) بشأن حَوّاء:

"وحدَّثنا ابن حُمَيْد، قال: حدّثنا سَلَمة، عن ابن إسحاق، عن داود بن الحُصَيْن، عن عِكْرِمَة، عن ابن عبّاس، قال: كانت حَوّاء تلد لآدم، فتُعبِّدُهم اللهَ عزّ وجلّ، وتسمّيهم عبدَالله وعُبَيْدَ الله ونحوَ ذلك، فيصيبهم الموت، فأتاها إبليسُ وآدمَ عليه السلام، فقال: إنكما لو تسمّيانه بغير الذي تسمّيانه به لعاش. فولدتْ له ذكراً، فسمّياه عبدَ الحارث، ففيه أنزل الله عزّ ذكره، يقول الله عز وجلّ: (هو الذي خَلَقَكُمْ مِن نَفسٍ واحدةٍ) الى قوله (جَعَلا له شُرَكاءَ فيما آتاهما) الى آخر الآية"[6] .

---

١. المرجع السابق، ٢٦٥/٣ – ٣٦٦ . والرِّق: العبودية. وما خِيرَ لك: أي لم تكن موفَّقاً فيما قررت. والكنيف: بيت الخلاء، المرحاض.

٢. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢٢/٥ . وابن عمر: هو عبد الله بن عمر بن الخطّاب. ونافع: مولى دَيْلَميّ، صار من نصيب عبد الله بن عمر في غزوة.

٣. المرجع السابق، ١٦/٥ .

٤. المرجع السابق نفسه.

٥. المرجع السابق نفسه.

٦. الطبري: جامع البيان، ١٤٨/١– ١٤٩ .

لاحظوا هنا ظهور نهج (العَنْعَنة) مرّة ثانية، ومرّة أخرى يظهر في المشهد ابن عبّاس ومولاه عِكرمة، بل إن هذه الرواية تتسلّح بآية قرآنية، فتصبح أكثر هيمنة على وعي المتلقّي المسلم، وأمام هذا كله من أين للمتلقّي التفكير في مسألة أن اللغة العربية لم تكن موجودة أيام آدم وحوّاء؟ فكيف كانت حوّاء تسمّي أبناءها (عبد الله، عبيد الله، عبد الحارث) وهي أسماء عربية؟

٣ - الآلية الثالثة: هي الخلط بين الواقع والأسطورة، فحينما يجتاز المتلقّي بوّابة المعلومة، ويبدأ التَّجوال في رحابها، يجد نفسه أمام مزيج عجيب من الأخبار والأحداث، فيها ما هو واقعي، لكن قسماً كبيراً مما هو واقعي أُلبس عباءات الأساطير والخوارق، فأصبح أشبه بالعجائب؛ وحسبنا أن نعود الى بعض كتب التاريخ في العهود الإسلامية، لنرى فيها كثيراً من الشواهد على التداخل بين الأسطورة والواقع، وخاصة في مجال الأخبار المتعلقة بقصة الخَلق والطوفان وتواريخ بعض الملوك القدماء.

والخلاصة أن المتلقّي يجد نفسه منبهراً بما يقرأ من جهة، ومذهولاً به من جهة ثانية، وعاجزاً عن تدقيق النظر في أكوام الروايات من جهة ثالثة، وعاجزاً عن فكّ الاشتباك بين الروايات المتعارضة من جهة رابعة، ويصبح بين أحد أمرين: إما التسليم بما قرأ، وإما السكوت على مضض.

وبطبيعة الحال ثمة خيار ثالث، هو عدم التسليم، والإصرارُ على سماع صرخات الأطفال وهم يحترقون، أقصد الإصرار على معرفة الحقائق، لكن لهذا الخيار ضريبة باهظة من العناء والوقت. وكلما قرأت قصص آدم ونوح وإبراهيم ونَمْرود وزَرْدَشت وبُخْتُنَصَّر، وقصص أشباههم من الأنبياء والملوك والمشاهير، في مصادر التراث الإسلامي، وجدت نفسي أمام ذَينك الخيارين الصعبين.

وأعلم أنني أنفق بعض الوقت في أمور قد تبدو خارج نطاق موضوعنا الأساسي، وأعرّج بين حين وآخر الى قضايا تتعلق بطرائق تشكّل التراث الثقافي الإسلامي، وتتناول آليات تدوينه ونشره، لكن أعتقد أن فهم تلك الطرائق والآليات، وتفكيك بناها، وإخضاعها للنقد، هو المدخل الصحيح الى فهم حقيقة كثير من المعلومات الواردة في مصادر التراث الإسلامي، وتمييز الصواب من الخطأ، وهو المنهج الصائب لقراءة تراث غربي آسيا، وإعادة كتابته بشكل صحيح.

### عَود الى قصة الضحّاك:

ودعونا نتوجّه من جديد الى قصة الضحّاك (الأزدهاق)، وهذا يقتضي منا القيام بجولة سريعة في خريطة الأنساب الآريانية حسبما رسمتها النخب الفارسية قبل الإسلام، وحسبما أُحييت منذ القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) على يدي ابن المقفَّع وأمثاله من أساطين الثقافة الفارسية.

وبعد أن استعرضنا أبرز الروايات المتعلقة بقصة الضحّاك (بيوَراسْب، بيوَراسْف، أَزْدهاق، أَزْدهاك) في الصفحات السابقة، وهي لسبعة من كبار المؤرخين والجغرافيين والموسوعيين، يغطّي حضورهم حوالي خمسة قرون من العهود الإسلامية، وبعضهم فرس أقحاح، وبعضهم خبراء في الثقافة الفارسية، نخرج بالنتائج الآتية:

١ – خمسة من الرواة لم يذكروا الكرد قطّ في قصة الضحّاك، وفيهم أربعة ممّن يصحّ الاحتجاج بآرائهم، وهم: الطَّبَري، والهَمَذاني، والفِرْدَوسي، وابن الأثير، مع الأخذ في الاعتبار أن روايات الفردوسي في (شاهنامه) هي خلاصة عدد مهم من المصادر الخاصة بالتاريخ الفارسي قبل الإسلام.

٢ – أقدم الروايات التي نسبت الكرد الى عتقاء الضحّاك تعود الى ابن قُتَيْبَة الدِّينَوَري، وهو أديب ونحوي ولغوي، وليس من المتخصصين في التاريخ، ثم إن الرجل برّأ ذمّته بأن نسب الرواية الى الفرس (العجم).

٣ – الرواية الثانية التي نسبت الكرد الى عتقاء الضحّاك أوردها المَسْعودي، لكنه دلّل على بطلانها حينما نسب الكرد الى فرع رَبيعة بن نِزار من العرب العدنانيين (عرب الشمال).

٤ – أغلب الروايات التي تتضمن قصة الضحّاك ترجع الى مصادر فارسية، وتستقي من الذاكرة الفارسية، وفي سلسلة رواتها مؤرخ عربي وحيد، إنه هشام بن محمد بن السائب الكَلْبي، وسبق أن مرّ في ثَبْت المؤرخين أنه كان يقتبس معلوماته في هذا المجال من مصادر فارسية ومسيحية نسطورية في مدينة الحِيرة، وليس من مصادر عربية.

٥ – إن الكتّاب المتأخرين الذين ذكروا روايات تنسب الكرد الى نسل عتقاء الضحّاك، من أمثال المَقْدِسي (مطهّر بن طاهر ت بعد ٣٥٥ هـ – بعد ٩٦٦ م)، في كتابه (البَدء

والتـاريـخ)، والمَقْـريـزي (ت ٨٤٥ هـ – ١٤٤٢ م) في كـتـابه (السلوك لمعـرفـة دول الملوك)، وشَرَف خان بَدْليسي (ت ١٠١٣ هـ – ١٦٠٤ م) في كتابه (شَرَف نامه)، إنما كانوا يقتبسون مما جاء في الروايات الفارسية، ثم إنهم كانوا يستخدمون عبارات توحي بالشك في تلك الروايات.

أضف الى هذا أن قصة الضحّاك- بهذه الكيفية الغريبة- هي من نسج الخيال الفارسي، وتستحق أن تُصنَّف بجدارة في قائمة الأساطير، وهذا واضح للعيان في مُجريات الأحداث، وهي – قصة الضحّاك- جزء من خريطة الأنساب التي اختلقتها النخب الفارسية، بقصد تأصيل الحضور الفارسي في التاريخ، وتمجيد الفرس، وإظهارهم بأنهم أصحاب الفضل في إهداء الحضارة الى العالم على يدي أُوشهنج (أُوشهنگ، هُوشَنْگ)، وجَمْشيد (جمشيذ)، ولسحب البساط من تحت أقدام بقية الشعوب الآريانية (الآرية) في غربي آسيا، مثل الكرد والبلُوش والأفغان، وهذا يعني ضمناً أن الفرع الفارسي هو الأجدر بحكم العالم.

إن خريطة الأنساب الفارسية هذه تذكّر المرء رغماً عنه بخريطة الأنساب العبرانية الواردة في التوراة، تلك الخريطة التي تهيمن عليها الأسْطَرة، والتي تحرص على تأصيل الفرع العبراني وتمجيده ديناً ودنيا، على حساب الفروع السامية الأخرى، كالعرب والسِّريان والكِلْدان وغيرهم، وهذا يعني ضمناً أنه الفرع المختار من الله، والأجدر بالهيمنة على سائر الشعوب.

ومن المهم جداً أن نضع في حسابنا أن خرائط الأنساب القديمة هذه، سواء أكانت عبرانية أم عربية أم فارسية، هي موضع شك، وليس لها أيّ سند علمي موثّق، وقد صمّمتها نخب تلك الشعوب على خلفيات أسطورية وغامضة، ولأغراض لم تكن بعيدة عن محور أساسي؛ هو بناء تحالفات قَبَلية أو قومية أو دينية معيّنة، لإقصاء جهة معادية أو لإلغائها؛ وبعبارة أخرى مختصرة: إن خرائط الأنساب تلك هي من آليات ثقافات الإلغاء والإقصاء في غربي آسيا.

### أبْلَسة أستياگ الميدي:

ثم لا ننس ظاهرة خطيرة في بعض ثقافات غربي آسيا، ولعلها من أكثر الظاهرات خطورة في تاريخ الشعوب الغرب آسيوية، وأكثرها سبباً في جرّ تلك الشعوب الى

الخصومات والحروب والمآسي، وتتلخص تلك الظاهرة في أن تلك الثقافات التوسعية المنطلَقات لا تؤمن لا بالتجاور ولا بالتحاور، وإنما تقوم في الأصل على (إلغاء الآخر)، وهي تنشئ بموازاة مشروعها التوسعي مشروعاً آخر، يهدف الى شَيْطَنة (أَبْلَسة) الثقافات التي تخالفها أو تعارضها، وكما هي العادة منذ أربعة آلاف عام على الأقل يستظل المشروعان معاً (مشروع التوسّع ومشروع الشيطنة) باسم أحد الآلهة (مَرْدُوخ، آشُور، بَعْل، أَهُورامَزْدا، إيل، إيلُوهِيم، الله).

وبتكريس مشروع (الشَّيطنة) تصبح الثقافة المخالفة شيطانية (إبليسية)؛ أي أنها تصبح ملعونة، وتُصنَّف على أنها رجس يجب القضاء عليه بكل وسيلة، ومن الطبيعي والحال هذه أن تنسحب صفة الشَّيْطنة (الأَبْلَسة) على أتباع الثقافة المخالفة، فيصبحون بدورهم شياطين (أبالسة) يجب القضاء عليهم، أو على الأقل إخراجهم من دائرة التاريخ، بتحويلهم الى مجرد أرقّاء لأتباع (الثقافة المقدسة).

وفي إطار هذه الظاهرة تصبح أسطورة الضّحاك (أزدهاك) أكثر وضوحاً، فالنخب الفارسية- مثقفين وساسةً- كانت توظّف أسطورة الضحّاك في كل عصر بما يخدم أهدافها الإستراتيجية، وكانت تلك الأهداف تتلخّص في إزاحة القوي الكبري الموجودة على الساحة الغرب آسيوية، والسيطرة على مقدَّرات غربي آسيا أرضاً وشعوباً وثروات.

وواضح من المعلومات التي أوردها المؤرخ الأرمني موسي خُوروني أن أزدهاك هو (أستياگ)، ملك ميديا الأخير، ويسمّي (أستياگز) Astuages أيضاً، ويسمّيه هيرودوت (أستياجيس)، ولاحظوا سهولة التبادلات الصوتية بين حرفي (س، ز)، وحرفي (ت، د)، وحرفي (هـ، ي)، ورغم أن هذا الملك الميدي كان قد تزوّج أخت الملك الأرمني تيگران (ديگران)، فإن هذا الأخير تعاون مع الملك الفارسي الأخميني كورش الثاني للقضاء على حكم أستياگ[1] .

وهذا يعني أن النخب الفارسية التي كانت تابعة للدولة الميدية، عندما قررت القضاء على الملك الميدي، وإزاحته عن طريق المشروع الفارسي، والسيطرة على إمبراطورية ميديا، عمدت الى شَيْطنة أستياگ، عبر التجسير اللغوي بين اسمه ولقب أزدهاك (أژدهاك= أژدها= التنّين)، وبين أيدينا مؤشران جغرافيان على ذلك:

---

١. انظر دياكونوف: ميديا، ص ٣٢٣. طه باقر وآخران: تاريخ إيران القديم، ص ٤١ - ٤٢ .

أولهما أن الروايات التي ذكرت قصة الضحّاك بالتفصيل أكّدت على أن وزيره كان يأمر العتقاء بالذهاب الى جبل دُنباوَنْد (دُماوَنْد= دَباوَنْد) والإقامة فيه، والحقيقة أن هذا الجبل يقع بين مدينة (رَيْ) غرباً (آثارها قرب طهران الآن) ومنطقة طَبَرِستان شرقاً، وهي مناطق كان يسكنها الميديون، وفي المصادر الإسلامية عُرِف الشعب الذي كان يقيم فيه باسم (الدَّيْلَم)، وقد يكون الديلم أحد فروع الميديين[1] .

وثانيهما أن كورش الأخميني بعد انتصاره على الملك الميدي أستياگ سنة (٥٥٠ ق.م)، نفاه الى منطقة تسمّي (هيركانيا)، إذ كان حاكم هذه المنطقة ناقماً بدوره على أستياگ، ومتحالفاً مع كورش، وتقع هيركانيا في المنطقة ذاتها التي يقع فيها جبل دنباوند؛ أي أن هيركانيا كانت تقع أيضاً بين مدينة (رَيْ) غرباً ومنطقة طَبَرِستان شرقاً[2] .

وفي إطار مشروع شيطنة أستياگ حيكت قصةُ الحلم الذي رآه في منامه، وخوفُه من أن يقضي عليه حفيده المتوقَّع ولادته (كورش بن قَمْبيز من ابنته مانْدانا)، وقسوتُه حينما استقدم ابنته مع طفلها الى القصر، ثم تكليفُه كبير قادة الجيش الميدي هارپاگ (آر پاك) بقتل الطفل، ولما اكتشف أن هارباط قصّر في تنفيذ المهمّة، طلب من الراعي مِيثْرادات إرسال الصبي كورش الى القصر الملكي، ثم طلب من هارباط إرسال ابنه الصبي ليلاعب كورش، ثم أمر بقتل الصبي وطبْخه، وتقديمه طعاماً لوالده، وبعد أن شبع الوالد أخبره أستياگ أنه كان يأكل لحم ولده، جزاء له على خيانته في تنفيذ المهمة التي أُوكلت إليه[3] .

وبعد تقديم أستياگ الميدي بهذه الصورة الوحشية المنفّرة المقزّزة كيف لا يتحوّل في الذاكرة الشعبية الى شخص مقيت وشرير؛ أي الى شيطان (إبليس)؟ ومن يجرؤ على التعاطف معه؟ وكيف يمكن الدفا ع عنه؟ وكيف يمكن لأتباعه الميديين (جدود الكرد) أن يكونوا بمنجاة من تُهمة أنهم أتبا ع رجل دموي شرير عمل بنصيحة إبليس؟ وكيف يمكن أن يكونوا بمنأي من الانتقام المقدس؟

---

١. انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٢/٥٤٠ – ٥٤١ .

٢. دياكونوف: ميديا، ص٣٩٧ .

٣. انظر هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٨٢ – ٨٨ .

**أَبْلَسة الضحّاك العربي:**

حسناً، لقد عمدت الآلة الدعائية الفارسية الى تحويل أستياگ الى (أزدهاك= أذدها) في الذاكرة الآريانية خاصة، وفي الذاكرة الغرب آسيوية عامة، بل وفي تاريخ البشرية أيضاً، لكن ما علاقة (الضحّاك) العربي بهذا المسألة؟

لا يمكن فهم مسألة إقحام (الضحّاك) العربي في هذه الأسطورة ما لم نأخذ في الحسبان الظروف التاريخية التي نسج فيها الفِرْدَوسي، ومن سبقه من الشعراء الفرس مثل الدَّقيقي وغيره، خيوط هذه الأسطورة، فقد مرّ أن الذاكرة الفارسية، حوالي منتصف الثاني الهجري (الثامن الميلادي)، كانت ما تزال عامرة بأمجاد الدُّول الفارسية قبل الإسلام، وصحيح أن العرب المسلمين أسقطوا الدولة الساسانية، وورثوا ممتلكاتها من حدود الهند والصين شرقاً الى تخوم شبه الجزيرة العربية غرباً، لكن كان من المُحال تفريغ الذاكرة الفارسية من أمجادها القومية.

وبمجرد أن ظهرت الدول الفارسية المستقلة ( الدولة الطاهرية، الدولة الصُّفّارية، الدولة السامانية) في بلاد آريانا (إيران)، خلال القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، هيّأ الساسة الفرس المناخ كي تنشط النخب المثقفة، وتعيد إحياء ما بقي في الذاكرة الفارسية من رواسب التاريخ القومي، وبما أن ذلك التاريخ كان قد تأسس منذ فجر عصر التكوين على الأساطير- وهذه حقيقة تؤكدها الشاهنامة بوضوح- كان من الطبيعي أن يعاد إحياء تلك الأساطير، وأن تُوظَّف مرة أخرى بما يخدم المشروع القومي الفارسي الناهض.

لكن من هي الجهة التي كانت تقف عائقاً في طريق المشروع الفارسي في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)؟ إنها الدولة العربية الإسلامية، ممثَّلة في الخلافة العباسية؛ فكان لا بد - والحال هذه- من تكريس مشروع لشَيْطنة العرب هذه المرة، وكان لا بد من أن تعاد صياغة أسطورة (أذدها= أذدهاك) بما يتناسب مع المشروع الجديد، وفي كل مرة يجد القائمون على مشروع الشيطنة (الأبلسة) آليات كفيلة بتحقيق الأهداف المرسومة، وهذه المرة كان التجسير اللغوي بين الاسم العربي (الضحّاك) واللقب الآرياني (أزدهاك= أزدهاق) هي الآلية المناسبة، وبطبيعة الحال لا يهم صاحب الذهنية الأسطورية- مُنتِجاً كان أم متلقّياً- أن تتعارض رواياته مع الواقع، فبالنسبة له (الأسطورة) هي (الواقع).

ولتكن رواية الفِرْدوسي هي مصدرنا لتفحّص مشروع شيطنة (أبلسة) العرب، فقد أصبح جَمْشيذ (جمشيد) بن طَهْمُورت بن أُوشهنج (هُوشَنْط) بن سيامك بن جيُومرت (طيُومرت) هو الملك الرابع الأكبر في سلسلة ملوك الفرس الأوائل، واستكمل جهود والده طهمورت وجدّه أوشهنج في نشر الحضارة، قال الفردوسي يصف حال جمشيد:

"فلما استكمل جميع أسباب العز والرخاء، تجبّر وتكبّر وتسلّط، وتخلّي عن المعونة الإلهية، فاضطرب حكمه، وعمّت الفوضى، ودبّ الذعر، وانتشر الفساد، وهرب العلماء والحكماء، وارتجّت بذلك الأرض والسماء"[١] .

وماذا كانت النتيجة؟

"انشقّ ملوك الفرس أجمعون عن طاعة ملكهم الأكبر، واستبدّوا في الرأي والمُلك، واجتمعوا الى الضحّاك ابن ملك العرب، ليخلّصهم من جمشيذ، فما كان منه إلاّ أن نصب نفسه ملكاً عليهم، وقصد جمشيذ الذي هرب الى أرض الهند، واختفى ليظهر بعد مرور مئة سنة، فقصده الضحّاك ثانية، وقضى عليه، آمراً قتله بالمنشار بعد حكم دام سبعمئة سنة"[٢] .

ومن هو الضحّاك؟

"أما الضحّاك فهذا لقبه، وهو بيوَراسْب بن مِرْداس ملك العرب الذي عُرف بصلاح حكمه، وحبه لشعبه، وهو شابّ يقتني آلاف الخيل المُسرَجة بسروج الذهب والفضة، والمرصَّعة بالجواهر الثمينة، يحب اللهو والطرب والصيد والطَرْد، وكان له من الجن خادم يُدعي إبليس"[٣] .

وإذا سألنا الفردوسي: متي وقعت تلك الأحداث؟ ولماذا أسرع ملوك فارس الى وضع أنفسهم تحت إمرة ملك عربي للخلاص من جمشيذ، وليس تحت إمرة زعيم فارسي؟ وأين كان الملك العربي مِرْداس يحكم حينذاك؟ فالمعروف أن الملوك لم يوجدوا في بلاد العرب قبل الميلاد إلا في اليمن، وكان ذلك حوالي ألف سنة قبل الميلاد، مع ظهور دولة مَعِين ودولة قَتَبان، ثم دولة سَبَأ، ثم دولة حِمْيَر[٤]، في حين تعود أحداث قصة (الضحّاك)

---

١. الفردوسي: الشاهنامه، ص ١٠ .

٢. المرجع السابق نفسه.

٣. الفردوسي: الشاهنامه، ص ١٠ – ١١ .

٤. صالح أحمد العلي: تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية، ص ٢١، ٢٣ . منذر عبد الكريم: دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ٢١٦ .

الى فجر التاريخ البشري. ثم كيف يكون الملك عربياً ويكون اسمه آريانياً فارسياً (بِيوَراسْب) أي صاحب عشرة آلاف فرس؟

إن الفردوسي غير معنيّ بالإجابة عن هذه الأسئلة، فبإعتباره أحد كبار قادة إيقاظ الروح القومية الفارسية يهمّه أن يوصل الحاضر بالماضي في الذاكرة الفارسية، ويعمل لتحرير الشخصية الفارسية من سلطة الثقافة العربية، عبر شيطنة ( أبْلَسة) تلك الثقافة، فكان من الضروري استنساخ أزدهاك (أذدها) عربي في شخص (الضحّاك) من الأزدهاك الآرياني الذي كان الملك الميدي (أستياگ) آخر تجلّياته، وكان من الضروري أيضاً تحويل الضحّاك العربي الى كائن إبليسي دموي، يوظّف أدمغة البشر لخلاصه الشخصي، وكي تتخلّص الشعوب من دموية الضحّاك العربي لا يكون ذلك على يدي منقذ عربي، وإنما يكون المنقذ فارسيّاً من سلالة جمشيد؛ إنه الفتى أفريدون، بتأييد من الفارسي الأصبهاني كاوَه الحداد.

ولا يحتاج المرء الى كثير عناء لاكتشاف أوجه الشبه بين المحاور الأساسية في أسطورة الأزدهاك الميدي (أستياگ)، والمحاور الأساسية في أسطورة الأزدهاك العربي (الضحّاك)، ففي القرن السادس قبل الميلاد كان المطلوب إزاحة أستياگ من العرش الميدي؛ لفتح الطريق أمام المشروع التوسعي الفارسي. وفي القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) كان من الضروري إزاحة الأزدهاك العربي (الضحّاك)؛ أي السلطة العربية متمثّلة في (الخلافة)؛ لإحياء المشروع القومي الفارسي بأبعاده الإمبراطورية.

وإليكم بعض المقاربات في هذا الشأن:

- كان أستياگ الميدي ملكاً طيباً، ثم تحوّل الى طاغية. وكذلك كان شأن الضحّاك العربي.
- كان أستياگ الميدي كثير الغنى والبذخ، يمتلك آلاف الخيول، محباً للهو والطرب. وكذلك كان الضحّاك العربي.
- رأي أستياگ الميدي حلماً غريباً فسّره له المنجّمون بأن حفيده الفارسي من ابنته ماندانا سيجرده من السلطة، ويحكم بدلاً منه. وكذلك رأي الضحّاك العربي حلماً غريباً، فسّره المنجّمون بأن طفلاً من سلالة جمشيذ الفارسي سيولد، وسيحكم بدلاً منه.

- حاول أستياگ الميدي قتل حفيده الفارسي فور ولادته. وحاول الضحّاك العربي قتل الطفل أفريدون الفارسي فور ولادته.
- تدخّلت الأقدار، وأنقذت الطفل كورش الفارسي من القتل، ولما صار صبياً ظهرت أمارات المُلك في ملامحه وتصرفاته. وكذلك نجا الطفل أفريدون من القتل، وظهرت عليه أمارات المُلك منذ عهد الصبى.
- كان القائد الميدي هارباط يتعاون سراً مع كورش، ويتآمر على سيّده أستياگ. وفي الشاهنامة مؤشّرات على أن كندرو وزير الضحّاك كان متعاوناً في السر مع أفريدون، ومن تلك المؤشرات قول الفردوسي: "جلس أفريدون على عرش الضحّاك بين معاونيه وجواريه، ودخل عليه وزير الضحّاك كندرو، فخرّ ساجداً بين يديه، وأطلق لسانه بالدعاء لاستدامة مُلكه العليّ، وتحادثا طويلاً عمّا قاساه الناس من ظلم الضحّاك"[1] .
- لما انتصر كورش على أستياگ لم يقتله، واكتفى بإبعاده الى مقاطعة هيركانيا، ووضعه تحت الإقامة الجبرية. ولما انتصر أفريدون على الضحّاك سجنه في جبل دُنباوَنْد.

**الحقيقة كما هي:**

وكنت أتذكر- وأنا أقرأ أسطورة أزدهاك في الشاهنامه وغيرها- تلك الرواية الشعبية الشائعة بين الشعوب الآريانية، ومنهم الكرد، بشأن الملك المستبد (دهاك)، والبطل الثائر (كاوَه) الحداد، وارتباط تلك الثورة بعيد نَوْرُوز (نُورُوذ) الذي تحتفل به جميع الشعوب الآريانية في (٢١) آذار/ مارس من كل عام، باعتبار أنه اليوم الذي تم فيه الخلاص من ظلم (دهاك)، وإيقاد النيران مساء ذلك اليوم على قمم الجبال وفي المرتفعات، إما كإشارة لإعلان الثورة، وإما استبشاراً بانتصار الثورة، وهذا ما لم يُذكر في الروايات السابقة.

بلى لست أنسى هذا كله، ولست أنكر أن الخطوط العامة للرواية الشعبية السائدة شبيهة الى حد كبير بما ورد في المصادر الفارسية، وأري من الصعب أن تتفق الشعوب الآريانية جميعها، وطوال عشرات القرون، على الاحتفال بحدث لا علاقة له بالحقيقة مطلقاً، وينبغي ألا نرمي بهذه القصة وراء ظهورنا، فإنها لا تخلو من دلالات

---

١. الفردوسي: الشاهنامه، ص ١٧ - ١٨ .

تاريخية، ومن رموز ميثولوجية، لها صلة بفجر تاريخ الشعوب الآريانية، وجدير بالاهتمام هنا أن نأخذ في الحسبان الأمور الآتية:

- مكانة (الشمس) في الميثولوجيا الآريانية بشكل عام، وفي الديانة الميثرائية خاصة، ومكانتها في الزردشتية سليلة الميثرائية.
- حرص الكرد على إشعال النار بُعيد غياب شمس يوم (٢٠) آذار/مارس، ولعل بقية الشعوب الآريانية تفعل ذلك أيضاً، وكأنما ذلك يرمز الى دحر الظلامية المتمثلة في الليل، والإصرار على استمرار النورانية الإلهية المتمثلة في الشمس، بل إن الكرد كانوا يحرصون، حتى عهد قريب، على إشعال النار في مناسبات الأعراس، والقفز من فوقها (رمزية التطهير)، ولعلهم ما زالوا يفعلون ذلك في القرى، وكنت في أيام صباي ممن يفعل ذلك.
- ارتباط أحداث الصراع مع أزدهاك (الضحّاك) بعيدَين هما أعظم أعياد الشعوب الآريانية: الأول عيد مِهْرَجان، ومعناه عيد (روح الشمس) باعتبار أن (مِهر) اسم (الشمس)، و(جان) تعني (روح)، ولا حظوا هنا أن كلمة (مهرجان) دخلت العربية في وقت مبكّر جداً من العهود الإسلامية، وصارت تعني (احتفال). والعيد الثاني هو عيد نُورُوز.
- (دهوك) كلمة ميدية تعني صاحب الإقليم، وسُجِّلت في المدوَّنات الآشورية بصيغة (دهياوكو)، وهذا يذكّرنا باسم الزعيم الميدي (دِياكو)، ويسمّيه هيرودوت (ديوسيس)، وأخذت كلمة (دهوك) في البهلوية صيغة (دهاك)، أو (دهيك)، واشتق العرب منها صيغة (دِهْقان)، وهي تعني في التراث الإسلامي (زعيم قرية، زعيم منطقة) وجمعها (دَهاقِنَة)[1] .
- القرابة الصوتية الوثيقة بين صيغة (دهاك) الآريانية، وصيغة (ضحّاك) العربية، تثير احتمال أن يكون اسم (الضحّاك) العربي تعريباً لكلمة (دهاك) الآرياني، إذ لا يتّسق مع الثقافة العربية، وخاصة في مجال إطلاق الأسماء على الذكور، أن يسمّي الرجل (ضحّاك) بدلالته اللغوية العربية التي تعني المبالغة في الضحك في حين يتّسق مع الدلالة اللغوية في الأصل الآرياني (الكردي، الفارسي)، إذ تحمل معاني الرفعة والقوة والسيطرة.

---

١. مجموعة من الباحثين: كركوك، بحث د. جمال رشيد، ص ١٦٩، هامش ٢ .

- حرص الفرس في جميع عهودهم الإمبراطورية ليس فقط على إزالة كل ما يتعلق بتاريخ الميديين، وإنما عملوا بكل وسيلة لتشويه صورتهم، وخاصة صورة آخر ملوكهم أستياگ.
- كلمة (أژدها) بالكردية- وهي من أعرق اللغات الآريانية- تعني (الحيّة الضخمة المرعبة= التنّين)، وربما لها المعنى نفسه بالفارسية أيضاً، ولاحظوا ظهور (حيّتين) في جميع الروايات التي تناولت قصة الضحّاك.

حينما آخذ هذه المعطيات بالحسبان، وأضم إليها ما هو معروف عن الشعوب الآريانية ميثولوجياً واجتماعياً وسياسياً، أرجّح الآتي:

١ - توجد تقاطعات دقيقة، في أحداث قصة الضحّاك، بين اثنين من محاور حياة الشعوب الآريانية: محور ميثولوجي، ومحور اجتماعي سياسي، ويتجلّى ذلك في التطابق بين عيدي مهرجان ونوروز، والانتصار على الضحّاك.

٢ - الأرجح أن أحداث هذه القصة تعود، في جذورها الأولى، الى العهد الذي كانت فيه القبائل الآريانية تعيش مجتمعة في وسط آسيا (جنوبي روسيا)، قبل الميلاد بأكثر من ثلاثة آلاف عام، ولا ننس أن أقدم ما ورد في الأظستا (الأبستاق) يعود الى تلك العهود.

٣ - بعد أن انتشرت القبائل الآريانية جنوباً وغرباً، وتحولّت الى شعوب وقوميات، وتفرّعت من الثقافة الآريانية المشتركة العريقة ثقافات قومية عديدة، تختزنها ذاكرات قومية خاصة، وابتعدت لهجاتها بعضها من بعض، وصارت لغات مستقلة، أخذت هذه القصة طابعاً خاصاً في ذاكرة كل شعب، وأُسقطت عليها إحداثيات مختلفة، كانت في كل مرة نتيجة معطيات تاريخية معيّنة.

٤ - بما أن الفرس سيطروا منذ سنة (٥٥٠ ق.م) على مقاليد الأمور في غربي آسيا، وخاصة في آريانا الكبري (أفغانستان، والقسم الغربي من پاكستان، وبلوشستان، وفارس، وكردستان، وأذربيجان)، فقد احتكروا إنتاج الثقافة وتسويقها، وفي إطار ذلك أعادوا صياغة بعض المكوّنات الأسطورية في ثقافة آريانا، بما يتناسب مع مشروعهم للهيمنة والتوسع، وسوّقوها في كل عهد بما يخدم أغراض ذلك المشروع، وليست أسطورة الضحّاك إلا نموذجاً لذلك.

**ما وراء الكلمات:**

وأما ظهور الكرد بصورة العتقاء في أسطورة الضحّاك فيُراد به ما يلي:

١ – الكرد في الأصل سلالة من (العتقاء، الطرداء)، وكان أجدادهم من الأسرى الذي كان يمكن أن يُقتلوا، لولا أن منّ عليهم (الطبّاخ/الوزير) بالحياة.

٢ – الكرد ليسوا تكويناً عرقياً واحداً، إنهم مزيج غير معروف الهوية، والدليل على ذلك أن الرواية لا تذكر شيئاً عن هوية أولئك العتقاء، فهم كانوا من خليط شتّى.

٣ – الكرد شعب متوحش، مواطنهم الجبال، لا يفقهون أبجدية الحضارة، ولا يمكن أن ينتقلوا من دائرة (التوحش) الى دائرة (التمدن).

والخلاصة أن ظهور الكرد في أسطورة الضحّاك ليس أمراً فريداً، إنه حلقة في سلسلة الحملات التي دُشّنت في غربي آسيا لتشويه صورة الكرد منذ سقوط دولة ميديا سنة (٥٥٠ ق.م)، وتسلّلت من بعد الى مصادر التراث الإسلامي، وبطبيعة الحال لم يقتصر تعميم صورة الكرد المشوّهة على الذاكرة الغرب آسيوية فقط، وإنما عُمّمت على ذاكرة الشعوب الإسلامية جميعها، بإعتبار أن مصادر التراث الإسلامي منتشرة في بلاد المسلمين جميعها، وكل من يطّلع على تلك المصادر يخرج منها– شئنا أم أبينا– إنطباع سيّئ عن الكرد، وخاصة أن عامّة المسلمين، وقسماً كبيراً من خاصّتهم، يتعاملون مع معظم ما جاء في التراث الإسلامي بقدر كبير من القبول والتسليم، ولا يُخضعونه للفحص والتحقيق.

## ١٣

# الكرد سلالة الجنّ

**روايات ومفارقات:**

وردت في المصادر التراثية الإسلامية أربع روايات تنسب الكرد الى الجن تارة، والى الشيطان (الجسد) والشياطين عامة تارة أخرى:

- الأولى أوردها المؤرخ العربي المَسْعودي (ت حوالي ٣٤٦ هـ - ٩٥٧ م) في كتابه (مروج الذهب ومعادن الجوهر).
- والثانية أوردها الفقيه الشيعي الاثنا عشري المشهور أبو جعفر الكُلِيني الرازي (ت ٣٢٨ هـ - ٩٤٠ م) في كتابه (الكافي)، وأصله من قرية (كُلِين) في منطقة الرَّيّ (قرب طهران حالياً).
- والثالثة أوردها الأديب الفارسي الراغب الأصْفَهاني (ت ٥٠٢ هـ - ١١٠٨ م) في كتابه (محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء).
- والرابعة أوردها الأمير والمؤرخ الكردي شَرَف خان بَدْلِيسي (ت ١٠١٣ هـ - ١٦٠٤ م) في كتابه (شَرَفنامه).

وزمن هذه الروايات يمتد الى ستة قرون ونصف، وهذا زمن ليس بالقليل في تاريخ غربي آسيا الإسلامي، وهو دليل على أن الرواية كانت حيّة في الذاكرة الغرب آسيوية طوال تلك المدة.

وثمة حدثان بارزان بشأن الكرد في تاريخ غربي آسيا، بدءاً من القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)، كان من المتوقَّع لهما أن يكبحا جماح البعد الأسطوري في هذه الروايات، ويزحزحا ما فيها من سذاجة وفجاجة، وينقّحاها من اللاواقعية واللامعقولية، ويعيدا الذهنية الغرب آسيوية الى الصواب في تناول أمور حسّاسة كهذه؛ لكن الأمور لم تسر في الاتجاه الذي كان ينبغي أن تسير فيه، والحدثان البارزان هما:

١ – نبوغ الكرد سياسياً في عهد الدولة المَرْوانية (الدُّوسْتِكية)، خلال القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، ثم بصورة أقوى في عهد الدولة الأيوبية، خلال القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي).

٢ – نبوغ الكرد ثقافياً عامة، وفي مجال الثقافة الدينية خاصة، بفضل عدد كبير من الفقهاء، وخاصة من مدينة شَهْرَزُور في جنوبي كردستان، وبلغ بعض هؤلاء مقاماً رفيعاً في بلاط الخلفاء ببغداد، وفي عهد الدولة الزَّنْكية التركمانية، وكانوا مشهورين في ميادين العلم، أذكر منهم على سبيل المثال: القاضي كمال الدين الشَّهْرَزُوري، والقاضي ضياء الدين الشَّهْرَزُوري، وشيخ الإسلام ابن الصَّلاح الشَّهْرَزُوري.

بلى، كان من المتوقع، بعد هذا النبوغ الكردي، أن تعيد الذهنية الغرب آسيوية النظر في التفسير الأسطوري لأصل الكرد؛ إذ كيف يمكن لنسل (الجن والشياطين) أن يصبحوا شيوخ الإسلام وأئمته؟ وكيف يمكنهم أن يدبّجوا المصنّفات المرموقة، والمعتمَدة الى يومنا هذا، في العقيدة والشريعة؟ وكيف يمكن لحفدة (الجن والشياطين) أن يصبحوا سادة شعوب غربي آسيا، ويوحّدوا صفوفها، ويقودوها لردّ أعتي هجمات الفرنج، ويعيدوا مدينة القدس (أُولى القِبلتين وثاني الحَرَمين) الى المسلمين، في وقت كان فيه حفيد (الإنس) وأمير المؤمنين الخليفة العباسي منشغلاً مع بِطانته بمصالحه وملذّاته؟

إنها لمفارقة يصعب تجاهلها، ولا يمكن فهمها إلا في إطار التوجّه العام الذي كان يتحكّم في تشكيل الذاكرة الغرب آسيوية، ولا يمكن تفسيرها إلا بمعرفة النوايا الخفية لنُخَب غرب آسيوية معيّنة، إن تلك النخب كانت تبذل كل ما في وسعها لتشكيل تلك الذاكرة بما يتناسب مع مطامحها ومطامعها، ويبدو أن الكرد كانوا يشكّلون عقبة صعبة في طريق تلك المطامح والمطامع، فكان لا بد من إزالة تلك العقبة بكل وسيلة، وكانت أبلسة (شَيطنة) الكرد من أكثر تلك الوسائل فاعلية.

والآن دعونا نتفحّص الروايات الأربع.

## تحليل الرواية الأولى:

قال المسعودي بشأن أصل الكرد:

"ومن الناس من ألحقهم بإماء[1] سليمان بن داود عليه السلام حين سُلب مُلكَه، ووقع على إمائه المنافقات الشيطانُ المعروف بالجَسَد، وعَصَم الله منه المؤمنات أن يقع عليهن، فعَلِق[2] منه المنافقاتُ، فلمّا ردّ الله على سليمان مُلكَه، ووضع الإماءُ الحواملُ من الشيطان، قال: اكردوهن[3] الى الجبال والأودية. فربّتهم أمهاتهم، وتناكحوا، وتناسلوا، فذلك بدءُ نَسَب الكرد"[4] .

وإليكم الملاحظات الآتية على هذه الرواية:

الملاحظة الأولى: يبدو أن القائلين بهذه الرواية لم يكونوا أفراداً معدودين على أصابع اليد الواحدة كما يقال، وإنما كانوا جماعة (من الناس)، والمثير للإنتباه أن تلك الجماعة لم تكن محتارة في أصل العرب والفرس والأرمن والسريان، وغيرهم من شعوب غربي آسيا، وإنما كانت محتارة في أصل الكرد فقط، فالكرد – حسب تصوّرها– مخلوقات غير عادية، وبناء على ذلك لم تجد الجماعة الحائرة مسوِّغاً منطقياً لتنسيبهم الى بني آدم الأسوياء، فكان المَخرج الذي اخترعوه هو إلحاقهم بإماء النبي سليمان المنافقات وبالشيطان (الجَسَد).

الملاحظة الثانية: إن مخترعي هذه الرواية أقاموها على أرضية دينية قرآنية؛ أي على أرضية (المقدس)، وكانوا يعلمون أنها – أقصد الرواية– ستكون عندئذ أسرع قبولاً عند المسلمين خاصّتهم وعامّتهم، والأرضية القرآنية الموظَّفة في هذا الميدان هي الآيات الآتية:

{وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ. إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ. فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ. رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ. وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ}[5] .

---

١. الإماء: الجواري.

٢. علق: حَبل.

٣. اكردوهن: اطردوهن.

٤. المسعودي: مروج الذهب، ٢/١٢٤ .

٥. سورة ص، الآيات ٣٤ – ٣٨ .

الملاحظة الثالثة: ليس في هذه الآيات، ولا في بقية الآيات القرآنية ذات الصلة بقصة النبي سليمان، أيّة علاقة لا بالكرد ولا بغير الكرد، وليس في كتب التفسير قديمها وحديثها- رغم أن أغلبها زاخر بالأساطير وغرائب عالم اللامعقول- أيّ ذكر لعلاقة الكرد بقصة النبي سليمان، وقل الأمر نفسه في الكتب الخاصة بأسباب نزول الآيات، وفي الكتب الخاصة بالناسخ والمنسوخ في القرآن، ولا شيء عن الكرد في الأحاديث التي وردت فيها معلومات لها صلة بآية {وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ}، ثم إن الآية تذكر أن الله ألقى على كرسي سليمان جسداً، ولم تذكر أن ذلك الجسد كان شيطاناً، فما هي العلاقة بين الجسد والشيطان؟ وما هو المصدر الذي اعتمد عليه مخترعو هذه الرواية؟

الملاحظة الرابعة: وقف علماء التفسير حائرين أمام تفسير الآية الخاصة بسليمان والكرسي والجسد، وكما هي عادة أغلبهم في مثل هذه الأمور المُلْبِسة لم يمتلكوا الجرأة على أن يقولوا: (لا نعلم)، وإنما لجأوا الى التفسيرات الأسطورية، واستعانوا بعالم اللامعقول، وأكتفي بذكر ما أورده ابن جَرِير الطَّبَري في هذا الشأن، فهو - بالقياس الى غيره- من المفسرين المشهود لهم بالتحري والدقة، وإليكم خلاصة ما ذكره:

كان لسليمان مئة امرأة، وكانت إحداهن، واسمها جَرادة، أحبَّ نسائه إليه، وكان إذا جامع النساء، أو أراد قضاء الحاجة، يخلع خاتَم المُلك، ولا يأتمن عليه أحداً من الناس غيرَ جَرادة، وذات يوم خلع الخاتَم وأعطاه لجَرادة، ودخل لقضاء الحاجة، فانتهز الشيطان الفرصة، وتمثّل في صورة سليمان، وقال لجرادة: هاتي الخاتم. فأعطته باعتبار أنه سليمان، وذهب الشيطان المتنكّر في شكل سليمان، وجلس على عرش المُلك، وصار سيّد القصر بما فيه من نساء سليمان، وأصبح الآمر الناهي في المملكة.

وبعد أن قضى سليمان الحاجة، طلب من جرادة أن تعطيه خاتمه، فقالت له: ألم تأخذه؟ فقال: لم آخذه. فأنكرت عليه ذلك، وصار سليمان الحقيقي متهماً بأنه محتال يزعم أنه سليمان، فخرج من القصر هائماً على وجههً، وظل الشيطان يحكم في المملكة أربعين يوماً. لكن كبار فقهاء بني إسرائيل أنكروا عليه أحكامه، وشكّوا في أمره، وأتوه ذات يوم وقد نشروا التوراة (كتاب الله)، وقرأوه عليه، فطار الشيطان من بين أيديهم حتى وقع على شُرفة والخاتم معه، ثم طار حتى ذهب الى البحر، فوقع الخاتَم منه في البحر، فابتلعه حوت من حيتان البحر.

أما سليمان الحقيقي فطُرد من القصر، فتشرّد واشتد جوعه، وطلب من صيادي البحر أن يطعموه من صيدهم، وقال لهم: إني أنا سليمان. فسخروا منه، وضربه بعضهم فشجّ رأسه، فلام الصيادون زميلهم، وأعطوا سليمان سمكتين كانتا قد تعفّنتا، فوجد خاتمه في بطن إحداهما، فلبسه في إصبعه، فردّ اللّه عليه مُلكه، وعاد الى قصره، وباشر الحكم كالسابق، وسخّر اللّه له الريح والشياطين يومئذ، ولم تكن سُخّرت له قبل ذلك، وأمر بإلقاء القبض على الشيطان، فوُضع في صندوق من حديد، ثم أُطبق عليه فأُقفل عليه بقفل، وختَم سليمان عليه بخاتَمه، ثم أمر به، فأُلقي في البحر، فهو فيه حتى تقوم الساعة[1] .

الملاحظة الخامسة: لم يأت بقية المفسرين بجديد في هذا المجال، وظلوا يدورون في فلك التفسير الأسطوري، واختلفوا في اسم الجني (الشيطان) فهو تارة (حَبْقيق)، وأخرى (صَخْر)، وثالثة (آصَر)، ورابعة (آصَف). وثمة تفسير آخر أورده القُرْطُبي، وخلاصته أن سليمان كان قد فرض أعمال السخرة على الشياطين، ولمّا وُلد لسليمان ولد اسمه (جَسَد) "اجتمعت الشياطين، وقال بعضهم لبعض: إن عاش له ابنٌ لم نَنْفَكّ مما نحن فيه من البلاء والسُّخرة، فتعالَوا نقتلْ ولده أو نُخبله[2] . فعلم سليمان بذلك فأمر الريح حتى حملته[3] الى السحاب، وغدا ابنه في السحاب خوفاً من مضرّة الشياطين، فعاقبه الله بخوفه من الشياطين، فلم يَشعر إلا وقد وقع[4] على كرسيّه ميتاً"[5] .

الملاحظة السادسة: اقتبس المفسرون هذه المعلومات الخرافية مما كان يرويه بعض المتخصصين في المزج بين الواقع والخرافة، ويرتزقون بها، من أمثال وَهْب بن مُنَبِّه، ومحمد بن إسحاق، وطاوُوس بن كَيْسان، ويَسار أبو نُجَيْح، ومُجاهد بن جَبْر، وإسماعيل السُّدّي، وشَهْر بن حَوْشَب، وكلهم من الموالي، ومعظمهم من أصل فارسي، أو من حملة الثقافة الفارسية قبل الإسلام، وكما هي عادتهم كانوا ينسبون تلك الروايات الى بعض كبار الصحابة من أمثال عليّ بن أبي طالب، وعبداللّه بن عبّاس،

---

٠١ الطبري: جامع البيان، ١٥٩/٢٣ .

٠٢ نخبله: نصيبه بالجنون.

٠٣ حملت الولد.

٠٤ وقع الولد.

٠٥ القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ٢٠١/١٥ .

وأبي هُرَيْرة، كي يتم تسويقها على نحو أفضل، ولإيهام الناس بأن ما يروونه هو حقائق لا شك فيها.

الملاحظة السابعة: تنبّه سيّد قُطْب- وهو من كبار المفسرين في القرن العشرين- الى حيرة المفسرين القدامى في تفسير الإشارتين الواردتين بشأن (الصافِنات الجِياد) و(الجسد) الذي أُلقي على كرسيّ سليمان، فقال:

"كلتاهما إشارتان لم تسترح نفسي لأيّ تفسير أو رواية مما احتوته التفاسير والروايات عنهما. فهي إما إسرائيليات مُنْكَرة، وإما تأويلات لا سَنَد لها، ولم أستطع أن أتصوّر طبيعة الحادثين تصوّراً يطمئن إليه قلبي، فأصوّره هنا وأحكيه"[1] .

وأضاف سيّد قطب أنه لم يجد في الموروث الديني دليلاً يحمله على الثقة بما جاء في تفسير أمر (الصافنات الجياد) و(الجسد)، سوى حديث نبوي رواه أبو هريرة، وأخرجه البُخاري في صحيحه مرفوعاً (يتصل سنده بالنبي)، وأضاف قائلاً: "ولكن علاقته بأحد هذين الحادثين ليست أكيدة"[2] . ونص الحديث الذي أشار إليه سيّد قطب هو:

"عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّي اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ سُلَيْمَانُ لأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى تِسْعِينَ امْرَأَةً[3] ، كُلُّهُنَّ تَأْتِي بِفَارِسٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّه. فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: قُلْ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ. فَلَمْ يَقُلْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. فَطَافَ عَلَيْهِنَّ جَمِيعًا، فَلَمْ يَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلاَّ امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ، جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ[4] . وَايْمُ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ[5] ، لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّه فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ"[6] .

وعلّق سيّد قطب على الحديث بقوله:

"وجائز أن تكون هذه هي الفتنة التي تشير إليها الآيات هنا، وأن يكون (الجسد) هو هذا الوليد الشِّق"[7] .

---

٠١ سيّد قطب: في ظلال القرآن، ٢٣/٩٩ .

٠٢ المرجع السابق نفسه.

٠٣ أي يضاجع تسعين امرأة.

٠٤ شِقّ رجل: نصف رجل.

٠٥ ايم الذي نفسي بيده: أقسم بالله.

٠٦ البخاري: صحيح البخاري، ٧/٢٨١ .

٠٧ سيّد قطب: في ظلال القرآن، ٢٣/٩٩ .

والخلاصة أن سيّد قطب لم يصدّق قصة الشيطان/ الجن و(الجسد).

الملاحظة الثامنة: قد يقال: بما أن للأمر صلة بالنبي سليمان، وهو نبي عبراني، فمن المحتمل أن يكون أصحاب هذه الرواية اقتبسوها من (الإسرائيليات). والحقيقة أننا أخذنا هذا الاحتمال في الحسبان، وعدنا الى سيرة النبي سليمان في (العهد القديم)، بدءاً من ولادته وحتى وفاته، فلم نجد فيها أي ذكر لا للكرد، ولا للجن، ولا أي ذكر لشيء اسمه (الجسد)؛ سواء أكان شيطاناً أم غير شيطان. وخلاصة ما جاء في التوراة بشأن افتتان النبي سليمان هو ما يلي:

أطلّ النبي داود من سطح قصره، فوجد امرأة جميلة جداً تستحمّ، فعشقها، وسأل عنها، وعرف أنها (بَثْشَبَع بِنْت أَلِيعَام)، زوجة أحد قادة جيشه المخلصين واسمه (أُورِيّا الحِثّي)، وكان في جبهة القتال، فأمر داود بإحضار المرأة، وضاجعها، فحَبِلت المرأة بعد حين، وأخبرت داود بذلك، ثم تحايل داود على أوريّا، وأمر بأن يكون في مواجهة بني عَمُّون الشديدي البأس (في شرقي الأردنّ) كي يُقتَل، وقُتل أوريّا فعلاً، فتزوّج داود امرأته، وكان سليمان هو ابنها الثاني من داود[1] .

ولما صار سليمان ملكاً على بني إسرائيل بعد وفاة والده أقام علاقات طيبة مع جيرانه، ووطّد تلك العلاقات بالزواج من بنات الأسر الحاكمة في البلدان المجاورة، فتزوج ابنة فرعون مصر، ومن العَمُّونيّات والأدُومِيّات (في شرقي الأردنّ)، ومن الفينيقيات والحثّيّات، ولم يُجبر زوجاته الأجنبيات على ترك أديانهن، وسمح بإقامة معابد للإلهة عَشْتَروت وللإله مُولوك وللإله كَمُوش، وكانت زوجاته الأجنبيات يمارسن الطقوس الخاصة بآلهتهن، فغضب يَهْوَه على سليمان، وأنذره بأنه سيعاقبه بتمزيق مُلكه، ولكن ليس في حياته، وإنما في عهد ابنه رَحُبْعام، وكان كذلك[2] .

هذه هي قصة النبي سليمان، وكما ترون ليس فيها ذكر لا للجسد، ولا للشيطان، ولا للكرد.

---

١. انظر العهد القديم، سفر صموئيل الثاني، الأصحاح ١١، الآيات ١- ٢٧ .

٢. انظر العهد القديم، سفر الملوك الأول، الأصحاح ١١، الآيات ١ - ١١، والأصحاح الثاني عشر، الآيات ١- ٢٠ .

**تحليل الرواية الثانية:**

قال الفقيه الإمامي (الاثنا عشري) الكُلِيني:

"عن أبي الرَّبيع الشامي، قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام (جعفر الصادق)، فقلت: إن عندنا قوماً من الأكراد، وأنهم لا يزالون يجيئون بالبيع، فنخالطهم ونبايعهم. فقال: يا أبا الرَّبيع، لا تخالطوهم، فإن الأكراد حيٌّ من أحياء الجن كشف الله عنهم الغطاء، فلا تخالطوهم"[1] .

وقال الكُلِيني أيضاً:

"عن أبي الرَّبيع الشامي، عن أبي عبد الله عليه السلام: ولا تُنكحوا الأكراد أحداً، فإنهم من جنس الجن كشف الله عنهم الغطاء"[2] .

الملاحظة الأولى: أُسندت الرواية الى شخصية ذات مقام رفيع جداً في التراث الإسلامي عامة، وفي التراث الشيعي خاصة؛ ألا وهو الإمام جعفر الصادق (ت ١٤٨ هـ - ٧٦٥ م) وهو ابن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وترتيبه السادس في سلسلة الأئمة الاثنا عشرية (الإمامية)، وهو الجد الأكبر لمن بعده من أئمة هذا المذهب.

ومن المفيد أن نأخذ في الحسبان هنا أن مفهوم (الإمامة) عند أهل الشيعة هو غيره عند أهل السنة، فمصطلح (الإمام) عند السنة متعدد الدلالات، يُطلق على من يؤمّ الناس في الصلاة (إمام المسجد)، وعلى العالم المتبحر في علوم الدين، كالإمام أبي حامد الغَزالي، وعلى مؤسس المذهب، كالإمام أبي حنيفة النُّعمان، والإمام مالك بن أنَس، والإمام الشافعي، والإمام أحمد بن حَنْبَل، وهم في النهاية أناس غير معصومين، يمكن أن يختلف المرء معهم، ولا يأخذ بقول من أقوالهم. أما عند الشيعة فالإمام معصوم، وطاعته واجبة؛ ومن هنا تأتي خطورة تنسيب الكرد الى الجن في الرواية المنسوبة الى الإمام جعفر الصادق.

الملاحظة الثانية: لم أعرف بدقة المكان الذي كان يعيش فيه أبو الربيع الشامي، لكن يُفهم مما رواه أنه كان يقيم في العراق على تخوم جنوبي كردستان، وهو من كبار

---

١. الكليني: الكافي، ١٥٨/٥ .

٢. المرجع السابق، ٣٥٢/٥، باب من كره مناكحته.

رجالات الشيعة الجعفرية (الاثنا عشرية)، وعندما يطلب رجل مثله الفتوى من كبير أئمة عصره (جعفر الصادق) بشأن التعامل مع الكرد، فذلك يعني أنه كان ثمة جدل بين الناس في موطنه حول هذا الأمر، ويعني أيضاً أنه كان ثمة فريق يبيح التعامل مع الكرد، وآخر يحرّم التعامل معهم، وبات مطلوباً من كبار علماء الشيعة من أمثال أبي الربيع الشامي حسم الموضوع، واحتار أبو الربيع وأقرانه في المسألة، فطلبوا الفتوى من المرجع الأكبر الإمام جعفر الصادق.

الملاحظة الثالثة: إن أبا الربيع طلب الفتوى بخصوص قوم من الكرد، كان هو وجماعته يتعاملون معهم بيعاً وشراء، لكن المفاجأة أن فتوى الإمام جعفر جاءت عامة، إذ أفتى بأن الكرد جميعهم (الجنس الكردي) من الجن أصلاً، وصرّح بذلك من خلال عبارتين (حيّ من أحياء الجن، من جنس الجن)، وبذلك يكون قد أكّد أن الأمر لا يتعلق بالفرع (قوم من الكرد)، وإنما هو متعلق بالأصل (جنس الكرد).

الملاحظة الرابعة: معروف في التراث الديني الإسلامي أن الجن نوعان:

١ - جنٌّ مؤمنون (مسلمون)، آمنوا برسالة النبي محمد، واستمع فريق منهم الى القرآن، وهم الذين قال فيهم القرآن: [قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا. يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا][١] .

٢ - جنٌّ مشركون (كفّار)، وقد جاء في القرآن على لسانهم: {وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا. وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا}[٢] .

ويفهم من فتوى الإمام جعفر أن الكرد من الجن المشركين (الكفّار)، ولذلك لم يكتف بتحريم التعامل معهم بيعاً وشراء، وإنما أفتى بتحريم مخالطتهم بشكل عام، كما أفتى بتحريم مناكحتهم؛ ومن المفيد أن نأخذ في اعتبارنا أن الإسلام لا يمنع التعامل مع المشركين (الكفّار) بيعاً وشراء، أما مع الكرد فالتحريم شامل، وهذا يعني أن الكرد كفّار من طينة خاصة.

الملاحظة الخامسة: الكُلِيني هو أبو جعفر محمد بن يعقوب الكُليني الرّازي، من كبار فقهاء الشيعة الإمامية (الاثنا عشرية/الجعفرية) ومن مشاهير المصنّفين في مذهبهم، توفّي في بغداد سنة (ت ٣٢٨ هـ - ٩٤٠ م)، ودفن فيها، وأصله من قرية اسمها

---

١. سورة الجن، الآيتان ١- ٢ .

٢. سورة الجن، الآيتان ١٤١- ١٥ . والقاسطون: الظالمون.

(كُلِين) كانت تابعة لمدينة الرّي (تقع آثارها قرب طهران)، وصفه الحافظ الذَّهَبي في كتابه (سِيَر أعلام النبلاء) بقوله: "شيخُ الشيعة، وعالِمُ الإمامية، صاحبُ التصانيف"[١] . وحينما ينقل فقيه كبير مثل الكُليني رواية أبي الربيع الشامي عن الإمام جعفر الصادق، ولا يشكّك فيها- أقصد في رواية الشامي- فذلك دليل على أن تنسيب الكرد الى الجن كان أمراً لا جدال فيه.

### تحليل الرواية الثالثة:

قال الراغب الأصبهاني:

"ذُكر أن عمر بن الخَطّاب رضي الله عنه روى عن النبي صلّى الله عليه وسلم أنه قال: الأكرادُ جيل الجن كُشف عنهم الغطاء! وإنما سُمُّوا الأكراد لأن سليمان عليه السلام لمّا غزا الهند، سَبي منهم ثمانين جارية، وأسكنهم جزيرة، فخرجت الجن من البحر فواقعوهن، فحمل منهم أربعون جارية، فأُخبر سليمان بذلك، فأمر بأن يخرجن من الجزيرة الى أرض فارس، فولدن أربعين غلاماً، فلما كثروا أخذوا في الفساد وقطع الطرق، فشكَوا ذلك الى سليمان. فقال: اكردوهم الى الجبال! فسُمُّوا بذلك أكراداً"[٢] .

الملاحظة الأولى: إن رواية تنسيب الكرد الى الجن أُسندت الى الشخصية الإسلامية الأعظم أهمية (النبي محمد)، والى الخليفة الثاني عمر بن الخطّاب، ومعروف أنه من كبار الشخصيات العربية الإسلامية ذات الأهمية، ومن رجال الصف الأول بعد النبي محمد في التراث الإسلامي.

الملاحظة الثانية: يستفاد من هذه الرواية أن تنسيب الكرد الى الجن لم يكن وَقفاً على كبار شخصيات الشيعة، وإنما تحدّث عنه أيضاً كبار شخصيات السنّة من أمثال عمر بن الخَطّاب، وهذا يعني أن ثمة إجماعاً بين كبار علماء المسلمين على هذا التنسيب، مع اختلاف في التفاصيل.

الملاحظة الثالثة: قَرنت هذه الرواية بين وثيقتين: الأولى تنتمي الى الدين الإسلامي (من خلال النبي محمد والخليفة عمر). والثانية تنتمي الى اليهودية والمسيحية، باعتبار أن النبي سليمان نبي وملك عبراني، وهو في الوقت نفسه شخصية مبجّلة في التراث

---

١٠انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٥/٢٨٠ . الزركلي: الأعلام، ٧/١٤٥ .

٠٢ الراغب الأصبهاني: محاضرات الأدباء، ١/١٦٠ .

الديني المسيحي والإسلامي، وهكذا فإن مُنتج هذه الرواية يهدف الى الإيحاء بأنها تمثّل وجهة نظر الأديان السماوية الثلاثة (اليهودية، والمسيحية، والإسلام).

**تحليل الرواية الرابعة:**

نقل شرف خان بَدْلِيسي الروايات العديدة التي وردت في المصادر بشأن أصل الكرد، ومنها الرواية التي تقول:

"قال الحكماء: إن الأكراد طائفة من الجن كشف الله عنهم الغطاء. كما أن بعض المؤرخين يروي أن الشياطين تزاوجوا مع بنات حوّاء، فنشأ منهم الكرد. والعلمُ عند الله، وهو على كل شيء قدير"[1] .

الملاحظة الأولى: جمع شرف خان بين الرواية التي تقول: إن الكرد هم من جنس الجن في أصل تكوينهم، وبين الرواية التي تقول: أن آباء الكرد شياطين، وأمهاتهم آدميات. ومعلوم أن للرواية الثانية صلة وثيقة بقصة النبي سليمان والشيطان (الجَسَد)؛ وبذلك يكون شرف خان قد لخّص مجمل ما نُسب الى تراث الديانات السماوية الثلاث (اليهودية، والمسيحية، والإسلام) بهذا الشأن.

الملاحظة الثانية: لم يكتف شرف خان بعرض الروايتين، وإنما بدا حيادياً تارة؛ إذ قال: "والعلم عند الله"، ثم بدا وكأنه لا يري مانعاً من أن يكون أصل الكرد من الجن والشياطين؛ وهذا مفهوم من قوله: "وهو على كل شيء قدير"، أي ليس من المحال أن يحوّل الله بعض الجن الى شكل إنسي، ويخلق نسلاً من التزاوج بين رجال شياطين ونساء آدميات.

الملاحظة الثالثة: المشهور أن شرف خان أمير كردي، وقد ذكر في مقدمة كتابه أنه ألفه "حتى لا يبقى صيت الأسر الكردية ذات الأثر الفعّال في حياة كردستان العامة في حجاب الستر والكتمان"[2] ، وذكر أن أسرته تنتمي الى قبيلة (رُوذكي) الكردية المؤلفة من تحالف (٢٤) عشيرة كردية[3]، وأفرد في كتابه حوالي مئة صفحة لذكر سيرة أسرته، وكان من المتوقَّع أن يقف شرف خان موقفاً عقلانياً واقعياً من الروايات الغريبة

---

١. شرف خان البدليسي: شرفنامه، ٥٧/١ – ٥٨ .

٢. المرجع السابق، ٥١/١ .

٣. المرجع السابق، ٣٣٩/١ .

بشأن أصل الكرد، ليس دفاعاً عن الحقيقة فقط، وإنما دفاعاً عن أصله الكردي الآدمي على الأقل، ولكنه لم يفعل ذلك.

الملاحظة الرابعة: لعل شرف خان رأى أنه لا ضرر يصيب أسرته إذا كان الكرد من الجن والشياطين، فالرجل قد نأى بأسرته من هذه النسبة المزعجة المنفِّرة، إذ بعد حديثه عن قبيلة رُوذكي عاد فذكر أن أسرته الأميرية لم تكن من هذه القبيلة، وإنما ترجع في أصلها الى أخوين "من نسل سلاطين الأكاسرة"، كانا يقيمان في خلاط (مدينة قديمة في شمالي كردستان/ شرقي تركيا)، ودعاهما زعماء قبيلة رُوذكي الى تولّي زعامة القبيلة، ففعلا ذلك[1] .

والحقيقة أن لقب كِسري يرجع الى العهد الميدي، وكان أشهر ملوكهم هو كي أخسار Cyaxares، أو كي خسرو Kai- Khosru ابن فَراوُرْت (كي: لقب ملكي يسبق الأسماء)، ويسميه هيرودوت (سياشاريس)، و(كيخسرو) هو الملك الميدي الذي عاش بين سنتي (٦٣٣ – ٥٨٤ ق.م)، وحرر الميديين من الغزاة الاسكيث (السكيث) أولاً، ثم قضى على الدولة الآشورية سنة (٦١٢ ق.م)، وحرر جميع شعوب غربي آسيا من سطوتها[2] .

وبعد أن قضى الفرس على مملكة ميديا، نسبوا التراث الحضاري الميدي الى أنفسهم، بما فيه ألقاب الملوك، و طمسوا كل ما يشير الى الحضور الميدي في تاريخ غربي آسيا، وكانت النتيجة أن الأصل الميدي للقب (كسري) غاب، وحلّت محله الصيغة الفارسية، ولما جاء الإسلام، دخلت الصيغة الفارسية الى التراث العربي الإسلامي، وصار لقب (الأكاسرة) في المصادر وقفاً على ملوك الفرس.

الملاحظة الخامسة: لا نشك في أن الأمير شرف خان كردي الأصل، لكنه ربيب ممتاز للتراث الغرب آسيوي، وذاكرته جزء من الذاكرة الغرب آسيوية التي صاغتها النخب الإمبراطورية وفق تطلعاتها، وكان الكرد– معظم الأحيان– في الطرف النقيض من تلك التطلعات، وما كانت النخب الإمبراطورية تعترف بالحضور الكردي إلاّ بمقدار ما كان الكرد يقدمون من خدمات سياسية وعسكرية وثقافية للمشاريع الإمبراطورية، وبقدر ما كانوا يستميتون في الدفا ع عنها، ويغفلون عن حقيقتهم وعن مشروعهم.

---

١. المرجع السابق، ١/ ٢٤٠ – ٢٤١ .

٢. انظر هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ص ٨٠ , ول ديورانت: قصة الحضارة، ٢/ ٤٠١, طه باقر وآخران: تاريخ إيران القديم، ص ٤٠ – ٤١ .

إننا على ضوء هذه الحقائق نفهم رغبة شرف خان في تنسيب أسرته الى الأكاسرة (الفرس)، وعلى أية حال هو ليس الكردي الوحيد الذي اختار هذا التوجّه، فإن في تاريخ الكرد قديماً وحديثاً كثيرين من الزعماء والمشاهير الكرد الذين تبرّأوا من النسب الكردي، ونسبوا أنفسهم الى عائلات فارسية كسروية، أو عربية هاشمية، وربما طورانية سلَجوقية عثمانية، ولِم لا يفعلون ذلك؛ وقد أصبح اسم الكرد مقروناً في الذاكرة الإسلامية عامة، وفي الذاكرة الغرب آسيوية خاصة، ليس بالتخلف والجلافة فقط، وإنما صار مقروناً بالأبلسة أيضاً؟

## ١٤

# الكرد قوم أولو بأس شديد

**بانوراما الغرائب:**

نهجان اثنان لا ينفعان في التعامل مع الحدث التاريخي:

- النهج القائم على نزعة شكية اتهامية مطلقة.
- والنهج القائم على السطحية والسذاجة والغفلة.

أما الشك والاتهام فينبغي أن يتأسسا- في جميع الأحوال- على الأدلة الصريحة القوية، أو على القرائن والمؤشرات ذات الصلة بالحدث من قريب أو من بعيد. وأما السطحية والسذاجة والغفلة فينبغي استبعادها كلّيةً من مجال التعامل مع الأحداث التاريخية، وخاصة حينما يكون الموضوع متعلقاً بالتوجّهات الإمبراطورية نحو التمدد والهيمنة وسلب (الإنسان) واحتلال (المكان).

وانطلاقاً من هذه الرؤية توصّلنا الى أن المصادر التاريخية، في بعض العهود الإسلامية، كانت الساحة الثقافية الأوسع لتبشيع صورة الكرد، ووصل الأمر الى درجة (الأبْلسة)؛ ففي هذه المصادر اختلط الواقع بالأساطير، والمعقول باللامعقول، واتضح لنا أن قدراً مهماً من المعلومات التاريخية في تلك المصادر استمدت وثوقيتها من عبارات زئبقية مثل (زعموا، وقيل، وقالوا، وذُكر، إلخ ).

ولم يستطع أصحاب مشروع (أبلسة الكرد) التسلل الى القرآن، وتحريفه بما يخدم أغراضهم، وعجزوا أيضاً عن التسلل الى الأحاديث النبوية الصحيحة، وتوظيفها للأغراض نفسها. وكان من المفترض ألا يتسلّلوا الى كتب (تفسير القرآن)، فتبقى محتفظة بأقصى درجات المنطقية والموضوعية، ومحصّنة ضد مشاريع التحريف والتشويه، سواء أكان الأمر متعلقاً بالكرد أم بغيرهم؛ إعتبار أن التفسير شرح لنص صاحبه هو (ربِّ العالَمين)، فلا يجوز تحميله ما لا يحتمل، ولا تأويله بما يخرج عن حدود المعقول، ويتناقض مع منطق التاريخ.

والمؤسف أن ما كان مفترَضاً دينياً وأخلاقياً ومنطقياً لم يتحقق، ووقع (تفسير القرآن) في قبضة بعض المرتزقة ومحتطبي الخرافات، وصار المرء وهو يقرأ كتب تفسير القرآن- وما أكثرها وأضخمها- يشعر أحياناً وكأنه يستمع الى شطحات القصّاصين تارة، ويشاهد ألاعيب الحُواة تارة أخرى، ويشعر تارة ثالثة أنه يشهد بانوراما فيها كل ما هبّ ودبّ من أصناف الغرائب والعجائب.

وسبق أن أشرنا الى أن (الأسْطَرة)، وما يتفرع عليها من آليات التلفيق والتخريف، كانت المدخل الأنسب الى (الأبْلَسة)، وبما أن عمليات (الأسطرة) تسللت الى ساحة (علم التفسير)، كان من البديهي أن تصبح تلك الساحة مفتوحة أمام أصحاب مشروع (أبلسة الكرد)، وأن يستمروا في رسم صورة الكرد بالكيفية التي تتناسب مع تصوراتهم وأغراضهم، وهذا هو موضوعنا في الصفحات التالية.

**أعراب .. وأكراد:**

في أثناء صراع النبي محمد، ومن معه من المهاجرين والأنصار، ضد قريش وحلفائها، كان بعض البدو الذين اعتنقوا الإسلام يُدعَون الى المساهمة في القتال، فمنهم من كان يشارك، ومنهم من كان يتخلّف عن المشاركة، فنزلت آية قرآنية تؤنّب المتقاعسين عن القتال، وهي: {قُلْ لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}[1] .

فماذا قال المفسرون بشأن (قومٍ أولي بأس شديد)؟

الحقيقة أن المفسرين إزاء تفسير هذه الآية فريقان:

١- الفريق الأول: يضم أغلبية المفسرين، وهم لم يأتوا على ذكر (الأكراد) حينما تناولوا تفسير هذه الآية، وفي مقدّمتهم الطَّبَري (ت ٣١٠ هـ - ٩٢٣ م)، فقد ساق روايات تقول: إن أولئك القوم هم (الفرس). وروايات تقول: إنهم الفرس والروم. وروايات تقول: إنهم بعض قبائل العرب المعروفة بشدة البأس، وهي هَوازِن، وغَطَفان، وبنو حَنِيفة قوم المتنبّئ مُسَيْلمة المشهور بلقب (الكذّاب)[2] .

---

١. سورة الفتح، الآية ١٦ .

٢. الطبري: جامع البيان، ٨٢/١٣ - ٨٣ .

وقال الطبري في هذا الصدد:

"وأَوْلي الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله- تعالى ذِكره- أخبر عن هؤلاء المخلَّفين من الأعراب أنهم سيُدْعَون الى قتال قومٍ أولي بأسٍ في القتال، ونَجدةٍ في الحروب، ولم يوضَع لنا الدليلُ من خبر ولا عقل على أن المعنيَّ بذلك هَوازنُ، ولا بنو حَنيفة ولا فارس ولا الروم، ولا أعيانٌ بأعيانهم، وجائز أن يكون عُني بذلك بعضُ هذه الأجناس، وجائز أن يكون عُنِي بهم غيرُهم"[1] .

وسار معظم كبار المفسرين الباقين على نهج الطبري، فلم يأتوا على ذكر (الأكراد)، وأذكر على سبيل المثال: البَغَوي (ت ٥١٦ هـ – ١١٢٢ م) في كتابه (معالم النزيل في التفسير والتأويل)، والنَّسَفي (ت ٥٣٧ هـ – ١١٤٢ م) في كتابه ( مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، والزَّمَخْشَري (ت ٥٣٨ هـ – ١١٤٤ م)، في كتابه (الكَشّاف)، وابن الجَوْزي (ت ٥٩٧ هـ – ١٢٠١ م) في كتابه (زاد المسير في علم التفسير)، والفَخْر الرازي (ت ٦٠٦ هـ – ١٢١٠ م)، في كتابه (مفاتيح الغيب)، والقُرْطُبي (ت ٦٧١ هـ – ١٢٧٣ م) في كتابه (الجامع لأحكام القرآن)، وابن حَيّان (ت ٧٤٥ هـ – ١٣٤٤ م) في كتابه (البحر المحيط)، والبَيْضاوي (ت ٦٨٥ هـ – ١٢٨٦ م) في كتابه (أنوار التنزيل وأسرار التأويل).

٢ – الفريق الثاني: يضم قلة من المفسرين، وقد ذكروا اسم (الأكراد) صراحة تارة، وأشاروا إليهم تارة أخرى باسم ذي دلالة جغرافية هو (البارَز/البارزون)، والأرجح أن المقصود بهذه التسمية هو (سكان الجبال)، وفيما يلي رواياتهم:

- ابن أبي حاتم (ت ٣٢٧ هـ – ٩٣٨ م): قال في تفسيره: "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي قَوْلِهِ:" (أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ)، قَالَ: هُمُ البَارَزُ، يَعنِي الأكرادَ"[2] .
- ابن كَثير (ت ٧٧٤ هـ): نقل في تفسيره رواية تقول: إن أولئك القوم هم بنو حَنيفة. ورواية تقول: إنهم التُّرك. وقال: "عن ابن أبي خالد، عن أبيه، عن أبي هُرَيْرَة في قوله: {سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ} قال: هم البارزون". ونقل أيضاً عن "ابن أبي خالد عن أبيه قال: نزل علينا أبو هريرة، ففسّر قول رسول الله صلّي الله عليه وسلّم: قال: تقاتلون قوماً نعالهم الشَّعْر. قال: هم البارزون، يعني الأكراد"[3] .

---

١. المرجع السابق، ٨/١٣ .

٢. ابن أبي حاتم: تفسير ابن أبي حاتم، ٣٣٠٠/١٠ .

٣. ابن كثير: تفسير ابن كثير، ١٩٠/٤ .

- جلال الدين السُّيوطي (ت ٩١١ هـ - ١٥٠٥ م): قال: "وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هُريرة رضي الله عنه في قوله {أُولي بأسٍ شديدٍ} قال: هم البارز، يعني الأكراد"[١] .
- الشَّوْكاني ( ت ١٢٥٠ هـ - ١٨٣٤ م): قال: "وأخرج ابن أبي حاتِم عن أبي هُريرة أنهم الأكراد"[٢] .
- الآلُوسي (ت ١٢٧٠ هـ - ١٨٥٤ م): نقل جميع الروايات التي سبقته؛ أي أن أولئك القوم هم بنو حَنيفة، والفُرس، وهَوازِن، والروم، والأكراد[٣] .
- القِنُوجي البُخاري ( ت ١٣٠٧ هـ - ١٨٩٠ م): ذكر تارة أن أولئك القوم هم الفرس، وتارة أنهم الروم، وثالثة أنهم الفرس والروم، ورابعة أنهم هَوازِن وثَقِيف وغَطَفان وبنو حَنيفة، وقال: "وعن أبي هُرَيْرَة أنهم الأكراد"[٤] .
- لم يقتصر أمر ذكر (الأكراد) في تفسير هذه الآية على المفسرين، وإنما نهج المؤرخ أبو نَعِيم الأصبهاني (ت ٤٣٠ هـ - ١٠٣٨ م) نهجهم، فقال: "عن مجاهد: {ستُدعَون الى قومٍ أُولي بأسٍ شديدٍ} قال: هم أعراب فارس، وهم الأكراد[٥] .

تلك هي الروايات التي ذكرت الكرد في جملة الأقوام الذين وُصفوا في القرآن بأنهم ذوو بأس شديد، فهل يتفق سياق الأحداث مع هذا التفسير؟ وهل يقبله واقع الظروف التاريخية في بداية القرن الأول الهجر (السابع الميلادي) ؟ أم أنّ وراء الأكَمَة ما وراءها كما يقول المَثَل القديم؟

**بحث في الدلالة:**

إن لهذه الروايات دلالتين: الأولى إيجابية، والثانية سلبية.

أولاً - الدلالة الإيجابية: هي وصف (الأكراد) بشدة البأس وقوة الشكيمة، ويمكن للمرء أن يتّخذ هذه الآية شهادةً إلهية صريحة، نزلت من فوق سبع سماوات؛ لتشهد للكرد بأنهم يمتازون- من حيث التكوين- بصفات مرموقة، تتفرّع عن الصفة المحورية

---

١. السيوطي: الدر المنثور، ٢٦/٥١٩ .
٢. الشوكاني: فتح القدير، ٥/٦٩ .
٣. الآلوسي: روح المعاني، ٢٥/١٠٢ - ١٠٣ .
٤. القنوجي: فتح البيان، ١٣/١٠٢ .
٥. أبو نعيم الإصبهاني: ذكر أخبار إصبهان، ١/٧ .

(البـأس الشـديد)، وأبرز تلك الصـفـات: الثـبـات على الموقف، والجَلَد في الشـدائد، والشجاعة في الخطوب، والبسالة في القتال، والإقدام على المخاطر، وصعوبة تدجينهم والسيطرة عليهم.

ويمكن لوجـهة النظر هذه أن تتعـزّز بأقوال وشـهادات أخـرى، وصفت الكرد بشدة البأس بشكل مباشر تارة، وبشكل غير مباشر تارة أخرى؛ ومن ذلك قول الآلوسي في تفسيره: " وبالجملة الأكراد مشهور بالبأس[1] ".

وقال شاعر يدعي (ابن طاهر) في وصف فَهْد:

وليس للطُّرّاد إلاّ فَهْـــدُ كأنّما أُلقـتْ علـيه الكُردُ

مِن خُلْقِـها، أو وَلَدتْه الأسْدُ وهْوَ كفيلُ النُّجْحِ حين يَعْدو[2]

أجل، من الممكن أن تؤخذ هذه الأقوال- وثمة أقوال أخرى وصفت الكرد بالشـجاعة لا مجال لذكرها الآن- أدلةً على أرجحية الدلالة الإيجابية، وعلى أن الذين أدرجوا الكرد ضـمن أولي البـأس- في إطار هـذه الآية- إنما أرادوا الرفع من شـأنهم، والإشـادة بشجاعتهم وبسالتهم، والتنويه بقوة شكيمتهم، ووضعوهم في مستوى واحد مع الفرس والروم وبعض القبائل العربية المشهورة بالقوة الشجاعة.

ثانياً – الدلالة السلبية: هي وضع (الأكراد) في صفّ (الكفّار)، وفي خانة المعادين لله ورسـوله، وليس هذا فـحـسب، بل إنهم من الأعـداء الذين فـرض الله من فـوق سـبع سماوات على المسلمين، ومن جملتهم الأعراب المتقاعسين، أن يقاتلوهم ويفرضوا عليهم اعتناق الإسلام، وهذا المعني واضح في الآية {قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَي قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ}، ولا يحـتـاج فـهمـه الى عناء، وإمكانيات المناورة معه معدومة، كما أنه لا يحتمل أيّ تأويل؛ لأن العبارات دقيقة ومحدّدة، وليست مجازية ولا فضفاضة ولا زئبقية.

وقد يقال: أين هي المشكلة؟ فالإسلام هو الدين الوحيد الذي يعترف به الله تعالي، بدليل الآية {إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ}[3]، وكل من يعتنق الإسلام يصبح من (أوليـاء

---

١. الآلوسي: روح المعاني، ١٠٣/٢٦ .

٢. ابن حمدون: التذكرة الحمدونية، ٧٤/٥ .

٣. سورة آل عمران، الآية ١٩ .

الله)، وكل من لا يعتنقه يصبح من (أولياء الشيطان)، ومطلوب من المسلمين أن يقاتلوا (أولياء الشيطان)، بدليل الآية {فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ}[1] . وبما أن الكرد لم يكونوا مسلمين حينما ظهرت الدعوة الإسلامية، كان من الطبيعي أن يكونوا في دائرة (أولياء الشيطان) أعداء الله، وكان من الطبيعي أيضاً أن يُطالَب المسلمون- بما فيهم الأعراب- بمقاتلة الكرد، تماماً كما كان مطلوباً منهم مقاتلة (أولياء الشيطان) الآخرين عرباً وفرساً وروماً وغيرهم.

**شكوك وحقائق:**

والحق أن هذا التوجيه مقبول، ولا غبار عليه من الناحية المنطقية، لكن تتفاقم الشكوك حينما يتفحّص المرء الموضوع من جميع جوانبه؛ بدءاً بالواقع السياسي لشعوب غربي آسيا مع ظهور الدعوة الإسلامية، ومروراً بالظروف التي واكبت نزول هذه الآية، وانتهاء بالجهات التي أنتجت هذه الروايات؛ ودعونا نتناول بالتحليل هذه الأمور الثلاثة كلاً على حدة:

أولاً – الواقع السياسي في غربي آسيا: ظهرت الدعوة الإسلامية سنة (٦١٠ م)، ثم كانت الهجرة الى يَثْرِب (المدينة) سنة (٦٢٢ م)، وبعد الهجرة وُضعت أسس الدولة العربية الإسلامية، وحينذاك كانت شعوب غربي آسيا واقعة تحت سيطرة إمبراطورية الفرس شرقاً وإمبراطورية الروم غرباً، وكانت كردستان (بلاد الكرد) مقسَّمة بين هاتين الإمبراطوريتين، فمن مدينة (نِصِيبِين) ضمناً باتجاه الغرب كان تابعاً للروم، وما عداها شرقاً كان تابعاً للفرس؛ هذا بغض النظر عن تقلّص مناطق النفوذ في كردستان بين الفرس والروم بين حين وآخر، نتيجة الصراع الذي كان محتدماً بين الإمبراطوريتين. والمهم في الأمر أن الكرد لم يكونوا أصحاب كيان سياسي مستقل، وعلى الصعيد الثقافي كانوا – في غالبيتهم- من أتباع الديانة الزَّرْدَشتية، شأنهم في ذلك شأن الفرس.

ثانياً – مناسبة نزول الآية: جاء في بعض المصادر أن هذه الآية نزلت بشأن الأعراب الذين تخلّفوا عن الالتحاق بجيش المسلمين في غزوة الحُدَيْبِيَة سنة (٦ هـ – ٦٢٨ م) ضد قريش حينما قررت منع المسلمين من العُمرة الى مكة[2] ، وجاء في مصادر أخرى

---

١. سورة النساء، الآية ٧٦ .

٢. انظر الواقدي: مغازي الواقدي، ٦١٩/١ .

أنّ المخلَّفين هم الأعراب الذين تقاعسوا عن المشاركة في غزوة حُنَيْن سنة (٨ هـ – ٦٣٠ م) ضد قبيلة هَوازِن والقبائل البدوية المتحالفة معها[١] .

وفي الحالين رجّح بعض كبار المفسّرين أن المقصود بعبارة (قوم أولي بأس شديد) قبائل العرب القوية من أمثال بني حَنيفة قبيلة المتنبّئ مُسَيْلَمة، ومن الممكن أيضاً أن يكون المقصود دولتا فارس والروم. أما الكرد فما علاقتهم بالموضوع؟ إنهم كانوا حينذاك شعباً مقموعاً ومغلوباً على أمره، ولم يكن لهم أدنى تأثير في الدعوة الإسلامية، لا إيجاباً ولا سلباً، فهم من الناحية الجغرافية كانوا في جبالهم بعيدين عن الحجاز أرض الدعوة الإسلامية، ومن الناحية السياسية لم يكونوا أصحاب دولة ذات نفوذ، ولم يكونوا سادة إمبراطورية تشكل قوتها خطراً في المستقبل على انتشار الدعوة، وتدفعها مصالحها الى الدخول في حروب ضد العرب المسلمين.

ثالثاً– الجهات المنتجة للروايات: تعود الروايات التي ذكرت (الأكراد/البارز/البارزون) الى ثلاثة رواة؛ هم ابن أبي حاتم في الدرجة الأولى، وابن أبي خالد ومُجاهد في الدرجة الثانية، فماذا عن كل منهم؟

أما مُجاهد فهو مُجاهد بن جَبْر (ت ١٠٤ هـ – ٧٢٢ م)، مولى بني مخزوم، وهناك من مدحه بأنه ثقة في علم التفسير؛ قال الذَّهَبي: "قال سُفْيان الثَّوْري: خذوا التفسير من أربعة: مُجاهد، وسعيد بن جُبَيْر، وعِكْرِمة، والضَّحّاك"[٢] . وهناك من شكّك في مصداقيته، وبنى ذلك على انصراف أهل العلم عن الأخذ بما جاء في تفسيره؛ "قال أبو بكر بن عَيّاش:

قلت للأَعْمَش: ما بالُهم يَتّقون تفسيرَ مجاهد؟ قال: كانوا يرون أنه يسأل أهل الكتاب"[٣] . وعلّق الذَّهَبي على الموضوع قائلاً: "قلت: ولمجاهد أقوالٌ وغرائب في العلم والتفسير تُستنكَر"[٤] .

وأما ابن أبي خالد فهو إسماعيل ابن أبي خالد (ت ١٤٦ هـ)، وكنيته أبو عبد الله البَجَلي، وتُوهمنا هذه النسبة أنه من قبيلة بَجِيلة العربية، لكن الحقيقة أنه مولى بني

---

٠١ انظر الطبري: جامع البيان، ١٦/٨٣ .

٠٢ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٤/٤٥٠ – ٤٥١ .

٠٣ المرجع السابق نفسه. وأهل الكتاب: اليهود والمسيحيون.

٠٤ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٤/٤٥٥ .

بَجِيلة، واسم أبيه هُرْمُز، وقيل سَعْد، وقيل: كَثير، وإذا أخذنا بأن اسم والده (هُرْمُز) فالأرجح أنه فارسي الأصل، أو أنه من خرّيجي الثقافة الفارسية[1] .

وأما ابن أبي حاتم (ت ٣٢٧ هـ - ٩٣٨ م) فهو عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المُنذرِ التَّميمي الحَنْظَلي الرازي، وقد يبدو للوهلة الأولى أنه عربي الأصل من بني تَميم، لكن سرعان ما نكتشف من ترجمة والده (حاتم) أنه حاتم بن إدريس بن المُنذِر بن داود بن مِهْران، وأنه فارسي الأصل من مدينة الرَّي، وأنه كان مولى بني تميم، وكان يسكن حيّ بني حَنْظلة في الرَّي، فقيل له: الحنظلي[2] .

وهكذا يبدو واضحاً أن الرواة الذين صنّفوا (الأكراد) في عداد (قومٍ أولي بأس شديد) لم يكونوا عرباً، وإنما كانوا فرساً، أو من خرّيجي الثقافة الفارسية، وقد نسب كل من ابن أبي حاتم وابن أبي خالد الرواية الى الصحابي المشهور (أبو هُريرة ت ٥٧ هـ)، وهنا يبدأ الإشكال الأكبر، فأبو هريرة عربي من قبيلة دَوْس اليمانية، كان اسمه في الجاهلية (عَبد شَمس بن صَخْر)، وحينما أسلم سنة (٧ هـ) سمّاه النبي (عبدالرحمن)، ويُنسب إليه حوالي (٥٠٠٠) خمسة آلاف حديث نبوي، متقدّماً في هذا المجال على كثيرين من كبار الصحابة، وبينهم أبو بكر الصدّيق وعمر بن الخطّاب وغيرهما.

ولسنا الآن بصدد الشكوك التي أثيرت حول غزارة الأحاديث النبوية التي رواها أبو هريرة، رغم أن فترة صحبته للنبي لم تتجاوز ثلاث سنوات، ولسنا أيضاً بصدد اضطراره الى الدفاع عن نفسه إزاء تلك الشكوك. وما يهمنا الآن أن لأبي هريرة مقاماً رفيعاً في التراث الإسلامي السُّنّي حصراً، وحينما يكون هو صاحب خبر ما فلا ريب في أن ذلك الخبر يكون مسموعاً عند المسلمين السُّنّة، وهم القسم الأكبر من المسلمين، ومن هنا تأتي أهمية أن يكون أبو هريرة صاحب تفسير أن (الأكراد) من الذين يندرجون تحت وصف (قوم أولي بأس شديد).

لكن يبقى السؤال: من أين كان أبو هريرة- وهو البدوي الأمي- يستمد المعلومات ذات الصبغة التاريخية والاجتماعية والإثنية المتعلقة بشعوب غربي آسيا من غير

---

١. انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٦/١٧٦ - ١٧٨ .

٢. انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٣/٢٤٧ . وابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ٥٣/٢ . والزركلي: الأعلام، ٦/٢٧ .

العرب؟ وأقصد على وجه التحديد المعلومات التي لم يأت لها ذكر لا في التراث العربي قبل الإسلام، ولا في القرآن، ولا في الأحاديث النبوية الصحيحة.

ومعروف أن المجتمع العربي قبل الإسلام، وفي عهد الدعوة الإسلامية، كان يفتقر الى المؤسسات المتخصصة في تدوين المعلومات، وكانت الجهات التي تمتلك القدرات في هذا المجال تابعة سياسياً وثقافياً للفرس والروم؛ إنها الجاليات والبعثات التبشيرية المسيحية واليهودية في اليمن والعراق، وهؤلاء هم الذين أصبحوا- في عهد صدر الإسلام- المصدر الأول والأهم للمعلومات.

ونحن هنا إزاء أحد احتمالين:

١ - إما أن أبا هريرة فسّر آية (قوم أولي بأس شديد) على ضوء المعلومات التي كان يروّج لها بعض خرّيجي ثقافة أهل الكتاب (اليهود والنصارى)، وبعض خريجي الثقافة الفارسية، وكان هؤلاء جميعاً قد وجدوا في (تفسير القرآن) ميداناً رحيباً لتفتيق التأويلات، وتفريع الاحتمالات، ومزج الواقع بالأسطورة؛ وهذه حقيقة يعرفها كل من اطّلع على تفاسير القرآن القديمة.

٢ - وإما أن كلاً من ابن أبي حاتم وابن أبي خالد الفارسيين، أو المتفرّسَين ثقافياً، نسبا المعلومة الى أبي هريرة، ثقة منهما بأنها تصبح أكثر رواجاً، ولم يكن مثل هذا النهج بالأمر الصعب في عهد الرواية الشفهية، وإذا كانت الأحاديث النبوية نفسها لم تسلم من الدس والتحريف؛ فهل من العجب في شيء أن يصل الدس والتحريف الى أقوال أبي هريرة؟

## السمّ في الدَّسَم:

وخلاصة ما نرجّحه أن اسم (الأكراد) أُقحم في تفسير آية (قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ) إقحاماً، ولا أستبعد أن يكون هذا الأمر نتاج تقليد سياسي قديم في التراث الشرقي؛ أقصد سياسة (السمّ في الدَّسم)، وأذكر في هذا الصدد حدثين، الأول من شرقي العالم الإسلامي، والثاني من غربيّه:

١ - في سنة (٣٨ هـ) احتدم الصراع على السلطة بين الخليفة الراشدي الرابع عليّ بن أبي طالِب في الكوفة بالعراق، ومنافسه مُعاوية بن أبي سُفْيان في دمشق بسوريا، ولما عيّن عليٌّ أحد كبار أنصاره، وهو الأَشْتَر النَّخَعي، والياً على مصر،

أوكل معاوية الى أحد عملائه في مصر (مسؤول الخَراج) مهمة التخلص من الأشتر، فاستقبله العميل في الطريق، واستضافه، وقدّم إليه طعاماً وسقاه شراباً من عسل، فمات منه، فلما بلغ ذلك معاوية ذلك قال: " إنّ لله جنوداً من عسل"[1] .

٢ - كان المنصور أبو عامر يتولّي منصب الحِجابة (يعادل رئاسة الوزارة في عصرنا) في الأندلس (إسبانيا)، ولما تُوفّي سنة (٣٩٢ هـ) تولّي المنصب ابنه عبد الملك، وفي سنة (٣٩٩ هـ) عزم عبد الرحمن بن المنصور على التخلص من أخيه عبد الملك، ليتولّي هو المنصب، فاستضافه وقدّم له تفاحة قطعها بسكين كان قد سَمّ أحد جانبيها، وناول أخاه ما يلي الجانب المسموم، وأخذ هو ما يلي الجانب الصحيح، وأكله بحضرته، فاطمأن عبد الملك، وأكل ما بيده منها، فمات[2] .

ويبدو أن ثقافة (السمّ في الدسم) لم تكن حَكْراً على الساسة المتنافسين، وإنما وجدت طريقها الى التراث الديني أيضاً، بل الى واحد من أكثر المجالات الدينية أهمية؛ ألا وهو (تفسير القرآن)، وكان في كل مرة يقع شعبٌ ما أو شخصٌ ما ضحية تلك الثقافة. وأحسب أن الذين أدرجوا اسم (الأكراد) في فئة (قوم أولي بأس شديد) أسسوا توجّههم هذا على ظروف الكرد قبل الإسلام، وعلى الظروف التي واكبت حياتهم حينما ظهر الإسلام، وألخّص تلك الظروف في ثلاثة أمور هي:

أولاً - هامش التاريخ: في عهد الدولة الميدية كان الشعب الكردي في بؤرة تاريخ غربي آسيا، وكان الى جانب الشعوب الأخرى من أكبر صانعي ذلك التاريخ، لكن قبل ظهور الإسلام بحوالي (١٢) قرناً كان الكرد قد زُحزحوا من بؤرة تاريخ غربي آسيا الى هامشه بل الى هامش الهامش؛ حدث ذلك منذ سقوط دولة ميديا على يد كورش الثاني الأخميني سنة (٥٥٠ ق.م)، وفي حدود قراءاتي لتاريخ غربي آسيا قبل الإسلام، ونتيجة معلومات كثيرة ومتشابكة لا مجال الآن لسردها، أمتلك الجرأة العلمية لأن أقول: عملت السياسات الفارسية خاصة لإخراج الجماهير الكردية من دائرة الفعل الحضاري، وأبقت أمامهم خياراً وحيداً، هو الاحتفاظ بالبقاء فقط، لكن في أكثر الظروف الحياتية قسوة.

ومن الثمار المُرة لتلك السياسات أنه لم يبق أمام الكرد طريق الى الحياة سوى أن

---

١. ابن كثير: البداية والنهاية، ٣٧٦/٧ .

٢. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٦٧٨/٨ .

يتحوّلوا الى رعاة، يهيمون مع أنعامهم في البراري أو في شعاف الجبال، والى فلاحين يعيشون حياة بدائية في القري، في حين اتخذ قلة منهم قطع الطرق التجارية باباً للحصول على الرزق، ولا أضع في اعتباري الحياة المرفَّهة التي عاشتها قلة قليلة من الأسر والزعامات الكردية، فهي كانت مرتبطة بالدول الفارسية سياسياً وثقافياً، وكانت كردية بالاسم فقط، ولا تصلح لأن تشكّل تمثيلاً واقعياً للجماهير الكردية.

وكانت النتيجة الطبيعية أن الكرد تحوّلوا خلال اثني عشر قرناً تقريباً (٥٥٠ ق.م – ٦٠٠ م) الى مجتمع رعوي، بعيد عن مراكز الحضارة، ومحروم من أسباب الثقافة والمدنية. وفي بيئة رعوية يغلب عليها الطابع الجبلي، وتهيمن عليها البدائية والبداوة، كان من الطبيعي أن تكون خصلة (البأس الشديد) هي البارزة في الشخصية الكردية، وإلا فلن يكون ثمة مجال للاستمرار في البقاء؛ وعلى ضوء هذه المعطيات نفهم وصف الكرد بأنهم (أعراب فارس/البارزون)، على أن نأخذ في الحسبان أن المقصود بكلمة (أعراب) هنا هو (البدو).

ثانياً – فتح كردستان: خلال الفتوحات الإسلامية لاقى العرب الفاتحون مشقّات كثيرة في إخضاع الكرد، وإن الرغبة في تصوير الأمر وكأن الكرد كانوا مرحّبين بالفاتحين العرب ينافي الحقيقة، وإذا كان الكرد قد شعروا بالارتياح في الخلاص من الهيمنة الفارسية فذلك لا يعني بالضرورة أنهم رحّبوا بالمهيمنين الجدد. ثم إن سقوط المدن في أيدي الفاتحين العرب لم يكن وحده كفيلاً بفرض الهيمنة العربية على كردستان؛ فالمدن كانت مراكز للسلطة الفارسية، أما الغالبية العظمي من الجماهير الكردية فكانت مقيمة في البراري والجبال والأرياف، وإن المقاومة الشرسة التي أبداها الكرد ضد الفاتحين العرب تركت انطباعاً لدي الرأي العام العربي وغير العربي بأن الكرد يندرجون تحت تصنيف (قوم أولي بأس شديد).

ثالثاً – جغرافيا الثورات: كانت الجغرافيا الكردية، معظم القرون الأولى من العهود الإسلامية، ساحة للانتفاضات، ومعقلاً للثورات، ضد سلطة الخلافة في العهد الراشدي، ثم ضد سلطة الخلافتين الأُمَوية والعبّاسية، هذا في القرون الثلاثة الأولى، أما بعدئذ فلم تضعف وتيرة الانتفاضات والثورات، بل زادت؛ تارة بسبب سياسات القهر التي مارسها المرتزقة العسكريون الأتراك المتحكمون في دار الخلافة ببغداد، وتارة أخرى ضد سلطة الدَّيْلم الفرس أو المتفرّسين الذين أزاحوا المرتزقة الترك جانباً

سنة (٣٣٤ هـ - ٩٤٦ م)، وحلّوا محلهم في بغداد، وتارة ثالثة ضد سلطة التركمان السلاجقة الذين دخلوا بغداد سنة (٤٤٧ هـ - ١٠٥٥ م)، واستولوا على مقاليد الأمور في غربي آسيا.

تلك- فيما نرى- هي المعطيات التي سوّغت لبعض المفسرين تصنيف الكرد ضمن (قوم أولي بأس شديد)، ووضعهم في خانة أعداء الله الأشداء من الفرس والروم والترك والقبائل العربية البدوية؛ أولئك الأعداء الذين لا وسيلة الى حملهم على اعتناق الإسلام إلاّ بالقتال.

## ١٥

# الكرد وتحريق النبي إبراهيم

النبي إبراهيم شخصية غرب آسيوية عريقة وكبيرة جداً، وله صلة وثيقة بالجانبين الإثني والثقافي عند شعوب هذه المنطقة، وهو يعدّ- بحسب المصادر اليهودية والمسيحية والإسلامية- الجد الأكبر لجميع أنبياء غربي آسيا، فإليه ينتسب موسى نبي اليهودية، وعيسى نبي المسيحية، ومحمد نبي الإسلام، وبين الروايات اليهودية والمسيحية تطابق تام بشأن سيرته، أما الروايات الإسلامية فهي مختلفة الى حد كبير أحياناً في هذا المجال.

ولن نتوسع الآن في هذا الموضوع، فلعلنا نتناول ذلك- مستقبلاً وبالتفصيل- في دراسة خاصة، نركّز فيها على العلاقة بين النبي إبراهيم والكرد على الصعيد الإثني، وما يهمّنا الآن هو توظيف قصة حرق النبي إبراهيم الواردة في القرآن ضمن مشروع أبلسة الكرد. فماذا عن ذلك؟

### النبي إبراهيم في القرآن:

القرآن هو الكتاب المقدس الأول للمسلمين، والإسلام- بحسب الآيات القرآنية والأحاديث النبوية- هو خلاصة جميع الديانات التوحيدية؛ ابتداءً بعهد النبي الأول آدم أبي البشرية، وانتهاء بعهد خاتم الأنبياء محمد، ولذلك كان من الطبيعي أن يكون لجميع الأنبياء والرسل السابقين موقع رفيع في السور القرآنية، ويكون المقام الأرفع- بعد النبي محمد- لأبي الأنبياء إبراهيم، وتتمحور الآيات التي ذُكر فيها اسمه حول أمور ستة:

١ - انتماء النبي إبراهيم الى الفريق الذي اصطفاه الله تعالى على سائر البشر: {إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ}[1] .

---

١. سورة آل عِمْران، الآية ٣٣ .

٢ – النبي إبراهيم هو المثل الأصيل والعريق للإسلام، وإن النبي محمداً والمسلمين أولى به من اليهود والنصاري: [مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ][١] .

٣ – ثورة النبي إبراهيم على عبادة الأصنام، ورفضُه عبادة الأجرام السماوية، واهتداؤه الى عقيدة توحيد الله، واختلافه مع أبيه وقومه: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ. وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ. فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ. فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ. فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ. إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[٢] .

٤– تصاعدُ الخلاف بين النبي إبراهيم وبين قومه حول مسألة التوحيد، وقصةُ رميه في النار، وخروجه منها سالماً: {وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ. إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ. إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ. أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ. فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ. فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ. فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ. فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ. فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ. مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ. فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ. فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ. قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ. وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ. قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ. فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ}[٣] .

}قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ. أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ. قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ. قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ. وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ}[٤] .

٥ – دعاء النبي إبراهيم الى الله أن يرزقه ولداً، وصدورُ الأمر إليه من الله تعالى بذبح

---

١. سورة آل عمران، الآية ٦٧ – ٦٨ .

٢. سورة الأنعام، الآية ٧٤ – ٧٩ .

٣. سورة الصافّات، الآية ٨٣ – ٩٨ .

٤. سورة الأنبياء، الآية ٦٦ – ٧٠ .

ولده، وعزمُه على تنفيذ الأمر دون تردد، وقصةُ الفداء: {رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ. فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ. فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ. فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ. وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ. قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ. وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ}[1] .

٦ – قيامُه ببناء البيت (الكعبة) في مدينة مكّة، مستعيناً بابنه إسماعيل، ووضعُ مناسك الحج: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[2] .

وبالمقارنة بين قصة النبي إبراهيم في كل من التوراة والقرآن نجد قليلاً من أوجه الاتفاق، وكثيراً من أوجه الاختلاف، وإليكم الخلاصة:

١ – للنبي إبراهيم في القرآن اسم واحد فقط، هو (إبراهيم)، ولا شيء عن اسم (أَبْرام) الذي ورد في العهد القديم.

٢ – لا شيء في القرآن عن الزمن الذي عاش فيه إبراهيم.

٣ – لا شيء في القرآن عن هوية إبراهيم الإثنية.

٤ – اسم والد إبراهيم في القرآن (آزَر)، واسمه في التوراة (تارَح).

٥ – لا شيء في القرآن عن هجرة أسرة إبراهيم من أُور الكَلدانيين الى حاران (حرّان).

٦ – لا شيء في القرآن عن هجرة إبراهيم من حاران الى أرض كنعان.

٧ – لا شيء في القرآن عن هجرة إبراهيم الى مصر، ولا شيء حول عودته الى أرض كنعان ثانية.

٨ – لا شيء في القرآن عن قصة سارة مع كل من فرعون مصر وأَبيمالك.

٩ – لا شيء في القرآن عن المعركة التي قادها إبراهيم ضد الحلف الشرقي.

١٠ – لا شيء في القرآن حول الخلاف بين سارة وهاجر، وطرد هاجر وابنه إسماعيل.

---

١. سورة الصافّات، الآية ١٠٠ – ١٠٧ .

٢. سورة البَقَرة، الآية ١٢٧ – ١٢٨ .

١١ – لا شيء في القرآن عن وفاة سارة، وعن دفنها في الأرض التي اشتراها إبراهيم من عِفْرُونَ بْنِ صُوحَرَ الحِثِّي.

١٢ – لا شيء في القرآن عن وفاة إبراهيم.

وأكثر ما يثير الانتباه في هذه المقارنة أمور أربعة:

١ – لم يأتِ في القرآن أيّ ذكر للصكّ الذي منحه الله للنبي إبراهيم ولذريته، وبموجبه صار لهم حق امتلاك أراضي جميع الشعوب الساكنة بين نهر الفرات شرقاً ونهر النيل غرباً.

٢ – لم يأت في التوراة أيّ ذكر لقصة اختلافه مع أبيه وقومه حول العقيدة, ولا شيء أبداً حول قصة رميه في النار، وخروجه منها سالماً.

٣ – لا شيء في التوراة أبداً حول علاقة إبراهيم بالحجاز في شبه الجزيرة العربية، ولا شيء عن قيامه مع ابنه إسماعيل ببناء الكعبة، ووضع مناسك الحج.

٤ – نصّت التوراة على أن الذبيح هو إسحاق. أما القرآن فلم ينصّ صراحةً على هوية الذبيح، وكان ذلك من دواعي اختلاف المفسرين؛ فمنهم فريق أكّد أن الذبيح هو إسحاق، في حين أكّد فريق آخر أنه إسماعيل. وقد توسّع الطَّبَري في ذكر روايات الفريقين، ورجّح رأي الفريق الأول، فقال: "غير أن الدليل من القرآن على صحة الرواية التي رُويت عنه– صلّى الله عليه وسلم– أنه قال: هو إسحاق، أوضحُ وأَبْيَنُ منه على صحة الأخرى"[١] .

والذي يهمّنا في هذا السياق أن القرآن لم يأت على أيّ ذكر للكرد في قصة حرق النبي إبراهيم، لا من قريب ولا من بعيد، ولا تصريحاً ولا تلميحاً، ولا شيء عن ذلك في الأحاديث النبوية أيضاً. أما المفسرون فلهم آراء أخرى، وفيما يلي بعض ما ذكروه.

## إلقاء النبي إبراهيم في النار:

المعروف أن القرآن ليس كتاباً في التاريخ والجغرافيا، إنه كتاب في العقيدة والإيمان، لذلك لا يتناول التفاصيل الدقيقة في حياة الأنبياء والرسل، كما هو الأمر في (العهد القديم)، وإنما يقوم منهجه على سرد الحدث بأسلوب موجز، لتنبيه الناس الى عبرة أو عظة، ولترغيبهم في توحيد الله وسلوك الطريق القويم، وتحذيرهم من الضلال وعبادة الأوثان والأصنام.

---

٠١ الطبري: تاريخ الطبري، ٣٦٣/١ .

والعجيب أن كتب تفسير القرآن القديمة لا تأخذ بهذا المنهج، إن أصحابها مغرمون بمطاردة التفاصيل، فيسمّون من لم يذكر القرآن له اسماً، ويحددون الأزمنة والأمكنة ذات الصلة بالأحداث، ويحشدون الروايات المختلفة تارة والمتعارضة تارة أخرى، ويضيفون أحداثاً لم يذكرها القرآن مطلقاً، الى درجة أن معظم كتب التفسير صارت خزّاناً هائلاً للغرائب والمفاجآت والاختلاقات. ومن تلك الغرائب والمفاجآت والاختلاقات ما جاء حول قصة رمي النبي إبراهيم في النار، فقد أجمع فريق من المفسرين على أن هذا الحدث جرى في مدينة كان يحكمها ملك اسمه (نَمْرُود)، وجاء اسمه بصيغة (نَمْرُوذ) أيضاً، ولا يكتفون بذلك، وإنما يضعون سلسلة نسب لنمرود توصله الى نوح، وقد أجمعوا أيضاً على أن الشخص الذي اقترح رميَ إبراهيم في النار كان كردياً، لكنهم اختلفوا أحياناً في تحديد اسمه، وفيما يأتي خلاصة ما أوردوه:

- قال الطَّبَري (ت ٣١٠ هـ): "عن مُجاهد، في قوله (حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ) قال: قالها رجل من أعراب فارس، يعني الأكراد"[١] .
- وقال الطبري أيضاً: "عن مُجاهد، قال: تلوتُ هذه الآية على عبد الله بن عمر، فقال: أتدري- يا مجاهد- من الذي أشار بتحريق إبراهيم بالنار؟ قال: قلت: لا. قال: رجل من أعراب فارس. قلت: يا أبا عبد الرحمن، أوَ هل للفرس أعراب؟ قال: نعم، الكرد هم أعراب فارس، فرجلٌ منهم هو الذي أشار بتحريق إبراهيم بالنار"[٢] .
- قال البَغَوِي (ت ٥١٦ هـ): "قال ابن عمر[٣] رضي الله عنهما: إن الذي قال هذا رجل من الأكراد. وقيل: اسمه هيزن، فخسف الله به الأرض، فهو يَتَجَلْجَل[٤] فيها الى يوم القيامة. وقيل: قاله نَمرود. فلما أجمع نَمرود وقومُه على إحراق إبراهيم عليه السلام، حبسوه في بيت، وبنوا له بنيانا كالحظيرة. وقيل: بنَوا أَتُّوناً[٥] بقرية يقال لها كُوثَي، ثم جمعوا له صِلاب الحطب[٦] من أصناف الخشب مدّة"[٧] .

---

١. الطبري: جامع البيان، ٤٣/١٠ .
٢. المرجع السابق، ٤٣/١٠ . وعبد الله بن عمر هو عبد الله بن عمر بن الخطّاب.
٣. الصحابي عبد الله بن عمر بن الخطّاب.
٤. ينحدر مع صوت شديد.
٥. الأتّون: النار الشديدة.
٦. صلاب الحطب: الحطب القاسي، وناره أشد حرارة.
٧. البغوي: معالم التنزيل، ٢٥٠/٣ .

- قال الرَّازي (ت ٦٠٦ هـ): "ليس في القرآن من القائل لذلك، والمشهور أنه نَمْروذ بن كَنْعان بن سَنْحاريب بن نَمروذ بن كُوش بن حام بن نوح. وقال مجاهد: سمعت ابن عمر[1] يقول: إنما أشار بتحريق إبراهيم عليه السلام رجل من الكرد من أعراب فارس. وروي ابن جُرَيْج عن وَهْب عن شُعَيْب الجُبّائي، قال: إن الذي قال (حرّقوه) رجل اسمه هيرين، فخسف الله تعالى به الأرض، فهو يَتَجَلْجَل فيها الى يوم القيامة"[2] .
- قال القُرْطُبي (ت ٦٧١ هـ): "رُوي أن قائل هذه المقالة هو رجل من الأكراد من أعراب فارس؛ أي من باديتها، قاله ابن عمر ومجاهد وابن جُرَيْج. ويقال: اسمه هيزر، فخسف الله به الأرض، فهو يَتَجَلْجَل فيها الى يوم القيامة. وقيل: بل قاله ملكهم نَمْرُود"[3] .
- قال ابن حَيّان الأندلسي (ت ٧٥٤ هـ): "وقيل: أشار بإحراقه نمروذ. وعن ابن عمر رضي الله عنهما: رجل من أعراب العجم. قال الزَّمَخْشَري: يريد الأكراد. وقال ابن عَطيّة: رُوي أنه رجل من الأكراد من أعراب فارس؛ أي باديتها، فخسف الله به الأرض فهو يَتَجَلْجَل فيها الى يوم القيامة، وذكروا لهذا القائل اسماً مختلفاً فيه لا يُوقَف منه على حقيقة؛ لكونه ليس مضبوطاً بالشكل والنقط،... ورُوي أنهم حين همّوا بإحراقه حبسوه، ثم بنوا بيتاً كالحظيرة بكُوثي"[4] .
- قال ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ): "فقالوا: {حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ}، فجمعوا حطبًا كثيرًا جدًا. قال السُّدِّي: ... ثم جعلوه في جَوْبة[5] من الأرض، وأضرموها نارًا، فكان لها شرر عظيم ولهب مرتفع، لم توقد قط نار مثلها، وجعلوا إبراهيم، عليه السلام، في كِفّة المَنْجَنِيق بإشارة رجل من أعراب فارس من الأكراد. قال شُعَيب الجبائي: اسمه هيزن، فخسف الله به الأرض، فهو يَتَجَلْجَل فيها الى يوم القيامة "[6] .
- قال البَيْضَاوي (ت ٧٩١ هـ): "والقائل فيهم رجل من أكراد فارس اسمه هيون،

---

٠١ الصحابي عبد الله بن عمر بن الخطّاب.

٠٢ الرازي: مفاتيح الغيب، ١٥١/١١ .

٠٣ القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ٢٠٠/١١ .

٠٤ ابن حيّان: تفسير البحر المحيط، ٣٢٨/٦ .

٠٥ الجوبة: حفرة مستديرة واسعة.

٠٦ ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ١٨٣/٣ - ١٨٤ .

خسف به الأرض، وقيل: نَمْرُوذ"[1] .

- قال أبو السُّعود (ت ٩٥١ هـ) بشأن تفسير (وحرِّقوه): "قيل: القائلُ نمرودُ بنُ كنعان بن السنحاريب بن نمرود بن كوسِ بن حام بن نوح، وقيل: رجلٌ من أكراد فارسَ اسمُه هيون. وقيل: هدير، خُسِفت به الأرض، رُوِي أنهم لما أجمعوا على إحراقه عليه السلام بنَوا له حظيرةً بكُوثَي، قرية من قري الأنباط، وذلك قوله تعالي: { قَالُواْ ابنوا لَهُ بُنياناً فَأَلْقُوهُ فِي الجحيم }، فجمعوا له صلاب الحطب من أصناف الخشبِ مدةَ أربعين يوماً، فأوقدوا ناراً عظيمة لا يكاد يَحُوم حولها أحدٌ، حتى إنْ كانت الطير لَتمرّ بها وهي في أقصي الجو فتحترق من شَلْوة[2] وهَجِها، ولم يكد أحد يحوم حولها. فلم يعلموا كيف يُلقونه عليه السلام فيها، فأتي إبليسُ وعلّمهم عمل المِنْجنيق فعملوه، وقيل: صنعه لهم رجل من الأكراد، فخسف الله تعالى به الأرضَ، فهو يَتجلجل فيها الى يوم القيامة"[3] .

- قال الشَّوْكاني (ت ١٢٥٠ هـ): "وقيل: هذا القائل هو نَمروذ؛ وقيل: رجل من الأكراد"[4] .

- قال الآلوسي (ت ١٢٧٠ هـ): "وأخرج ابن جَرير عن مُجاهد، قال: تلوتُ هذه الآية على عبد الله بن عمر، فقال: أتدري- يا مجاهد- من الذي أشار بتحريق إبراهيم عليه السلام بالنار؟ قلت: لا. قال: رجل من أعراب فارس، يعني الأكراد. ونصّ على أنه من الأكراد ابنُ عَطيَّة"[5] .

- قال القِنوجي (ت ١٣٠٧ هـ): "القائل هو النَّمْرُوذ بن كنعان بن السَّنْحاريب بن نَمْرُوذ بن كُوش بن حام بن نُوح، وقيل: القائل رجل من أكراد فارس اسمه هينون، خَسَف الله به الأرض"[6] .

- قال الشَّنْقيطي (ت ١٣٩٣ هـ): "وفي القصة أنهم ألقوه من ذلك البُنْيان العالي بالمَنْجَنيق، بإشارة رجل من أعراب فارس، يَعْنُون الأكراد، وأنّ الله خَسَف به

---

١. البيضاوي: أنوار التنزيل، ٣٦/٢ .

٢. كذا. وفي لسان العرب: شِلْوة. وتعني قطعة وشدّة.

٣. أبو السعود: إرشاد العقل السليم، ٧٦/٦ .

٤. الشوكاني: فتح القدير، ٥٦٧/٣ .

٥. الآلوسي: روح المعاني، ٦٧/١٧ .

٦. القنوجي: فتح البيان في مقاصد القرآن، ٣٤٧/٨ .

الأرض، فهو يَتَجَلْجَل فيها الى يوم القيامة"[1] .

ولم يقتصر ذكر الكردي في قصة حرق النبي إبراهيم على كتب التفسير، بل ذكره الطبري في تاريخه أيضاً، إذ قال: "حدّثني يعقوب قال: حدثنا ابن عُلَيّة، عن لَيْث عن مُجاهد في قوله {حَرِّقوه وانصروا آلهتكم}، قال: قالها رجل من أعراب فارس؛ يعني الأكراد"[2] .

وقال ابن الأثير في تاريخه: "قال عبد الله بن عمر: أشار بتحريقه رجل من أعراب فارس، قيل له: وللفرس أعراب؟ قال: نعم، الأكراد هم أعرابهم، قيل: كان اسمه هيزن، فخُسف به، فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة"[3] .

ومن الطبيعي أيضاً أن تحتل قصة النبي إبراهيم موقعاً مهماً في كتاب (قصص الأنبياء)، وهنا يظهر الكردي على أنه صانع المنجنيق الذي رُمي به النبي إبراهيم في النار: "ثم وضعوا إبراهيم عليه السلام في كِفّة مَنْجَنيق صنعه لهم رجل من الأكراد يقال له: هيزن، وكان أوّل من صنع المجانيق، فخسف الله به الأرض، فهو يَتجلجل فيها الى يوم القيامة"[4] .

وظهرت الرواية في كتب الأدب أيضاً، فقد جاء في كتاب يسمّي (نزهة المجالس ومنتخب النفائس)، مؤلفه عبد الرحمن الصّفُّوري (ت ٨٩٤ هـ - ١٤٨٩ م) ما يلي: "فقال رجل من الأكراد: حَرِّقوه. فخسف الله به الأرض، فهو يَتجلجل فيها الى يوم القيامة. قال القَزْوِيني: قال إبليس لعنه الله: أنا مع الأكراد في راحة. فإنهم لا يخالفونه"[5] .

**غرائب وتساؤلات:**

الحقيقة أنني لم أنقل إلا القليل مما رواه المفسرون حول قصة رمي النبي إبراهيم في النار، وهي قصة ملأي بالغرائب، ومحشوّة بالتهويل، وزاخرة بما لا يقبله لا العقل ولا المنطق ولا حقائق الواقع، ونذكر من تلك الغرائب، على سبيل المثال، ما يلي:

---

١. الشنقيطي: أضواء البيان، ٥٨٨/٤ .

٢. الطبري: تاريخ الطبري، ٢٣٩/١ - ٢٤٠ .

٣. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٩٨/١ .

٤. ابن كثير: قصص الأنبياء، ص ١٢٧ .

٥. الصفّوري: نزهة المجالس ومنتخب النفائس، ص ٣٨٠ .

– أقام المكلَّفون بحرق إبراهيم حظيرة طولها ثمانون ذراعاً وعرضها أربعون ذراعاً.
والسؤال هو: هل كان حرق شخص واحد يتطلّب حظيرة بكل هذا الطول والعرض؟

– جمع القوم قدراً هائلاً من الحطب، وأوقدوا النار سبعة أيام، والسؤال هو: لحرق شخص واحد هل الأمر يحتاج الى كل هذه الكومة الكبيرة من الحطب، وكل هذه المدة الطويلة لإيقاد النيران؟

– بعد إيقاد النار سبعة أيام متتالية حاول القوم إلقاء إبراهيم فيها فعجزوا، فعلّمهم ذلك الكردي، أو علّمهم إبليس (حليف الأكراد) صناعة المَنجنيق، فكان إبراهيم أول من رُمي به. والسؤال هو: هل كان إبراهيم شخصاً آدمياً، أم كان صخرة كبيرة، لا يمكن رميها في النار إلا بمنجنيق؟

– حينما رُمي إبراهيم بالمنجنيق في النار اعترضه في الجو اثنان من الملائكة؛ الأول خازن الماء، والثاني خازن الهواء، ثم اعترضه كبير الملائكة جبريل، وعرضوا عليه خدماتهم، لكنه ذكر أنه لا حاجة به إليهم، لأنه واثق من وقوف الله الى جانبه.
والسؤال: هل كان إبراهيم شخصاً يُرمي في النار، أم كان جالساً على بساط الريح، وينتقل من مدينة الى أخرى؟

بلى لا نرى فائدة في سرد جميع ما رواه المفسرون من الغرائب والتفاصيل، وهي في جملتها تفاصيل مقتبسة من كتب القصص والأساطير التي انتشرت بين أتبا ع الثقافات الفارسية واليهودية والمسيحية، ودعونا ننتقل مباشرة الى ما يتعلق بدور الكردي في قصة الحرق.

### أَبْلَسَة الكرد ثانية:

سبق أن مررنا– في صفحات سابقات– بثلاث محطات ثقافية في التراث الإسلامي، استُغِلّت بمزيج من الدهاء والجرأة على المنطق والواقع، بغرض تبشيع صورة الكرد، وتسويد صفحتهم، وتقديمهم بشكل منفّر الى شعوب غربي آسيا، والى تاريخ البشرية جمعاء، وتلك المحطات الثقافية الثلاث هي:

١ – الزعم بأن الكرد من سلالة طُرَداء أزدهاك (الضحّاك)، وأنهم خليط غير معروف الهوية.

٢ – الزعم بأن الكرد من سلالة الشيطان (الجَسَد)، وأمهاتهم من الجواري المنافقات،

وبما أنهم من هذه السلالة الشريرة، فقد أمر النبي العبراني سليمان بطردهم الى الجبال النائية.

٣ - الزعم بأن الكرد قوم أولي بأس؛ ليس بالمعنى الإيجابي طبعاً، ولكن بمعني أنهم عصاة لله، ومن أعداء الإيمان الذين أمر الله المسلمين- ومن جملتهم الأعراب- بمحاربتهم، وإجبارهم على اعتناق الإسلام.

واستنتجنا من بعض الأدلة والمؤشرات أن ثمة جهات كانت تقف خلف تبشيع صورة الكرد، وتعمل ضمن مشروع هدفه (أَبْلَسَة الكرد)، وسقنا من الأدلة والمبررات ما يرجّح أن قيادات ذلك المشروع لم يكونوا عرباً، وإنما كانوا ينتمون- بشكل مباشر وغير مباشر- الى مدرستين ثقافيتين كانتا تهيمنان على إنتاج الثقافة وتصديرها في غربي آسيا قبل الإسلام: كانت الأولى في بلاد الرافدين، ولا سيما في إمارة (الحِيرَة) بجنوب شرقي العراق، قرب الكوفة. وكانت الثانية في بلاد اليمن.

وتأكد لنا أيضاً أن قادة تينك المدرستين كانوا حلفاً مؤلفاً من أتباع الثقافات الفارسية واليهودية والنصرانية وخاصة المذهب النسطوري، وصحيح أنهم خسروا مواقعهم بسقوط حاميتهم الدولة الساسانية تحت ضربات الغزوات العربية الإسلامية، لكن سرعان ما استعادوا توازنهم، وعادوا ثانية الى احتكار إنتاج الثقافة وتصديرها، من خلال ثلاث قنوات هي أبرز القنوات الثقافية في العهود الإسلامي: التفسير، والتاريخ، والأدب. ووجدنا من الأدلة ما يرجّح أنهم استطاعوا التغرير ببعض الصحابة العرب من أمثال ابن عبّاس، وعبد الله بن عمر بن الخَطّاب، وأبي هُرَيْرة، ولم نستبعد حينذاك أنهم استغلوا مكانة هؤلاء الصحابة في قلوب المسلمين، فنسبوا إليهم كثيراً من الأخبار بقصد الترويج لها. وها نحن نجد مشروع (أَبْلَسَة الكرد) يظهر ثانية في قصة النبي إبراهيم، وثمة دلالات كثيرة كامنة وراء ظهور رجل كردي في قصة حرق النبي إبراهيم، وتحميله مسؤولية ذلك الفعل الشنيع دينياً وإنسانياً، وإليكم بعض الدلالات التي أراد أصحاب مشروع (أبلسة الكرد) الإيحاء بها:

- الدلالة الأولى: الكردي الذي أشار بحرق النبي إبراهيم حتى الموت شخص غير متحضّر؛ إنه جلف فظّ قاسي القلب من البدو الرحّل (الأكراد)، وهؤلاء البدو الرُّحّل (الأكراد) هم (أعراب فارس/العجم)، ولا يوجد بدوٌ في بلاد فارس إلا من الكرد، أما من (الفُرس/العجم) فلا.

تعليق: وصف الأكراد بأنهم (أعراب فارس!) يوازيه في العصر الحديث وصفُ (أتراك الجبال!) الذي أطلقه الطورانيون على الكرد؛ وهذا دليل على أن الطورانيين انضموا أيضاً الى الحلف الذي كان يتولّي إدارة مشروع (أبلسة الكرد).

- الدلالة الثانية: هذا الكردي الذي أشار على القوم بحرق النبي إبراهيم تارة، وصَنع المنجنيق تارة أخرى، حكم على نفسه بأنه عدو لله ولملائكته ولأنبيائه الى أبد الآبدين، وكلما قرأ المسلمون، في مشارق الأرض ومغاربها، وفي كل العصور، قصة النبي إبراهيم في القرآن، ورجعوا الى كتب التفسير سيُحمّلون هذا الكردي مسؤولية ذلك الفعل الهمجي الشنيع.

- الدلالة الثالثة: هذا الكردي وإبليس متفقان في الرؤية والرأي، فهما لم يدّخرا جهداً في محاربة أبي الأنبياء، ومن يبادر الى محاربة أبي الأنبياء كيف يحظى بالاحترام في قلوب المؤمنين؟ وكيف لا يكون مكروهاً وملعوناً الى أبد الآبدين؟

- الدلالة الرابعة: حكم الله على هذا الكردي (الكافر، صديق إبليس، عدو الله) بأن خسف به الأرض، فهو (يَتجلجل فيها الى يوم القيامة)، وهذا التجلجل الأبدي يوازيه في المخيّلة الإسلامية حكم أبدي بالكراهية واللعن، والدليل على ذلك أن الأخذ بهذه الروايات استمر أكثر من ألف سنة على الأقل، من غير تحقيق ولا تدقيق، وتعامل معها المفسرون طوال هذه القرون على أنها حقائق مسلَّم بها، ولا حاجة الى تفحّصها؛ والدليل على ذلك أمران:

١ - ثمة كثيرون من أعلام الكرد البارزين، قديماً وحديثاً، في الثقافة الإسلامية، وخاصة في مجال الدين، ولم أجد- الى الآن على أقل تقدير- واحداً منهم وقف عند هذه الروايات وقفة نقدية، ليس بقصد الدفاع عن الكرد، ولكن بحثاً عن الحقيقة. وأضرب مثالاً على ذلك المفسر الشهير (أبو السعود) صاحب تفسير (إرشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم)، فهو ينتمي الى أسرة كردية من مدينة (عمادية) في شمالي إقليم كردستان - العراق، وقد ساق ما جاء تحت بند (قيل) بشأن الكردي الذي أشار بحرق النبي إبراهيم، ولم يكلّف نفسه التدقيق في الموضوع، وكأن الأمر حقيقة مؤكدة، ولا داعي الى الشك فيه.

٢ - وجدتُ في المكتبات طبعتين من كتاب (قصص الأنبياء) لابن كَثير، الأولى طبعة سنة (١٩٧٨) وتحقيق الدكتور مصطفي عبد الواحد. والثانية طبعة سنة (١٩٩٢)

تحقيق الأساتذة علي عبد الحميد بَلْطَه جِي، ومحمد وَهبي سليمان، ومعروف زُرَيْق. وينتمي هؤلاء السادة المحققون الى ثقافة الربع الأخير من القرن العشرين، ويحمل الأول شهادة أكاديمية، وكان منطق العقل والعلم يقتضي أن يكتبوا في الهامش تعليقاً قصيراً، يوضّحون فيه آراءهم بموضوعية. لكنهم لم يفعلوا ذلك؛ والسبب أن الأمر بالنسبة إليهم حقيقة لا شك فيها.

- الدلالة الخامسة: قد يقال: ما هو وجه الغرابة في أن يكون أحد الكرد من (الكفّار)، ومن أعداء الله وأنبيائه؟ فهل تخلو أمة من أمثال هذا الرجل؟ فها هو ذا (أبو لَهَب)، إنه عمّ النبي محمد، ومع ذلك كان من أشدّ أعدائه، الى درجة أن الله قال في القرآن: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ. مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ. سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ. وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ. فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ}[1] .

والجواب: لا غرابة مطلقاً في أن يكون أحد الكرد معادياً لبعض المصلحين أو لأحد الأنبياء، لكن تكمن الخطورة في الطريقة التي تتعامل بها المخيّلة الغرب آسيوية مع حدث كهذا الحدث؛ فقد اعتادت تلك المخيّلة طوال قرون- بتأثير ثقافة إنكار الآخر- على الانسياق خلف نزعة (روح القَطيع)، والحكم على (أسرة، جماعة، قبيلة، شعب، طائفة، دين) من خلال فرد، وكان الذين دسّوا اسم الكردي في قصة النبي إبراهيم يعرفون ذلك، ويعرفون أن (روح القطيع) أفضل قناة يمرّرون من خلالها أحد أجزاء مشروع (أبلسة الكرد).

وقد صرّح القَزْويني بذلك في قوله "قال إبليس لعنه الله: أنا مع الأكراد في راحة. فإنهم لا يخالفونه"؛ فالمسألة لا تقتصر إذاً على كردي واحد كان متحالفاً مع الشيطان ضد أبي الأنبياء إبراهيم، وإنما ثمة حلف أبدي بين الشيطان والأكراد حيثما كانوا، وفي أي عصر كانوا، وإزاء أيّ موقف كانوا، الى درجة أن الشيطان يلمس تفهّماً كاملاً من قِبل حلفائه (الأكراد!) في كل ما يريد القيام به ضد المؤمنين، بل إنهم جنده المخلصون، وكلما كلّفهم بمهمّة قالوا له: سمعاً وطاعة، وبادروا الى تنفيذها دون تردد.

والسؤال هو: هل في التراث الإسلامي الغرب آسيوي من قال في حق العرب أو الفرس أو الأرمن أو الترك، أو في حق غيرهم من شعوب غربي آسيا، ما قاله القزويني في حق (الأكراد)؟ وعلى أيّ محمَل حسن يمكن أن نحمل هذه الظاهرة الغريبة؟ ألا

---

١. سورة المَسَد، الآية ١ - ٥ .

توحي مقولة القزويني بوجود صلة وثيقة بين تهمة (الحلف الشيطاني الكردي)، وبين مزاعم نسبة أصل الكرد الى (الشيطان الجَسَد) الوارد ذكره في قصة النبي سليمان؟ أليست هذه دعوة صريحة الى (أبلسة الكرد) دون أيّ مراعاة لمنطق الإيمان ولمنطق العقل ولمعطيات الواقع؟

**ملاحظات ختامية:**

وفي الختام نخرج من جميع ما سبق بالملاحظات الآتية:

- الملاحظة الأولى: مرة أخرى برزت الروايات المؤسسة على العبارات الغامضة (قيل، قالوا، رُوي، ...).

- الملاحظة الثانية: معظم الرواة الذين وردت أسماؤهم في تفسير قصة النبي إبراهيم ليسوا عرباً، وإنما هم من أتباع المدرستين الثقافيتين اللتين أشرنا إليهما قبل قليل (مدرسة العراق ومدرسة اليمن)، وهم:

١ - مُجاهد: هو مُجاهد بن جَبْر (ت ١٠٤ هـ - ٧٢٢ م)، مولي بني مَخْزُوم (من قُرَيش)، وسبق أن ذكرنا اعتماده في رواياته على كتب اليهود والنصاري، وكان ذلك مدعاة الى التشكيك في مصداقيته[١] .

٢ - السُّدّي: هو إسماعيل بن عبد الرحمن السُّدّي (ت ١٢٨ هـ - ٧٤٥ م)، تابعي، عرف بالسُّدي لأنه كان يجلس بالمدينة في موضع يقال له: السُّدّة. وقيل: لأنه كان يقعد في سُدّة باب الجامع بالكوفة، وهو من موالي بني هاشم. وقد قيل للشَّعْبي: "إن إسماعيل السُّدّي قد أُعطيَ حظاً من عِلم. فقال: إن إسماعيل قد أُعطيَ حظّاً من الجهل بالقرآن "، " وقال الجَوْزَجاني: حُدِّثت عن مُعتمِر، عن لَيْث، قال: كان بالكوفة كذّابان، فمات أحدهما: السُّدّي والكَلْبي"[٢] .

٣ - شُعَيب الجُبّائي (غير عربي): قال الذهبي: "شعيب الجُبّائي، أخباري متروك"[٣] .

٤ - وَهْب: الأرجح أنه أبو القاسم وَهْب بن سليمان الفقيه، من تلامذة شُعَيْب الجُبّائي[٤] .

---

١. انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٤/٤٥٠ - ٤٥٥ .

٢. الذهبي: أعلام النبلاء، ٥/, ٢٦٤ الزركلي: الأعلام، ٣١٧/١ .

٣. الذهبي: ميزان الاعتدال، ٢٧٨/٢ .

٤. ابن عساكر: تاريخ دمشق، ٣٤٦/٤١ .

٥ - ابن جُرَيْج: (ت ١٥٠ هـ - ٧٦٧ م) عبد رومي، من موالي بني أمُيّة، وهو أول من دوّن العلم وألّف الكتب في مكة، تتلمذ على مجاهد وعلى ابن عَطاء، وكما هي العادة وصفه بعضهم بأنه "كان من بحور العلم"، ووصف آخرون كتبه بأن كتبه "كتب الأمانة"، في حين حذّر منه آخرون، ووصفوا رواياته بالتدليس والحشو، وقالوا: "ابن جُريج صاحب غُثاء"[١] .

٦ - القَزْويني: العلماء الذين نُسِبوا الى (قَزْوين) في شمالي بلاد إيران الحالية كثيرون، والأرجح أن القزويني الذي أكّد وجود حلف أبدي بين إبليس و(الأكراد) ليس القَزْويني المؤرخ والجغرافي زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢ هـ - ١٢٨٣ م)، صاحب كتاب (آثار البلاد وأخبار العباد)، إذ لم نجد ذكراً لهذا الحلف في هذا الكتاب، ومهما يكن فالأرجح أن القزويني صاحب الخبر غير عربي.

- الملاحظة الثالثة: درجت العادة على أن يسند هؤلاء الرواة ما يروونه الى أحد الصحابة المشهورين، وهذا ما فعلوه بشأن الكردي الذي أشار على القوم بحرق النبي إبراهيم؛ إذ أسندوا الخبر الى صحابي شهير، له مكانة مرموقة جداً في التراث الديني الإسلامي، وهو عبد الله بن عمر بن الخطّاب. وثمة احتمالان:

١ - إما أن عبد الله بن عمر وقع في شَرَك أتباع المدرستين الثقافيتين المذكورتين، ونقل ما كانوا يذيعونه شفهياً وكتابياً، بعد أن أوهموا الناس أنهم يحيطون بالتاريخ من جميع أطرافه، وهذا ما نستبعده، لأن عبد الله كان معروفاً بالتقوى، ولا أعتقد أن صحابياً جليلاً مثله يترك ما جاء في القرآن وفي الأحاديث النبوية الصحيحة، ويأخذ بالأخبار التي روّج لها مؤلّفو القصص والأساطير.

٢ - وإما أنه لم يقل شيئاً في هذا الموضوع، لكن الرواة نسبوا إليه الخبر، كي يوهموا الناس أن ما يقولونه حقيقة مؤكدة، باعتبار أن مصدر الخبر هو صحابي له تلك المكانة الرفيعة بين الصف الأول من الصحابة، وإذا كانت الأحاديث النبوية لم تَسلم من الدس وحشر الأقوال الكاذبة فيها، فهل تَسلم أقوال الصحابي عبد الله بن عمر؟

- الملاحظة الرابعة: ثمة اختلاف في الروايات حول المكان الذي جرت فيه حادثة حرق

---

١. انظر ابن خلّكان: وفيات الأعيان، ٣/١٦٣- ١٦٤ . الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٦/٣٢٥ - ٣٣١ . الزركلي: الأعلام، ٤/١٦٠ .

إبراهيم، فقد ذكر فريق من المفسرين أن البلد كان مدينة (كُوثي)، وهي مدينة قديمة كانت تقع في جنوبي بلاد الرافدين، وتحديداً في بلاد سُومَر، وقد أطلق العرب على السومريين اسم (النَّبْط)، وأفاد الإمام على بن أبي طالب أن قبيلة قريش هي في الأصل من نبط كوثي، قال القَزْوِيني: "كُوثي قريةٌ بسَواد العراق قديمة، يُنسب إليها إبراهيمُ الخليل عليه السلام، وبها كان مولده، وطُرح في النار بها، ولذلك قال أمير المؤمنين عليّ، رضي الله عنه، من كان سائلاً عن نسبنا فإنّا نَبْط كُوثي"[1] .

وجاء في كتاب اليهود المقدس (العهد القديم) أن أسرة النبي إبراهيم كانت في أور، فأين هي الحقيقة؟

- الملاحظة الخامسة: ذكر بعض الرواة أن الحدث جري في عهد الملك نمرود، والمعروف أن نمرود كان يحكم في الجزء الشمالي من بلاد الرافدين، وكانت عاصمته (كالَح) بحسب الصيغة التوراتية[2] . وأفاد الرواة أن من أجداد نمرود شخص اسمه (كوش) وسمّي (كوس) أيضاً، فهل كان نمرود من سلالة الكاشّيين المعروفين باسم (كاشّو)؟ وإذا أخذنا في الحسبان أن من أسماء الكاشّيين (كاشّي، كوشّو، كاسّي، كاسّاي، كاسّيت)، وأن اسم (كاشّو) يعني بالكردية (سكان الجبال)، وأن اسمهم في العهد القديم (كوش)، وأنهم كانوا يقطنون المنطقة الممتدة من كرمانشاه وبِشْتكُوَه الحالية وحتى الضفاف الشرقية لنهر دجلة، وأنهم حكموا بلاد الرافدين مدة لا تقل عن خمسة قرون، يقدّرها المؤرخون في حدود (١٦٨٠ - ١١٥٧ ق.م)، وأنهم من الفروع الكبري التي تكوّن منها الشعب الكردي، فهل هذه جميعها مؤشرات على أن ثمة علاقة إثنية ما بين نمرود والنبي إبراهيم وأجداد الكرد؟

- الملاحظة السادسة: جاء في القرآن أن النبي إبراهيم ثار على أبيه وعلى قومه الوثنيين، وأن الخصومة كانت بينه وبين قومه {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ}، {قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ}، وجاء في القرآن أيضاً أن قومه هم الذين قرروا رميه في النار{قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ. فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ، {قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ}، فكيف تجاوز المفسرون هذه الحقائق القرآنية الواضحة، وأسندوا فكرة

---

١. القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٤٤٩ .

٢. انظر جين بوترو وآخرون: الشرق الأدنى الحضارات المبكرة، ص ٢٠ .

التحريق الى شخص واحد، وجعلوه كردياً حصراً؟

- الملاحظة السابعة: يُفهم من سياق الروايات أن ذلك الكردي لم يكن من قوم إبراهيم، فهل كانت جاليات كردية تسكن جنوبي بلاد الرافدين حينذاك؟ أم أن ذلك الكردي كان الوحيد الذي جاء من بلاد الكرد (كردستان)؛ ليشير على القوم بحرق النبي إبراهيم؟

- الملاحظة الثامنة: العجيب أن ذلك الكردي- وهو بدوي من أعراب فارس!- كان مسموع الكلمة بين قوم إبراهيم، الى درجة أنه بمجرد أن أشار عليهم بأن تكون عقوبة إبراهيم الحرق بالنار بادروا الى الأخذ بما أشار به، ورجل كهذا مسموعُ الكلمة ومُطاعُ الرأي، بين قوم هو غريب عنهم، أمرٌ يثير الاستغراب، فما هي الحقيقة؟

- الملاحظة التاسعة: إذا أخذنا في الحسبان أن الرواية اليهودية، وسليلتها الرواية المسيحية، وروايات مفسري القرآن المستمدة من الروايات اليهودية، تجعل الزمن الذي عاش فيه النبي إبراهيم واقعاً في القرن (١٨ ق.م)، فهل يعني ذلك أن الكرد كانوا موجودين بهذا الاسم (كرد/ أكراد) في غربي آسيا منذ ذلك الحين؟

- الملاحظة العاشرة: جاء في بعض هذه الروايات أن ذلك الكردي أشار على القوم باستخدام المنجنيق لرمي النبي إبراهيم في النار، وأنه أول من اخترع آلة المنجنيق في العالم، وبطبيعة الحال لا بد أن يمتلك من يبتكر هذه التقنية الهندسية الحربية- وهي متقدمة بحسب مقاييس ذلك العصر- قدرات علمية متطورة جداً، وليس من المعقول أن يكون خرّيج بيئة رعوية بدوية، إنه بالتأكيد خرّيج بيئة حضارية متقدمة علمياً، فكيف يمكن التوفيق بين هذا الكردي الذي يؤكد الجميع أنه من (أعراب فارس) أي من البداة المتخلفين حضارياً، وبين أنه مهندس قدير، الى درجة أنه أول من اخترع آلة المنجنيق العالم؟

هذه بعض الملاحظات والتساؤلات.

وهي بحاجة الى الفحص والتدقيق.

## ١٦

# الكرد والبداوة والجهالة

إننا إذ نُبدئ القول ونعيده في مشروع (أبلسة الكرد) فلأنه أحد نتاجات ثقافة (إلغاء الآخر)، إنه مثل قمة جبل الجليد، يظهر صغيراً فوق سطح الماء، لكنه ينتمي الى هيكل أخطبوطي عملاق يغوص في الأعماق، ويتمدد في كل اتجاه، ودعونا نستعرض حلقة أخرى من حلقاته الباقية.

**بداوة وفظاظة:**

إن الآليات المعتمَدة في مشروع الأبلسة لتبشيع صورة الكرد متنوعة، ومنها وصفهم بالبداوة والجَفاء والغلْظة، وفيما يلي بعض المشاهد:

- أورد الطَّبَري خبر الصراع بين أَرْدَشِير بن بابك أوّل ملوك بني ساسان، وأَرْدِوان آخر ملوك البرثيين (الأرشاكيين)، وذكر أن أردوان كتب رسالة الى أردشير قال له فيها: "إنك قد عَدَوْتَ طَوْرَك، واجتلبتَ حَتْفَك، أيها الكرديّ المُرَبَّي في خيام الأكراد، مَن أَذِن لك في التاج الذي لَبِسْتَه، والبلاد التي احتوَيتَ عليها، وغَلَبْتَ ملوكَها وأهلَها"[١] ؟

تعليق: الملاحَظ هنا أن أردوان لم يكتف في تهجّمه على أَرْدَشِير بتعييره أنه تربّى في (خيام الأكراد)، وإنما خاطبه بصفة (الكردي)، فهل كانت صفة (كردي) تعني – في الثقافة الفارسية القديمة– بدوي، جلف، متخلّف؟ وهل كانت تُطلق على كل من يراد الحطّ من قدره، أم أن الأسرة الساسانية كانت كردية الأصل حقاً؟ الأمر بحاجة الى تحقيق علمي، وأتمنّى أن يتفضّل الباحثون الذين يجيدون اللغة الفارسية بمتابعة هذا الموضوع.

- أورد الطَّبَري في تاريخه أخبار الصراع بين الملك الساساني كِسري أَبْرَويز بن هُرْمُز والقائد بَهْرام جُوبِين، وذكر أن حواراً دار بينهما، جاء فيه ما يلي: "وامتدّ بينهما

---

١. الطبري: تاريخ الطبري، ٢/٣٩ .

الكلام، فقال بَهْرام لأبْرَويز: يا ابن الزانية المُربّى في خيام الأكراد"[1] .

تعليق: سار بَهْرام جُوبين على خُطا أردوان، واستعمل عبارة (المربّى في خيام الأكراد) للحطّ من مكانة أبرويز، أو لتذكيره بأصله الكردي البدوي.

– وصف اليَعْقوبي فضل العراق، حيث دارُ الخلافة، على غيره من البلدان، فقال: "وإنها ليست كالشّأم[2] الوَبيئةِ الهواء، الضيّقةِ المنازل، الحَزْنَة[3] الأرض، المتصلةِ الطواعين، الجافيةِ الأهل. ولا كمِصرَ المتغيّرةِ الهواء، الكثيرةِ الوباء، ... ولا كإفريقيةَ البعيدةِ عن جزيرةِ الإسلام، ... الجافيةِ الأهل، ... ولا كأرمينيةَ النائيةِ الباردة الصَّرِدَة[4] الحَزْنَة،... ولا مثلَ الجَبَل كُوَر[5] الحزْنَة، الخَشنة، المُثْلِجة، دار الأكراد الغليظي الأكباد[6]" .

تعليق: الفنون التي يتقنها خرّيجو (ثقافة إلغاء الآخر) في غربي آسيا كثيرة ومتنوّعة، ولهم في هذا المجال خبرة متراكمة، تعود الى لا أقل من أربعة آلاف عام، ويوظّفون تلك الفنون كل مرة بما يحقق أهدافهم الدفينة. وفي المعلومات التي ساقها اليعقوبي اثنان من تلك الفنون:

١ – فن التعميم: فالخبر يفيد أن (الأكراد) كلهم من غليظي الأكباد.

٢ – فن الخداع اللغوي؛ فاليعقوبي – وهو مؤرخ وجغرافي– تعامل مع وصف البلاد بطرائق شتّي: مرة اكتفي بوصف سلبيات البيئة فقط. ومرة أضاف عبارة (الجافية الأهل) الى سلبيات البيئة. أما عندما تناول وصف منطقة الجبال (موطن الكرد في شمالي العراق وشمال غربي إيران حالياً) فعلت نبرته التهجمية أكثر، ووصف الكرد بـ (الغليظي الأكباد)؛ أي القساة جداً.

---

٠١ الطبري: تاريخ الطبري، ١٧٨/٢ .

٠٢ بلاد الشام.

٠٣ أرض حزنة: مرتفعة وعرة.

٠٤ الصردة: الشديدة البرد.

٠٥ كُوَر: جمع مفرها: كُورة، وتعني منطقة.

٠٦ اليعقوبي: البلدان، ٢/١ .

- قال المسعودي في معرض الإشادة بالعرب، والربط بين طباعهم ونزولهم في البوادي: "ولذلك جانبوا فَظاظةَ الأكراد وسكّان الجبال من الأجيال الجافية وغيرهم الذين مساكنهم حُزُونُ[1] الأرض[2]" .

تعليق: مارس المسعودي أيضاً فن التعميم؛ إذ جعل (الفظاظة) صفة عامة للكرد. ومارس فن الخداع اللغوي؛ إنه استعمل في وصف الكرد صفة (فظاظة)، أما مع الآخرين من سكّان البيئات الجبلية فاستعمل صفة أخفّ وطأة؛ وهي (الجافية).

وإضافة الى فن التعميم نجد في طيّات عبارة ابن تيمية فنّاً آخر من فنون خرّيجي (ثقافة إلغاء الآخر)؛ وهو فن التمويه في السرد؛ فكي يضرب مثالاً على عادة أهل الجفاء أسرع الى التصريح باسم (الأكراد)، أما غير الأكراد فلم يصرّح بأسمائهم، وعتّم عليهم بعبارة (وغيرهم).

- قال الإمام أبو حامد الغزالي في طرائق (علاج الحرص والطمع): "الرابع: أن يُكثر تأمّلَه في تَنعُّم اليهود والنصاري، وأراذل الناس، والحَمْقى من الأكراد والأعراب الأجلاف، ومَن لا دِين لهم ولا عقل. ثم ينظر الى أحوال الأنبياء والأولياء، والى سَمْت الخلفاء الراشدين وسائر الصحابة والتابعين، ويستمع أحاديثَهم ويُطالِع أحوالَهم. ويُخيّر عقلَه بين أن يكون على مُشابَهة أراذل الناس، أو على الاقتداء بمن هو أعزُّ أصناف الخلق عند الله"[3] .

تعليق: الإمام أبو حامد الغزالي (وهو فارسي من مدينة طُوس) عَلَم آخر كبير وشهير جداً من علماء الثقافة الإسلامية، وها نحن نراه يضع (الأكراد والأعراب) عامة- بعد وصفهم بالحماقة- في خانة اليهود والنصاري، وهؤلاء كفّار وضالّون بحسب معايير الغزالي وكثيرين من أعلام الثقافة الإسلامية، وما اكتفى الغزالي بذلك، بل جعل الأكراد في خانة واحدة مع الأراذل والحمقى والأجلاف.

فالأكراد والأعراب بشر مستباحون، ولا حرج عند الإمام الغزالي في أن يصفهم بما يطيب له. وما يُلفت الانتباه أكثر أنه قدّم (الأكراد) على (الأعراب) في صفة الحماقة.

---

١. حزون: أماكن مرتفعة وعرة.

٢. المسعودي: مروج الذهب، ٢/١٢١ .

٣. أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ٣/٢٤٣

- قال عبد الرؤوف المِناوي (والدته من حفيدات الحافظ الكردي الشهير زَين الدين العراقي) في شرح الحديث النبوي الخاص بمكانة الشيخ في قومه: "(الشيخ في أهله)، وفي رواية في قومه (كالنبيّ في أمته)؛ أي يجب له من التوقير مثلُ ما للنبي- صلّى الله عليه وسلّم- في أمته منه؛ ... ولذلك ترى الأكرادَ والأتراك وأجلاف العرب- مع قُرب رُتبتهم من البهيمة- يُوقِّرون الشيخَ بالطبع[1]" .

تعليق: مهمة المناوي في كتابه (فيض القدير) هي شرح الأحاديث النبوية التي جمعها السُّيُوطي في كتابه (الجامع الصغير)، ويُفترَض ممّن يتعامل مع الأحاديث النبوية شرحاً وتفسيراً أن يكون تقياً ومهذَّباً، ولا يستعمل الألفاظ الجارحة إزاء الأفراد، فكيف إذا كان الأمر يتعلق بأمم وجماعات؟!

لكن يبدو أن خرّيجي (ثقافة إلغاء الآخر) لهم معايير خُلقية غير التي سنّها الله لعباده الصالحين، فها هو ذا المناوي لا يتحرّج في وضع (الأكراد والأتراك وأجلاف العرب= الأعراب) في خانة قريبة من خانة (البهائم)، والملاحظ أنه قدّم (الأكراد) على (الأتراك) و(الأعراب)، تنبيهاً لنا بأن للأكراد الأسبقية في تلك الخانة.

- قال الجاحظ: في رسالة مناقب التُّرك: "وكذلك الترك أصحابُ عَمَدٍ، وسكّان فَيافٍ[2]، وأربابُ مواشٍ، وهم أعراب العجم، كما أن هُذَيْلاً أكرادُ العرب"[3] .

تعليق: لا يتضح البعد الحقيقي لما يريده الجاحظ بقوله هذا ما لم نعرف من هي (هُذَيْل)؛ إنها قبيلة عربية بدوية، كانت تسكن بعض جبال الحجاز، وكانت معروفة بالفقر، وشدّة البأس، وكثرة الفقراء (الصَّعاليك)، وممارسة الغزو، وقد جمع القدماء أشعار تلك القبيلة في ديوان ضخم اسمه (ديوان الهُذَلِيِّين)، وكي يُقرّب الجاحظ فهمَ حقيقة قبيلة هُذيْل العربية الى الأذهان شبّهها بـ (الأكراد)؛ وهذا يعني أن (الأكراد) كانوا معروفين، في الوسط الثقافي خاصة والاجتماعي عامة، بأنهم مَضرِب المثل في الفقر وشدة البأس والسطو على ممتلكات الآخرين.

- ذكر الراغب الأصفهاني أن صبياً قرأ على معلم الآية الخاصة بوصف جهنم، من (سُورة التَّحريم، الآية ٦):

---

١. المناوي: فيض القدير، ٣٦٩٦/٧ .

٢. الفيافي: الصحارى.

٣. الجاحظ: رسائل الجاحظ، ٧١/١ .

{عليها ملائكةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لا يَعصُون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون}. فقال: هؤلاء أكراد لا ملائكة "[1] .

تعليق: واضح من هذه المعلومة أن الحديث عن (الأكراد) كان مادة صالحة للفكاهة والإضحاك، ووسيلة فعّالة لتوضيح المفارقات، فالملائكة النورانيون لا نقيض لهم في غربي آسيا، بل في العالم كله، إلا (الأكراد) الشيطانيون، وحينما يكون الأمر متعلقاً بتبشيع صورة الكرد يصبح كل شيء مباحاً؛ وحتى الآيات القرآنية يجوز التلاعب بها، وإخراجها عن مساراتها الصحيحة، وتوظيفها بما يحقق أهداف الناشطين في مجال تعميم مشروع (أبلسة الكرد).

- ذكر ابن عَساكِر الخبر السابق برواية أخرى، مفادها أن الصبي قرأ على المعلم: (عليها ملائكةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لا يَعصون الله ما أمرهم ويَفعلون ما يَأمُرون). فقال له: يا ابن الخبيثة، ما هؤلاء إلا أكراد شَهْرَزُور، وليس هؤلاء ملائكةٌ "[2] .

تعليق: الملاحظ هنا أن الشيطانية (نقيض نورانية الملائكة) صارت صفة لأكراد شَهْرَزُور عامة، الكبير والصغير، والعالم والجاهل؛ مع العلم أن اسم شَهْرَزُور كان يُطلَق على المنطقة التابعة لمدينة سُليمانية الحالية في جنوبي كردستان (إقليم كردستان- العراق حالياً)، وكانت مدينتها الكبري تسمّى شَهْرَزُور، وكانت مشهورة بكبار العلماء.

## جهالة وسذاجة:

جاء في عدد من مصادر التراث الإسلامي وصف الكرد بالجهالة والسذاجة والغفلة، وفيما يلي بعض تلك الأقوال:

- قال الآبي (أبو منصور سعد بن الحسين): "وسأل كسرى مَوْبَذه [3]: أيُّما أكثر: الشياطين أو الناس؟ فقال: إن حَسَبْتَ الأكرادَ والرعاةَ والعامّةَ وأهلَ الأسواق من الناس فإن الناس له كثيرٌ "[4] .

---

١. الراغب الأصفهاني: محاضرات الأدباء، ٥٤/١ .

٢. ابن عَساكر: تاريخ دمشق، ٧٣/٦٨ .

٣. الموبذ: كبير رجال الدين الزردشتي.

٤. الآبي: نثر الدر، ٥١/٢ .

تعليق: إذاً فـ (الأكراد)- من بين جميع شعوب غربي آسيا على أقل تقدير- هم في الدرك الأسفل جهالة وتخلفاً، وهم معدودون من الشياطين، وليس لهم مكان في خانة البشر الصالحين؛ هكذا كان حكم الموبذ، حسبما تفيد الرواية، وظل هذا الحكم حياً في ذاكرة مثقفي غربي آسيا من أمثال الآبي، وصحيح أن الموبذ يُعَدّ من المجوس (الضالّين) حسب التوصيف الإسلامي، لكن ما دام الخبر يصبّ في طاحونة القائمين على مشروع أبلسة الكرد فأقوال (الضالين!) لا تفقد جاذبيتها، وتظل صالحة للرواية.

- قال الإمام أبو حامد الغزالي في بيان علاج الغضب: " بل ينبغي أن يعالَج هذا الجاهلُ بأن تُتْلى عليه حكاياتُ أهل الحِلم والعفو، وما استُحسِن منهم من كَظْم الغَيْظ، فإنّ ذلك منقولٌ عن الأنبياء والأولياء، والحكماء والعلماء، وأكابر الملوك الفُضلاء. وضدُّ ذلك منقولٌ عن الأكراد والأتراك والجهلة والأغبياء؛ الذين لا عقولَ لهم ولا فضلَ فيهم"[1] . تعليق: الملاحظ أن الغزالي جعل الأكراد والأتراك في خانة الجهلة والأغبياء، تلك الخانة التي تعدّ نقيضاً لخانة أهل القداسة من الأنبياء والأولياء، ونقيضاً لخانة أهل المعرفة من الحكماء والعلماء، وبدا حريصاً على أن يجعل للكرد قَصَب السَبْق في هذا المجال.

- قال ابن تَيْمِيَة بشأن مسألة خَلْق القرآن: "وأقبحُ من ذلك مَن يَحْكي عن بعض العلماء أنّ المدادَ الذي في المُصحَف قديمٌ، وجميعُ أئمّة أصحابِ الإمامِ أحمد وغيرُهم أنكَروا ذلك، وما علِمتُ أنّ عالِماً يقول ذلك إلا ما يَبْلُغُنا عن بعض الجُهّال من الأكراد ونَحوِهم"[2] .

تعليق: ابن تيمية معروف بأنه (شيخ الإسلام) في عصره، بل لعله كان- طوال القرن العشرين والى يومنا هذا- من أكثر الأئمة تأثيراً في الفكر الإسلامي المعاصر، ولاسيما الفكر السلفي والجهادي، والمتوقّع من فقيه قدير مثله أن يقيّد لفظه، ولا يعمّم الأحكام، والمؤسف أنه لم يفعل ذلك، وها نحن نجده يعمّم صفة (الجهل) على الكرد جميعهم، وعمد الى توظيف الحيل السردية، فصرّح باسم (الأكراد)، وأدرج الآخرين من الجهّال تحت بند (ونحوهم)، بإعتبار أن الأكراد (جدارهم وَطيء) كما يقول المثل، أما جدران الآخرين فمرتفعة.

---

١. أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين ١٧٢/٣ – ١٧٣ .

٢. ابن تيمية: مجموع فتاوى ابن تيمية، ٢٩/٣ .

- قال ابن منظور الإفريقي: "الرَّشْمُ أن تُرشَمَ يد الكُرْدِيِّ والعِلْجِ كما تُوشَمُ يدُ المرأة بالنِّيل[1] لكي تُعرف بها، وهي كالوَشْمِ"[2] .

تعليق: كي يوضّح ابن منظور معني (الرَّشْم) ضرب مثالاً من الواقع، وهو رشمُ يد الكردي والعلِج، والرشم نوع من الخَتْم كانت السلطات تَختم به أيدي بعض الناس المغضوب عليهم، كي يكونوا معروفين أينما كانوا، ويسهل القبض عليهم عند اللزوم، وكان الحجّاج بن يوسف الثَّقَفي أشهر من مارس ذلك بحق النَّبْط (سكان ميزپوتاميا).

والمهم في هذه المعلومة اللغوية أن الكردي والعِلْج هما في خانة واحدة من حيث الإذلال والاتهام، ويتّضح الأمر أكثر إذا أخذنا في الحسبان أن معني (عِلْج) في العربية هو (حمار الوحش) الضخم القوي، وفي العهد الإسلامي الأول أُطلق لقب (عِلْج) على أعداء العرب المسلمين من الفرس والروم، والجمع (علوج)؛ بمعني الناس الكفّار والمنحطّون والأراذل.

- قال أبو الحسن محمد بن عبد الله السلامي، وهو شاعر عراقي بغدادي (ت ٣٩٣ هـ - ١٠٠٣ م):

وأنا دَعِيٌّ في البلاغة، مُلْصَقٌ ... في الشعر، مُنسلِخٌ من الآدابِ
ويُباع في الأكراد شعري إنّه ... يَغْلُو إذا ما بِيعَ في الأعرابِ[3]

تعليق: إن الشاعر يُقرّ بأن شعره رديء، لكن له سوق رائجة بين (الأكراد)، بإعتبار أنهم أناس جهلة وساذَجون، وكل ما هو رديء مقبول عندهم، وكل حيلة تنطلي عليهم، وهذا يذكّرنا بالمقولة الدارجة- الى يومنا هذا- في بلاد الشام ومصر (هل تَستكردني؟)؛ أي (هل تظن أنني كردي؟)، وتقال هذه العبارة عادة لمن يظن أنك ساذج غافل، ويحاول الاحتيال عليك.

---

١. النيل: صبغ أزرق.

٢. ابن منظور: لسان العرب، مادة رشم.

٣. الثعالبي: يتيمة الدهر، ٢/٤١٤ .

١٧

# الكرد والإفساد والكفر

## عبقرية أم تَعبقُر؟

العبقرية مستويات، والعباقرة درجات، والمنتظر من العباقرة- في أيّ عصر كانوا، والى أيّ جغرافيا انتموا- أن يكونوا بناة حضارة، ودعاة خير، وصنّا ع نفع لشعوبهم وأوطانهم على أقل تقدير؛ هذا مع ثقتنا التامة بأن العبقري الأصيل يرفض الوقوع في أسر النرجسية؛ سواء أكانت ذاتية أم قَبَلية أم طائفية أم دينية أم قومية؛ إن العبقريّ الأصيل إنسانيّ النزعة، كونيّ الانتماء، سامي المبادئ، نبيل المواقف، نقيّ الفكر، عفيف اللفظ، لا تأخذه في الحق لومة لائم، وهو بعد هذا صُلب العزيمة، قوي الشكّيمة، لا يسيل لعابه لترغيب، ولا يستسلم لترهيب.

ومن الإجحاف الزعم أن ثقافاتنا- نحن شعوب غربي آسيا- تفتقر الى العبقرية وتخلو من العباقرة، لكن من الإجحاف الزعم أيضاً أن العباقرة الأصلاء هم الذين أداروا دَفّة القيادة الثقافية في منطقتنا هذه معظم العصور، بلى، إنهم لم يكونوا خلف دفّة القيادة، ليس لأنهم جهلوا أهمية القيام بتلك المهمة، ولا لأنهم تهرّبوا من القيام بمسؤولياتهم التاريخية الكبري، وإنما لأنهم حُوربوا بقسوة حتى في لقمة عيشهم، ورُجموا بأشنع الاتهامات (انحراف، فسق، زندقة، ضلال، كفر، إلحاد، علمانية، عمالة، إلخ)، تمهيداً لإزاحتهم من قيادة المجتمع، ورميهم في طيّ النسيان.

ومن الذين كانوا وراء إعلان الحرب على العباقرة الأصلاء؟ إنهم العباقرة المزيفون، إنهم المتعبقرون، أجل، ألم يكن غربي آسيا موطن الأنبياء الأصلاء والأنبياء الكذبة (المتنبئين)؟ فلا عجب إذاً أن يظهر فيه (المتعبقرون) ليقطعوا الطريق على (العباقرة)، ويحجروا على إبداعاتهم، ولا عجب أيضاً أن يبرز فيه أدعياء الثقافة، ليسحبوا البساط من تحت أقدام المثقفين الأصلاء، وينفردوا هم بالزعامة الثقافية.

وكان موضوع الصراع بين العباقرة والمتعبقرين- وما زال- هو رسم المسارات

الأساسية لحياة المجتمعات، وتأسيس مرتكزات الانطلاق نحو تلك المسارات، وترسيخ القيم والقواعد والتشريعات والضوابط التي تساعد على تحقيق الأهداف المنشودة. وكان أعتى سلاح في أيدي المتعبقرين هو السيطرة على الجماهير (العامّة)، واحتكار إنتاج الرأي العام (رأي الشارع بلغة عصرنا)، والاستئثار بتسويقه وتصديره وإعادة إنتاجه، وتغييب العباقرة وأفكارهم المتنوِّرة عن المجتمع.

ولم يكن العباقرة وحدهم ضحايا آليات الإرهاب الثقافي الذي كان يديرها المتعبقرون، بل إن المتعبقرين كانوا يحوّلون (الرأي العام) الجماهيري الى عصا غليظة، يُظهرون رأسها من تحت العباءة لكل حاكم (خليفة، سلطان، ملك، رئيس) يقف عقبة في طريق مشاريعهم، فما كان من الحاكم- والحال هذه- إلا أن ينزل عند رغباتهم، ويفعل ما يرضيهم، ويتخذ إجراءات قاسية، بل قاسية جداً أحياناً، ضد العباقرة الأصلاء.

وأكتفي في هذا الصدد بذكر مثال واحد، هو موافقة السلطان صلاح الدين الأيوبي على الحكم بقتل الفيلسوف الكردي شهاب الدين السُّهْرَوَرْدي (يحيي بن حَبَش بن أمِيرَك) سنة (٥٨٦ هـ) في حلب، نزولاً عند فتوى من بعض الفقهاء، اتفقوا على صياغتها، ورفعوها الى السلطان، وأفتوا فيها بضرورة قتل السهروردي، قال ابن أبي أُصَيْبِعة:

"وقالوا: إن بقي هذا فإنه يُفسد اعتقاد الملك[١] ، وكذلك إن أُطلق فإنه يُفسد أيَّ ناحية كان بها من البلاد، وزادوا عليه أشياء كثيرة من ذلك"[٢] .

والحق أن العباقرة الأصلاء، في كل عصر، هم أقدر الناس على فضح انتهازية المتعبقرين، والتنبيه الى بؤسهم الفكري، وكشف ألاعيبهم، وحسبي أن أذكر رأي واصِل بن عَطاء كبير زعماء المعتَزلة (ت ١٣١ هـ - ٧٤٨ م) في المتعبقرين وأدعياء الثقافة، فقد وصفهم بقوله:

"ما اجتمعوا إلا ضَرّوا، ولا تفرّقوا إلا نَفَعوا. فقيل له: قد عرفنا مَضَرّة الاجتماع، فما مَنفعة الافتراق؟ قال: يَرجِع الطَّيّانُ الى تَطْيِينه، والحائكُ الى حِياكته، والمَلاّحُ الى ملاحته، والصائغُ الى صياغته، وكلٌّ إنسان الى صناعته، وكلُّ ذلك مَرْفِق للمسلمين، ومَعونة للمحتاجين"[٣] .

---

٠١ الملك الظاهر حاكم حلب، وهو ابن صلاح الدين.

٠٢ ابن أبي أُصَيْبِعة: عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء، ص ١٦٧ .

٠٣ الجاحظ: رسائل الجاحظ، ٢٨٣/١ . والمرفق: ما يُنتفَع به الناس.

**آليات وإبداعات:**

ومن أسوأ التقاليد التي أرساها المتعبقرون (أدعياء الثقافة) في ثقافات غربي آسيا هو الدوران في فلك الأنانية (النرجسية) إما ذاتياً أو قبلياً أو طائفياً أو دينياً أو قومياً، وتوظيف جميع وسائل الدعاية الممكنة؛ لتسويق تلك النرجسية وإخراجها في صورة الفكر الأسمى والأنقى والأتقى.

ومعروف أنه حيثما تكن النرجسية تكن (ثقافة إلغاء الآخر)، إنهما شريكان لا يفترقان، ونهجان متكاملان، وهكذا تقع المجتمعات، عبر الأجيال المتتابعة، ضحية الفكر الظلامي المنغلق، الفكر الذي لا يري معتنقه إلاّ نفسه أو قبيلته أو طائفته أو دينه أو قوميته؛ ومتى كان فكر كهذا مدخلاً الى السلم الاجتماعي؟ ومتى كان طريقاً صائباً الى الحضارة؟

وكان المتعبقرون (أدعياء الثقافة) في غربي آسيا بارعون في اختراع الآليات الكفيلة بتكريس مشاريع الإلغاء والإقصاء، وهي آليات كثيرة تتداخل وتتقاطع، ويأخذ بعضها برقاب بعضها الآخر، وتتمثّل فيها أقصي درجات الدهاء والمكر، والتلبيس والتدليس، ودسّ السمّ في الدسم، واستغفال القارئ والسامع، وتجاهل حقائق الجغرافيا والتاريخ، وتعميم السذاجة في التفكير، والجلافة في التعبير، والبلادة في الشعور، والمؤسف أنها تصل أحياناً الى الدركات السفلي من الانحطاط والنذالة.

وإليكم بعض تلك الآليات:

١. التعميم: هو إحلال الجزء محل الكل، والفرع محل الأصل، وصرف الانتباه عن القضايا الكبري، وإشغال الناس بالتُّفاهات.
٢. التعتيم الكلي: تُمارَس هذه الآلية ضد (الآخر) حينما يصبح مجردُ ظهوره عائقاً في طريق تكريس مشاريع الإلغاء.
٣. التعتيم الجزئي: هنا يسمح القائمون على مشروع الإلغاء بالإفراج عن بعض المعلومات؛ وهم لا يفعلون ذلك إلا عندما يعجزون عن تغييب (الآخر) تغييباً كاملاً.
٤. التضخيم: تُمارَس هذه الآلية لتكبير الجانب السلبي في حياة شخص أو جماعةِ، كي يُلفِت الانتباه أكثر، ويُشغِل عن التنبّه الى الجوانب الإيجابية الكثيرة.
٥. التقزيم: تُمارَس هذه الآلية لتصغير الجوانب الإيجابية في حياة شخص أو جماعة،

كي تبدو محدودة جداً بل تافهة، لا تستحق الوقوف عندها والاهتمام بها.

٦. التمويه: تُمارَس هذه الآلية حينما يكون شخصان أو أكثر مشتركان في صفة ما غير حميدة، وَفق معايير قادة مشاريع الإلغاء، لكن يُراد ذكر أحدهما، وتغييب الآخر، فيُذكَر الأول، ويوضَع الآخر تحت بند العبارة الغامضة: (وغيره).

٧. التحريف: هو إخراج الشخص أو الحدث من سياقه التاريخي الطبيعي، وتجريده من معطيات الواقع، والحكم عليه بعد وضعه في سياق تاريخي آخر مصطنَع.

٨. التدليس: هو آلية تقديم السمّ في الدَّسَم، والجِدّ في قالَب الفكاهة، والمزاعم في صور الحقائق، والأكاذيب في صور المعلومات الموثَّقة.

٩. التخليط: هو خلط الأمور، وتقديمها على شكل كومة هائلة من المعلومات المتراكبة المتناقضة، فيصبح المراقب عاجزاً عن متابعة أمرٍ ما من البداية الى النهاية، ويكون عاجزاً عن الخروج بنتائج محدّدة.

١٠. التبشيع: تجلياتها متشعّبة ومتشابكة، أبرزها: التفسيق والتكفير (دينياً)، والعمالة والخيانة (وطنياً)، والطعن في النسب والسلوك (اجتماعياً).

١١. الخداع اللغوي: هذا في حد ذاته مدخل الى كثير من فنون الدس والتدليس والتضليل، تارة عبر استعمال التعبيرات الزئبقية، وأخرى عبر التجسير اللغوي المفتعَل، وثالثة عبر توظيف المجاز والرمز.

هذه بعض آليات قادة مشاريع الإلغاء، وهي في تجدد وتطوير مستمر، وكان المتعبقرون يتفنّون في اختراعها بما يتناسب مع كل مكان وزمان وموقف، ونجد في الأجيال الحديثة من المتعبقرين أناساً سبقوا بأشواط أساتذتهم القدامى في هذا الميدان، وهم على أُهْبة الاستعداد لأن ينقضّوا على كل نظرية فكرية حديثة، وعلى كل اختراع علمي حديث، كي يوظّفوهما بمهارة في مشاريعهم الإلغائية.

ولنعد الى استكمال عرض إنتاج صنّاع (ثقافة الإلغاء) في مجال تشويه صورة الكرد عبر مصادر التراث الإسلامي، فذلك الإنتاج عامر بأصناف الآليات المشار إليها، وقد ذكرنا بعضها في صفحات سابقة (الأصل الجني/الشيطاني، التحالف مع إبليس، عصيان الله والأنبياء، حرق النبي إبراهيم، إلخ) وإليكم بعضها الآخر.

## تهمة اللصوصية:

اللصوصية من لوازم المجتمعات قديماً وحديثاً، وليس من الغرابة في شيء أن يكون في المجتمع الكردي لصوص، شأنهم في ذلك شأن جميع الشعوب، وتعالوا نتفحّص ما جاء في بعض مصادر التراث الإسلامي حول وصف الكرد باللصوصية، والآليات التي استُخدمت في هذا الميدان للطعن في الشخصية الكردية:

- قال ابن الأثير في أحداث سنة (٤٢١ هـ): "وفيها ظهر مُتلصِّصةٌ ببغداد من الأكراد، فكانوا يَسرِقون دوابَّ الأتراك، فنَقل الأتراك خيلَهم الى دُورهم، ونقل جلالُ الدولة دوابَّه الى بيت في دار المملكة"[١] .

- نقل ابن كَثير الخبر السابق نفسه في حوادث سنة (٤٢١ هـ)، فقال: "وفيها دخل خَلَقٌ كثير من الأكراد الى بغداد، يَسرِقون خيلَ الأتراك ليلاً، فتحصّن الناس منهم، فأخذوا الخيول كلَّها حتى خيلَ السلطان"[٢] .

- وأورد الحافظ الذَّهَبي أيضاً الخبر نفسه ضمن أحداث سنة (٤٢١ هـ) قائلاً: "وتجدَّد دخول الأكراد اللصوص الى بغداد، فأخذوا خيول الأتراك من الإصْطَبْلات "[٣] .

تعليق: من الآليات العريقة في (ثقافة إلغاء الآخر) الغرب آسيوية تقديم المعلومة بعيداً عن المعطيات البيئية والاجتماعية والسياسية المواكبة لها، وقد أدرجنا هذه الآلية تحت بند (التحريف)، والحقيقة أن هذه سُنّة متّبَعة وبإصرار الى يومنا هذا، سواء أكان في مجال التعظيم والتمجيد، أم في مجال التبشيع والتنديد.

وهذه الآلية بارزة في الخبر السابق، فالمهم بالنسبة الى صانع الخبر وراويه هو إلباس الكرد صفة اللصوصية، وليس من الضروري أن يعرف الناس الأسباب التي جعلت بعض الكرد يسطون على خيول الأتراك والبُوَيْهيين في بغداد عاصمة الخلافة ومركز السلطة.

والحقيقة التاريخية التي حاول صانع الخبر السابق إخفاءها هي أن العسكر الأتراك المرتزقة كانوا قد تغلغلوا في مفاصل الدولة العباسية منذ عهد الخليفة المُعتصِم بالله

---

١. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٩/٤١٠ . وجلال الدولة من ملوك بني بُوَيْه.

٢. ابن كثير: البداية والنهاية، ١٢/٢٨ .

٣. الذهبي: العِبَر في خَبر مَن غَبَر، ٢/٢٤٣ .

(ت ٢٢٧ هـ)، وصاروا العنصر الآمر الناهي في الدولة، وخاصة بعد أن دبّروا مؤامرة راح ضحيتها الخليفة المتوكّل على الله سنة (٢٤٧ هـ).

وفي سنة (٣٣٤ هـ - ٩٤٦ م) سيطر البُوَيْهيون (شعب آرياني دَيلمي موطنه جنوبي بحر قَزْوين) على بغداد عاصمة الدولة العباسية، وأزاحوا الأتراك عن سُدّة السلطة، وصار الأتراك مرتزقة في الجيش البُوَيْهي، وراح البويهيون وصنائعهم الأتراك ينهبون ثروات البلاد، ويسومون الناس ألوان الظلم والقهر.

ومعروف أن الكرد (قومٌ أولو بأس شديد)، وهم في مقدّمة الثائرين على الظلم والقهر حيثما كان؛ وهذه حقيقة تؤكدها مواقف كثيرة قديماً وحديثاً، وكان من الطبيعي- والحال هذه- أن تدور حرب شرسة بين الكرد الثائرين والسلطات الحاكمة حينذاك، وبما أن الخيول في الحروب كانت عنصراً أساسياً في سلاح الفرسان، وكان هذا السلاح هو الذي يحسم نتائج المعركة، لذلك كان من جملة ما يقوم به الكرد في هذا الصراع هو السطو على خيول الجنود الترك والبويهيين في عُقْر دارهم، ومركز سلطتهم (العاصمة بغداد)، لاستخدامها في القتال ضدهم.

## تهمة الإفساد وقطع الطرق:

وردت في مصادر التراث الإسلامي روايات متعددة حول قيام الكرد بالاضطرابات ضد السلطات الحاكمة، وقطع الطرق، وإحداث الفوضى:

- قال البَلاذُري: "وحدّثني المَدائني وغيره أن الأكراد عاثوا وأفسدوا في أيّام خروج عبد الرحمن بن محمّد بن الأشْعَث. فبعث الحجّاجُ عمرَو بن هانئ العَبْسي في أهل دمشق إليهم، فأَوْقعَ بهم، وقتل منهم خلقاً"[1] .

- قال ابن الأثير في أحداث سنة (١٤٨ هـ): "وفيها استعمل المنصور على الموصل خالد بن بَرْمَك، وسبب ذلك أنه بلغه انتشار الأكراد بولايتها وإفسادهم، فقال: مَن لها؟ فقالوا: المُسَيَّب بن زُهَير، فأشار عُمارة بن حمزة بخالد بن بَرْمَك، فولاّه وسيّره إليها، وأحسنَ الى الناس، وقهر المفسدين وكفّهم، وهابه أهل البلد هيبةً شديدة مع إحسانه إليهم"[2] .

---

١. البَلاذُري: فتوح البلدان، ص ٣١٩ .

٢. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٥/٥٨٥ .

- قال ابن الأثير في أحداث سنة (٢٣١ هـ): "وفيها قَدِم وَصِيف التركي من ناحية أصْبهان، والجبال، وفارس، وكان قد سار في طلب الأكراد؛ لأنهم كانوا قد أفسدوا بهذه النواحي، وقَدِم معه نحوٌ من خمس مائة نفس فيهم غِلمان صغار، فحُبِسوا، وأُجيز بخمسة وسبعين ألف دينار، وقُلِّد سيفاً"[١].

- قال ابن كثير في أحداث سنة (٤٣٣ هـ): "فيها شَعَثَت الأكراد ببغداد؛ لسبب تأخّر العطاء عنهم"[٢].

- قال ابن الأثير في أحداث سنة (٤٤٥ هـ): "وفيها، في شوّال، وصل الخبر الى بغداد بأن جمعاً من الأكراد وجمعاً من الأعراب قد أفسدوا في البلاد، وقطعوا الطريق، ونهبوا القرى، طمعاً في السلطنة بسبب الغُزّ، فسار إليهم البَساسِيري جَرِيدة [٣]، وتبعهم الى البَوازِيج، فأوقع بطوائف كثيرة منهم، وقتل فيهم، وغَنِم أموالهم، وانهزم بعضهم فعبروا الزّاب عند البوازِيج، فلم يُدركهم، وأراد العبورَ إليهم، وهم بالجانب الآخر، وكان الماء زائداً، فلم يتمكن من عبوره، فنَجَوا"[٤].

تعليق: هذه الأخبار تؤكد فشل السلطات الحاكمة في إخضاع الكرد، وفرض السيطرة عليهم، وهذه حقيقة معروفة منذ عهد الإمبراطورية الآشورية، فقد كانت المشكلة التي تؤرّق الملوك الآشوريين هي إخضاع الميديين (أسلاف الكرد)، وعجزوا عن ذلك رغم جميع الحروب التي شنّوها عليهم، ورغم جميع أصناف البطش والتنكيل، بل إن نهاية الإمبراطورية الآشورية كانت على أيدي الميديين.

وكي نضع الأخبار السابقة في سياقها التاريخي الصحيح يكفي أن نستخدم (ثاروا، ثورة، ثائرون) بدل (أفسدوا، إفساد، مفسدون)، فالكرد كانوا يعبّرون عن رفضهم للخضوع بالتمرد والثورة وشنّ حرب الأنصار (لعصابات)، وكان من مصلحة السلطات الحاكمة أن تسمّيهم قطّاع طرق ومفسدين، وكان من مهمّة مثقفي السلطة، على اختلاف تخصصاتهم ومستوياتهم، أن يتلقّفوا تلك التوصيفات، ويروّجوها عبر الروايات.

---

١. المرجع السابق، ٢٣/٧.

٢. ابن كثير: البداية والنهاية، ٤٩,/١٢ وشعثت: أثارت الاضطرابات.

٣. البَساسيري: قائد تركي. وجريدة: خيّالة. والبوازيج: بلدة تقع عند مصبّ نهر الزاب الأسفل في دجلة.

٤. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٥٩٦/٩.

وروى الشاعر الشيعي دِعْبِل بن على الخُزاعي (ت ٢٤٦ هـ - ٨٦٠ م) قصة طويلة خلاصتها أنه ألف قصيدة، منها قوله (مدارسُ آياتٍ خَلَتْ من تلاوةٍ)، وقصد بها الإمام الشيعي على بن موسي الرِّضا في خُراسان، إذ كان وليّ عهد الخليفة المأمون، فأنشده القصيدة، ثم أنشدها أمام المأمون أيضاً، وقبض منهما أموالاً كثيرة، إضافة الى ما وهبه له على بن موسي الرِّضا من ثيابه، كما أن الوزير ذا الرئاستين وهبه بِرْذَوْناً أصفر ومِمْطراً (ثوب لاتقاء المطر) من حرير، وقال دِعْبِل:

"وقضيت حاجتي، وكَرَرْت راجعاً الى العراق، فلما صرت ببعض الطريق، خرج علينا أكراد يُعرَفون بالماريخان[1] فسلبوني، وسلبوا القافلة، وكان ذلك في يوم مَطِير. فاعتزلت في قميص خَلَق قد بقي علي، وأنا متأسّف- من جميع ما كان عليّ- على القميص والمنشَفة اللذين وهبهما لي على بن موسي الرضا، إذ مرّ بي واحد من الأكراد، وتحته البِرْذَوْن الأصفر الذي حملني عليه ذو الرياستين، وعليه المِمْطَر الخَزّ، ثم وقف بالقرب مني، وابتدأ ينشد: (مدارسُ آياتٍ)، ويبكي. فلما رأيتُ ذلك، عَجِبت من لصّ كرديّ يتشيّع"[2] .

وذكر دعبل أنه طمع في استرداد القميص والمِنشفة، فأخبر الكردي أنه دعبل صاحب القصيدة، ولما تأكد الكردي أمر صحابه أن يردّوا لدعبل ولأصحاب القافلة جميع أموالهم دون استثناء. وأضاف دعبل قائلاً:

"فردّ على الناس أمتعتهم، وعليَّ جميع ما كان معي، ما فَقَد أحدٌ عِقالاً، ثم رحلنا الى مأمننا سالمين. قال راوي هذا الخبر عن دِعْبِل: فحدّثتُ بهذا الحديث عليَّ بن بَهْزاد الكردي، فقال لي: ذاك - والله - أبي الذي فعل هذا[3]".

تعليق: واضح من سياق الخبر أن بَهْزاد الكردي كان من الكرد الشيعة المثقفين الناقمين على السلطات الحاكمة، الثائرين عليها، وهو ليس مثقف فقط، بل إنه رجل شديد الموالاة لآل بيت النبي محمد، حتى إنه ردّ لأصحاب القافلة جميع أموالهم، مكافأةً لدعبل على قصيدته في مدحهم، وإن مثقفاً وشيعياً مخلصاً مثله لا يكون قاطع طريق بقصد السلب والنهب والإفساد، وإنما يكون قائد حرب عصابات ضد السلطات الجائرة.

---

١٠ الماريخان: كذا، والصواب: مازنْجان، وهم قبيلة من الكرد في حدود أصفهان.

٢٠ التّنُوخي: الفَرَج بعد الشدة، ٢٢٧/٤- ٢٣٠ .

٣٠ المرجع السابق نفسه.

ونقل التَّنُوخي خبر قاطع طريق كردي يُفتي فقال:

"وحدّثني عبد الله بن عمر بن الحارث الواسِطي السَّرّاج، المعروف بأبي أحمد الحارثي، قال: كنت مسافراً في بعض الجبال، فخرج علينا ابن سَباب الكردي، فقطع علينا، وكان بزِيّ الأمراء، لا بزيّ القُطّاع. فقربت منه لأنظر إليه وأسمع كلامه، فوجدته يدلّ على فهم وأدب، فداخلْته فإذا برجل فاضل، يروي الشعر، ويفهم النحو"[1] .

تعليق: هذا الخبر طويل، ويتضح من سياقه أن ابن سَباب الكردي كان من زعماء الكرد المثقفين، مثل بهزاد الكردي، فالرجل بصير بتمييز الشعر، مطّلع على كتابات الجاحظ، خبير بفقه الزكاة، والأرجح أنه كان من الناقمين على السلطات، والثائرين عليها، وكانت عملية قطع الطرق جزءاً من حرب العصابات ضد السلطة، لإستنزاف مواردها الاقتصادية من جانب، ولتموين الثوار بمتطلبات المعيشة والقتال.

- قال ابن جُبَيْر يصف رحلته الى مناطق آمد (ديار بكر) في شمالي كردستان: "فتمادى سيرُنا أوّلَ الظهر، ونحن على أُهْبة وحَذَرٍ من إغارة الأكراد الذين هم آفة هذه الجهات من الموصل، نِصيبين مدينة دُنَيْصِر، يقطعون السبيل، ويسعون فساداً في الأرض، وسكناهم في جبال منيعة على قرب من هذه البلاد المذكورة، ولم يُعِن اللهُ سلاطينَها على قَمْعهم وكَفِّ عادِيَتهم، فهم ربما وصلوا في بعض الأحيان باب نِصيبين، ولا دافعَ لهم ولا مانعَ إلا الله عز وجل"[2] .

تعليق: ابن جبير رحّالة أندلسي ( ت ٦١٤ هـ - ١٢١٧ م)، وقد بدأت رحلته الى الشرق سنة (٥٧٨ هـ - ١١٨٢ م)، وانتهت سنة (٥٨١ هـ - ١١٨٥ م)، وزار خلالها مصر، وبلاد الشام، والحجاز، والعراق، وشمالي كردستان (جنوب شرقي تركيا حالياً)، ويُفهَم من سياق الخبر أن القائمين على تنسيق ملفّات الشعوب في الذاكرة العرب آسيوية سرعان ما فتحوا لابن جُبَير الملفّ الكردي، وقدّموا له الكرد بالصورة البشعة المتّفق عليها؛ لذلك ما إن وطئت قدما ابن جُبَيْر المناطق الكردية حتى عاش في خوف دائم من (الأكراد).

ولست أنفي أنه كان بين الكرد من يقطع الطرق حينذاك، وأوضحنا الأسباب التي

---

١. المرجع السابق، ١/٢٣١ - ٢٣٣ .

٢. ابن جُبَيْر: رحلة ابن جُبَيْر، ص ٢١٥ . ودُنَيْصِر: تسمّى دُنَيْسِر أيضاً، وسمّيت في العهد العثماني (قُوج حَصار).

كانت تقف وراء ذلك، لكن الغريب أن الصورة التي قُدّمت لإبن جُبير كانت شديدة القتامة، والغريب أيضاً أن رحلة ابن جُبَيْر كانت خلال عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي، وقد عبّر في عدّة مواطن من كتابه عن إعجابه الشديد بعدالة صلاح الدين، وأشاد بمنجزاته الاقتصادية والعلمية، لكن يبدو أن القائمين على الملفّ الكردي حينذاك كانوا حريصين على طَمس كل ما هو مضيء في سيرة الكرد، وتضخيم ما هو سلبي فقط.

- قال ياقوت الحموي في حديثه عن (شَهْرَزُور): "إلاّ أن الأكراد في جبال تلك النواحي على عادتهم في إخافة أبناء السبيل، وأخذ الأموال والسرقة، ولا ينهاهم عن ذلك زَجْرٌ، ولا يصدُّهم عنه قتلٌ ولا أَسْرٌ، وهي طبيعة في الأكراد معلومة، وسَجِيّةٌ جِباهُهم بها مَوْسومة، وفي مُلَح الأخبار التي تُكْسَعُ بالاستغفار أن بعض المتظرّفين قرأ قوله تعالى: (الأكرادُ أشدُّ كُفراً ونفاقاً) فقيل له: إن الآية (الأعرابُ أشدُّ كُفراً ونفاقاً) [التوبة: ٩٧]. فقال: إن الله– عزّ وجلّ–ترك شَهْرَزُور،ولا ينظرَ الى ما هنالك من البَلايا المخبّآت في الزوايا "[١] .

تعليق: ما يثير الانتباه في هذا الخبر هو الحكم العام الذي أصدره ياقوت بحق الكرد جميعاً، دونما استثناء، الى درجة أنه جعل صفات النهب والسلب طبيعة في الكرد. وكعادة غيره من المتحاملين على الكرد لم يجد حَرَجاً في توظيف الآية القرآنية الخاصة بالأعراب لأبلسة الكرد، وبرّر ذلك بأن الاستغفار كفيل بمحو الآثام الناجمة عن التلاعب بالآية. وبعد أن استغفر ياقوت ربه ذكر ما يتناقض تماماً مع حكمه المطلق السابق، وتلك هي عادته وعادة أمثاله من المثقفين المرتزقة، وكأنهم أناس بلا ذاكرة، أو كأنهم يفترضون أن القرّاء بلا ذاكرة، قال ياقوت:

"وقد خرج من هذه الناحية من الأجِلَّة والكُبَراء، والأئمّة والعلماء، وأعيان القضاة والفقهاء، ما يفوت الحَصر عدُّه، ويعجز عن إحصائه النَفَسُ ومدُّه، وحسبُك بالقضاة بني الشَهْرَزُوري جلالةَ قَدْرٍ، وعظَمَ بيت، وفخامةً فعلٍ، وذكرٍ الذين ما علمتُ أنّ في الإسلام كلِّه وَلِيَ من القضاة أكثرَ مِن عِدّتهم مِن بيتهم، وبنو عَصْرُون أيضاً قضاةُ بالشام، وأعيانُ مَن فرّق بين الحلال والحرام منه، وكثيرٌ غيرُهم جداً من الفقهاء الشافعية، والمدارس منهم مملوءة"[٢] .

---

٠١ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٤٢٦/٣ – ٤٢٧, وتُكْسَع: تُمحى.

٠٢ المرجع السابق، ٤٢٧/٣ .

– قال ابن حَمْدون:"كان رُكن الدولة أبو الحسن على بن بُوَيْه ضعيف السياسة على خيرٍ فيه وكَرَمِ طبع، ... وذُكر له أكرادٌ قطعوا الطريق، فقال: وهؤلاء الأكراد أيضاً يحتاجون الى خبز ومعيشة"[1] .

تعليق: إن الملك البُوَيهي كشف المستور، وصرّح بما أخفاه الآخرون؛ فـ (الأكراد) الذين كانوا يمارسون قطع الطرق لم يكونوا يفعلون ذلك من باب الإفساد، وإنما لأن سبل الحياة كانت قد سُدّت في وجوههم، ولم يبق أمامهم سوى فرض الغرامات على التجار الذين كانوا يضطرون الى المرور من جبال كردستان، لنقل البضائع شرقاً وغرباً.

إن افتقار المناطق الجبلية الى الأراضي الصالحة للزراعة، وتهميش المناطق الكردية بشكل عام، وسيطرة السلطات المركزية على حركة التجارة، ونقمتها على الكرد؛ هذه العوامل جميعها قذفت بالكرد بين براثن الفاقة والحرمان، ووضعتهم أمام خيار وحيد؛ هو الاعتماد على القوة في تحصيل أسباب الحياة، ومقارعة السلطات، وتقاسم الثروة معها.

## تهمة النفاق والكفر:

– قال الآبي:"ولما دخل الأكراد مدينة السلام مع أبي الهَيْجاء، واجتازوا بباب الطاق، قال بعض المشايخ من التجّار: هؤلاء الذين قال الله تعالى في كتابه: (الأكرادُ أشدُّ كُفراً ونِفاقاً). فقال له إنسان: يا هذا، إنما قال الله (الأعرابُ). قال الشيخ: يا سبحان الله! يقطع علينا الأكراد، ونكذب على الأعراب"[2] ؟!

تعليق: بنو حَمْدان قبيلة عربية من قبيلة (تَغْلِب)، وأبو الهَيْجاء هو عبد الله بن حَمْدان، والد سيف الدولة الحَمْداني (أمير حلب وتوابعها في القرن الرابع الهجري)، وقد بدأ الحمدانيون تأسيس إمارتهم في الموصل، وكانت العلاقة وثيقة بينهم وبين بعض الكرد، وتتمثّل على نحو خاص في المصاهرة؛ إذ كانت أمهات بعض كبار أمراء بني حمدان وزوجاتهم كرديات، ومن ذلك أن أم أبي الهَيْجاء عبد الله بن حمدان والد سيف الدولة كردية، وكانت أم سيف الدولة كردية، ويبدو أن زوجته كانت كردية أيضاً، وكانت من ميّافارقِين (فارقِين) في شمالي كردستان[3] .

---

١. ابن حمدون: التذكرة الحمدونية، ١/٤٦٤ .

٢. الآبي: نَثْر الدُّر، ٢/١١٤ .

٣. انظر أحمد عَدْوان: الدولة الحَمْدانية، ص ١١١، ص ٢٩٧ .

وحينما سيطر العسكريون الأتراك على مقاليد السلطة في بغداد، وخاصة بعد أن دبّروا مقتل الخليفة المتوكل على الله، كان أمراء بني حمدان من جملة الثائرين عليهم، وظل الأمر كذلك حينما سيطر البُوَيهيّون على مقاليد الأمور، وكان ثمة تعاون عربي كردي ضد البويهيّين والعسكر الأتراك، وواضح من الخبر أن الكرد كانوا يشكلون قوة قتالية هامة في جيش أبي الهيجاء[١] .

وإذا أخذنا هذه المعطيات بالحسبان عرفنا النوايا الخافية وراء نقمة تجار بغداد على الكرد خاصة، وجرأتهم على اتهام الله – عزّ وجلّ– بالخطأ والعياذُ بالله، فالمفروض– حسب رأيهم– أن تكون الآية بصيغة (الأكراد أشدّ كفراً ونفاقاً)، وليس بصيغة (الأعراب أشدّ كفراً ونفاقاً).

– قال الزَّمَخْشَري: "سُمع رجل يقرأ: الأكرادُ أشدُّ كُفراً ونِفاقاً. فقيل له: ويحك، الأعرابُ. فقال: كلُّه يقطع الطريق"[٢] .

تعليق: هكذا نجد أن الخبر الذي يشتمل على تبشيع صورة الكرد يصبح مادة رائجة للطُّرفة، وهي مادة مقبولة للتداول ليس عند الأدباء من أمثال الآبي وابن حمدون فقط، وإنما عند بعض مشاهير مفسّري القرآن أيضاً، من أمثال الزَّمَخْشَري (فارسي) صاحب تفسير (الكشّاف).

تلك كانت جولة مع صورة الكرد في بعض كتب التراث الغرب آسيوي في العهود الإسلامية، ولست ممن يعتقد بأن ثمة شعباً من الملائكة يمشي على الأرض، ولست أيضاً ممن يعتقد بأن ثمة شعباً اختاره الله منذ الأزل، وفضّله على جميع خلق في كل مجال، وأعتقد اعتقاداً جازماً بأن لكل شعب في هذا العالم صفاته التي يختلف بها عن غيره من الشعوب، ومن تلك الصفات ما هو إيجابي وما هو سلبي، وأعتقد أيضاً أن صفات كل شعب هي نتاج البيئة الطبيعية والظروف التاريخية التي تحيط به.

وذلك هو رأيي في الكرد أيضاً، فهم مثل بقية الشعوب، فيهم الصالح والطالح، والعالم والجاهل، والمحسن والمسيء، والفاضل والأفضل، والرديء والأردأ، لكن ما لم أستطع أن أجد له مبرراً منطقياً وموضوعياً هذه الحملة القاسية التي شُنّت على الكرد في مصادر التراث الإسلامي، إنها حملة شارك فيها السياسي، وشيخ الإسلام،

---

١. انظر أحمد الخليل: تاريخ الكرد في الحضارة الإسلامية، ص ١٧٨– ١٧٩، و ١٨٣– ١٨٤ .

٢. الزَّمَخْشَرِي: ربيع الأبرار وفصوص الأخبار، ٣٦٤/١ .

والإمام، والمؤرخ، والجغرافي، والأديب، والشاعر، والرحّالة.

وما لم أجد له مبرراً منطقياً وموضوعياً أيضاً هذه الأحكام المطلقة التي تضع الكرد كل مرة في واحدة من خانات التبشيع، وهذا التعميم الذي يحلّ فيه الجزء محلّ الكل، وهذا التوظيف الغريب لبعض الآيات القرآنية في تشويه صورة الكرد، دونما أيّ حرج أو التزام بحدود التقوي.

## ١٨

# على مشارف القرن العشرين

### في عُمق المؤامرة:

بعد هذه الرحلة مع التاريخ، وهذا الكمّ من الشواهد، لا يبقي شك في أن مشروع (أبلسة الكرد) كان في جوهره مشروع (مؤامرة على الكرد)، وهو مشروع فريد من نوعه؛ مداه الزمني يتجاوز خمسة وعشرين قرناً من الزمان، ومداه الجغرافي يغطي جميع مناطق غربي آسيا، وتأكد في العصر الحديث أن هذا المشروع كان يَلقي دعماً لوجستياً مستمراً من جهات غرب آسيوية، ومن جهات أخرى عولمية.

ويبدو مشروع المؤامرة على الكرد، من حيث بنيته وهيكليته وآلياته، وكأنه شركة مساهمة عملاقة، لها مخططوها ووكلاؤها ومروّجوها ومنفّذوها، إضافة الى القائمين على تقديم الدعم اللوجستي المطلوب، وهؤلاء جميعهم خليط عجيب إثنياً، ودينياً، ومذهبياً، وسياسياً، خليط أفراده مختلفون فيما بينهم على أمور وقضايا كثيرة وخطيرة، لكنهم متفقون فيما بينهم ضمناً، وبالتضامن والتكامل والتكافل، على هدف واحد؛ هو الشطب على الكرد، ورميهم ليس خارج دائرة التاريخ الغرب الآسيوي فقط، وإنما خارج دائرة التاريخ البشري كله.

وأعتقد أن الأدلة والشواهد التي استعرضناها كافية لأن ترسم الملامح الحقيقية لهذا المشروع العملاق، وهي كافية أيضاً لإقناعنا بأن المسألة ليست وهماً نطارده، ولا حُلماً مزعجاً نستريح منه بمجرد اليقظة، ولا هو ضربٌ من الفكاهة البريئة، ولا هو نوع من الرُّهاب (الخُواف) الثقافي. وكيف يكون الموضوع وهماً أو حُلماً أو فكاهةً بريئة أو رُهاباً ثقافياً؛ والشهود على المشروع- بحسب الروايات المتواترة- شخصيات تتفاوت مكانتها في الذاكرة الغرب آسيوية بين المرموقة جداً، والمرموقة؟ وأولئك الشهود فريقان:

١٠فريق نخبة النخبة: منهم الأنبياء (النبي إبراهيم، النبي سليمان، النبي محمد) عليهم

السلام، ومنهم الملوك (أَزْدهاك، نَمْرُود، أردوان البارثي، أردشير الساساني)، وبعضهم من كبار الصحابة (عبد الله بن عبّاس، عبد الله بن عمر بن الخَطّاب، أبو هُرَيْرة)، وبعضهم من كبار الأئمة والتابعين وحُفّاظ الحديث والفقهاء (الإمام جعفر الصادق، مُجاهِد، عِكْرِمة، السُّدِّي، الغزالي، ابن تَيمية، الكُلَيني).

٢. فريق النخبة: فيهم المفسّر من أمثال (الطَّبَري، والبَغَوي، والفَخْر الرازي، والقُرْطُبي، والبَيْضاوي، والنَّسَفي، وابن كَثير، والشَّوْكاني)، وفيهم المؤرخ من أمثال (الطَّبَري، والمَسْعودي، وابن الأَثِير، وابن الجَوْزي، والمَقْرِيزي)، وفيهم الجغرافي مثل (ابن الفقيه الهَمَذاني، وياقوت الحَمَوي)، وفيهم اللغوي من أمثال (الزَّبِيدي)، وفيهم الموسوعي من أمثال (ابن قُتَيْبة الدِّينَوَري، والراغب الأصبهاني).

ومشروع المؤامرة على الكرد مشروع شامل متكامل، تفاصيله متعددة، وقد يبدو بعضها بعيداً عن بعضها الآخر، لكنها تنتظم في النهاية ضمن نسق واحد، هو التشكيك في الكرد من حيث هم شعب، والسير باتجاه غرض واحد، هو تقديم الكرد الى العالم في أبشع صورة ممكنة.

وكان القائمون على هذا المشروع يعرفون جيداً خصائص الذهنية الغرب آسيوية، فهي ذهنية أسطورية في الدرجة الأولى، ولا تستطيع أن تعي العالم وتتعامل معه إلا عبر المداخل الأسطورية، والدين بالنسبة إليها كالهواء، إنه موجود في السياسة والاقتصاد، وفي الآداب والفنون، ولذلك حرص مصممو مشروع الأبلسة على إنتاجه بصناعة (ماركة) دينية، وحرصوا على تسويقه دينياً أيضاً.

وبطبيعة الحال لم يلتزم القائمون على المشروع ضوابط المعقول (ما يقتضيه العقل)، كما أنهم لم يجدوا مانعاً من الالتفاف على صريح المنقول (النص الديني)، وتوظيفه بما يخدم أهدافهم، بل يبدو أنهم لعبوا في هذا المجال لعبة فيها الكثير من الدهاء، ونفّذوها على مرحلتين:

١ - في المرحلة الأولى: تم تنفيذ عملية (الأسْطَرة)؛ إذ دسّوا في التراث الديني الغرب آسيوي، بصورته الأخيرة (اليهودية والمسيحية والإسلام)، روايات خرافية أسطورية، ونسبوها الى كبار الشخصيات الدينية المبجّلة (النبي سليمان، النبي محمد، عمر بن الخطّاب، ابن عبّاس، عبد الله بن عمر بن الخطّاب، أبو هُريرة، جعفر الصادق، إلخ)، وضمنوا بذلك السيطرة على مداخل وعي الجماهير المسلمة،

وتغييب آليات التعقيل والتحليل، وإخضاع تلك المداخل لسلطة (النص الديني) المدسوس.

٢ – في المرحلة الثانية: تم تنفيذ عملية (الأَبْلَسة)، من خلال الارتكاز على قاعدة (الأَسْطَرَة)؛ إذ من المحال أن تجد عملية (الأبلسة) لها موقعاً في الوعي إلا ضمن إطار (الأسطرة)، وهذا هو سر بقاء الروايات الدائرة حول أبلسة الكرد طوال ستة قرون، وعدم شعور من نقلوها بالحرج العقلي والأخلاقي.

ولن نقف الآن عند الجهات التي كان من مصلحتها إنتاج مشروع الأبلسة هذا، ولعلنا نكون قادرين على ذلك حينما ننتهي من استكشاف بقية الجوانب الغامضة في هذا الموضوع، ودعونا نحصر اهتمامنا في النتائج المترتبة على هذا المشروع، وهي كثيرة ومتشعّبة، ولعل أبرزها ما يلي:

١ – على الصعيد الإثني: الكرد سلالة غير آدمية الأصول، إنهم سلالة جنية وكائنات مستنسَخة مشوَّهة، وليس هذا فحسب، بل إنهم سلالة شيطانية مقيتة ومنبوذة.

٢ – على الصعيد الاجتماعي: الكرد مخرّبون، وقطّاع طرق، وأشرار، وأعداء للحضارة، لا يصلحون سوى للسكنى في الجبال، ولا تجوز مخالطتهم، كما لا يجوز التعامل معهم لا بيعاً ولا شراءً ولا تزاوجاً.

٣ – على الصعيد الديني: الكرد بعيدون عن الله، خارجون عن طاعة أنبياء الله، وبتعبير آخر: هم أعداء الله والأنبياء والصالحين.

٤ – على الصعيد الحقوقي: بناء على التوصيفات السابقة يصبح من الطبيعي أن يتم تجريد الكرد من حقوق النسل الآدمي، ويصبح من المباح التعامل معهم على هذا الأساس طرداً وتهميشاً وتغييباً وتقتيلاً.

وهكذا فإن مشروع (أبلسة الكرد) لم يكن جهلاً ولا غفلة، ولم يكن فكاهة ولا زلّة لسان، وأخطر ما فيه أنه يطعن في أصل الكرد، ولا يخفي أن الطعن في أصل شعب ما يعني الطعن في هويته من الأبد الى الأزل، ويعني الطعن في جميع أجيال ذلك الشعب على مر القرون، ولا تعود المسألة مسألة أفراد يمكن إصلاحهم، أو شرائح يمكن تهذيبها، أو مظالم يمكن رفعها، وبعد أن أُدخل الكرد في خانة (الأبلسة) هل ينفع الكردي أن يصبح (مُوبَذ مُوبَذان) الزردشتي، أو (الحبر الأعظم) البابوي، أو (شيخ الإسلام) السنّي، أو (آية الله) الشيعي؟

## تحوّلات وتجلّيات:

مر أن جذور المؤامرة على أسلاف الكرد قديمة؛ إنها تعود الى عهود الصراع على بلاد الرافدين بين أقوام جبال زاغروس وأقوام صحراء بلاد العرب، وتفاقم ذلك الصراع مع نشأة الدول المركزية الكبري في بلاد الرافدين، ومع ولادة (وصيّة قَمْبَيز) سنة (٥٢٢ ق.م) انتقلت المؤامرة من طور الارتجال، الى طور التخطيط المنهجي، وتشكّلت (عقيدة المؤامرة) على الميديين في ذهنية النخب الفارسية، وتوحّد الدين بالسياسة في تلك العقيدة (لعنة قَمْبَيز)، وصار من الإثم الخروج عليها.

وقد حل اسم (الكرد) محل اسم (الميد) في أواخر العهد البارثي (الأشطاني) وأوائل العهد الساساني، ودخل أحفاد الميديين العصر العربي الإسلامي بهذا الاسم، ودخلت معهم (المؤامرة) أيضاً في لبوس (مشروع الأَبْلَسة)، وقد مرت تفاصيله، وللمرء أن يتساءل: ألم يكن من المنطقي أن تتوقف عجلة (المؤامرة على الكرد) عن الدوران مع سقوط الإمبراطورية الفارسية، ونهوض الإمبراطورية العربية الإسلامية؟

الجواب: بلي، ولكن سارت الأمور بخلاف ذلك؛ إذ صحيح أن العرب المسلمين قضوا على إمبراطورية الفرس، لكن كان محالاً أن يقضوا على الثقافة التي نمت وترعرعت في ظلال الأنظمة الفارسية طوال قرون، وثمة مقولة دارجة مفادها أن روما فتحت أثينا عسكرياً، لكن أثينا فتحت روما ثقافياً. وتصحّ هذه المقولة على العرب والفرس، فالعرب أدخلوا الى بلاد فارس ديناً جديداً، لكنهم كانوا يفتقرون الى مؤسسات إدارية وثقافية قادرة على التعامل مع الواقع الإثني والثقافي والاقتصادي والاجتماعي في الإمبراطورية العربية الإسلامية.

وسرعان ما استثمر الفرس- ساسةً ومثقفين- هذه الثغرة، وتسلّلوا الى مواقع صناعة المعرفة في الدولة العربية الإسلامية، واستغلوا ضحالة خبرة العرب في هذا المجال، بل استغلوا في كثير من الأحيان سذاجة البداوة، وسرعة تصديقها للغيبيات والأساطير، فمرّروا الى حقلي الدين والتاريخ- وهما الحقلان الأكثر تأثيراً في صناعة المعرفة- كمّاً هائلاً من المعلومات، وتحوّلت تلك المعلومات، بمرور السنين، الى قواعد معرفية تشكّل الفضاء الثقافي العرب إسلامي من ناحية، وتحدّد مسارات التفكير والتقويم بما يتناسب والذهنية الفارسية من ناحية أخرى.

وعلمنا فيما مر أن خرّيجي الثقافة الفارسية (معظم التابعين وتابعي التابعين غير

العرب) كانوا يمارسون صناعة المعرفة في مدرسة اليمن ومدرسة الحيرة (حلّت الكوفة محلّها)، وكانوا يتولّون مهمة تسويق المعلومات من خلال تفسير القرآن، وسرد أحداث التاريخ القديم، وازداد نفوذ الثقافة الفارسية في ظلال الخلافة العباسية منذ سنة (١٣٢ هـ)، وبات الفرس وخريجو الثقافة الفارسية يشكّلون معظم قادة الثقافة في ذلك العهد، في مجال التفسير والفقه والحديث والتاريخ واللغة والأدب.

وكان هؤلاء هم معظم من يقف وراء إشاعة المعلومات المساهمة في مشروع (أبلسة الكرد)، مستكملين ما بدأته النُّخب الفارسية، من أمثال (قَمبيز) و(دارا الأول)، قبلهم بقرون كثيرة، وهذا يعني أن الكرد اجتازوا من العهد الفارسي الى العهد العربي الإسلامي من غير دولة تحفظ لهم الهوية والجغرافيا، ومن غير مرجعية روحية تلملم شتاتهم، وتمثّلهم وتكون لسانهم الناطق أمام الحكام والمؤسسات والمراجع الدينية الأخرى، ومن غير لغة أدبية تجمع بينهم معرفياً، وتفصح عنهم في ساحات الثقافة، ومن غير قوة اقتصادية تخوّلهم البروز في جميع الميادين.

وجملة القول أن الكرد دخلوا العهد العربي الإسلامي على أنهم شعب رعوي، موطنه الجبال، لا يُعرف عنه سوى أنهم (كرد، أكراد)، شعب بلا مقوّمات سياسية، وبلا مقوّمات ثقافية. أما أمجاد أسلافهم الميديين فتم تغييبها عن الأسماع والأبصار والأذهان تغييباً تاماً، لا بل إن قادة الثقافة الفارسية وخرّيجيها صنّفوا الميديين ضمن الأسر الفارسية الحاكمة، والشيء الجديد الذي خرج به الكرد من العهد العربي الإسلامي هو الطعن في أصلهم، وتشويه صورتهم، وذلك بإخراجهم من دائرة البشر العاديين، وتنسيبهم الى الجن والشياطين والجواري الفاسقات، وتقديمهم الى العالم على أنهم رعاة جهلة أجلاف، ولصوص وقطّاع طرق وأشرار.

وبعد أن زرع خريجو الثقافة الفارسية وأشياعهم هذه المعلومات التضليلية عن الكرد في أصول الثقافة العربية الإسلامية، وتعهّدها أدعياء الثقافة وعشاق الخزعبلات بالعناية والرعاية في العهود اللاحقة، ومع عدم قيام المثقفين المسلمين- بما فيهم المثقفون الكرد- بالرد على تلك المزاعم والاتهامات، صار من الصعب إنقاذ الكرد من براثن تلك المؤامرة، وكان من الطبيعي أن يظلوا في قبضتها طوال عهد السلاجقة الأتراك، وطوال عهد المماليك الأتراك وطوال عهد ورثتهم المماليك الشراكسة، ولم يستطع العهد الأيوبي الكردي أن يغيّر في الأمر شيئاً، لسببين: الأول أن عهدهم

(١١٧٥ - ١٢٥٠ م) كان قصيراً إذا قيس بالعهود الأخرى. والثاني أن ملوك الأيوبيين كانوا مسلمين أكثر مما كانوا كرداً.

ومنذ أن سيطر الأتراك العثمانيون على القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية (الرومية) سنة (١٤٥٣ م)، وسيطر الصفويون على بلاد فارس حوالي سنة (١٥٠٥ ق.م)، بدأ عهد جديد من الصراع، كان شبيهاً بالصراع الذي دار طوال قرون بين إمبراطورية بيزنطا وإمبراطورية فارس قبل الإسلام، فحينذاك تقاسم الفريقان البيزنطي والفارسي أرض كردستان، وحصل الأمر نفسه في عهد الصراع العثماني الصفوي؛ إذ وقّع الشاه الصفوي عبّاس اتفاقية مع السلطان العثماني مراد الرابع سنة (١٦٣٩ م)، تقاسما بموجبها كردستان فيما بينهما.

وقد دخل الكرد عهد الصراع العثماني الصفوي بكل ما أحدثته فيهم فصول المؤامرة المستمرة من تخلف وانقسام وضيق أفق، لم تكن لهم مرجعية دينية توحّد رؤيتهم، ولم تكن لهم مرجعية سياسية توحّد مواقفهم، إنهم كانوا ريشة في مهبّ الرياح العاتية، وكان من الطبيعي- والحال هذه- أن يصبح قسم منهم أتباعاً للصفويين، ويصبح قسم آخر أتباعاً للعثمانيين، وأن يحل الانتماء الى المذهب محل الانتماء الى القومية، وكان من الطبيعي أيضاً أن تستمر المؤامرة، وأن يتعمّق التخلّف والانقسام في المجتمع الكردي، ويصبح أكثر بعداً عن إدراك حقيقته، وحقيقة السياسات الإقليمية التي كانت تحاك ضدّه، وحقيقة سياسات القوى الدولية التي كانت تتمدد حينذاك في الشرق عامة، وفي غربي آسيا خاصة.

ومع ذلك تنبّه بعض النخب الكردية الى الواقع المأسوى الذي انتهى إليه الكرد، فبادروا الى الثورة ضد العثمانيين والصفويين، وطالبوا بحق الكرد في قيادة أنفسهم، وفي أن يعيشوا أحراراً في وطنهم، وأصرّت على أن الكرد ليسوا فرساً ولا أتراكاً، وإنما هم (كرد) فقط،، ومن أكبر تلك الثورات ثورة أردلان (١٥٣٨ م) بقيادة الأمير سلطان حسين، وثورة عبد الرحمن باشا الباباني (١٨٠٤- ١٨١٣ م)، وثورة كُور محمد باشا راوندوز (١٨٣٦ م)، وثورة بدرخان بك (١٨٤٢- ١٨٤٧ م)، وثورة الشيخ عُبَيْد الله نَهْري (١٨٨٠- ١٨٨٣ م).

وعندئذ قرر العثمانيون والصفويون معاً كبح جماح المارد الجبلي، وإعادته الى قمقم التاريخ، وتغييبه إقليمياً ودولياً، وعزّزوا اتفاقيتهم السابقة سنة (١٦٣٩ م) بشأن

تقسيم كردستان فيما بينهم، فوقّعت الدولتان العثمانية والصفوية معاهدة أرضروم الثانية سنة (١٨٤٧ م)، ثم أتبعوها إتفاقية تخطيط الحدود سنة (١٩١٣ م)، ثم بمعاهدة لوزان سنة (١٩٢٣ م)، وكانت كل واحدة من هذه المعاهدات والاتفاقيات تعني إحداث المزيد من تقطيع أوصال الوطن الكردي، وتكريس المزيد من التشرذم والتخلف في المجتمع الكردي، وإبقائه خارج حركة التاريخ.

وفي الوقت نفسه لم تكن القوى الأوربية الكبرى حينذاك (روسيا وألمانيا وفرنسا وإنكلترا) غائبة عما كان يجري في كردستان، فمنذ القرن الثامن عشر الميلادي- وربما قبل ذلك- كان بعض الرحّالة والمبشّرين والدبلوماسيين الأوربيين يجوبون غربي آسيا، ويدوّنون مشاهداتهم وملاحظاتهم، ويقدّمونها للدوائر السياسية في دولهم، هذا إضافة الى نشاطات بعض رجال الدين المسيحي الشرقيين في هذا المجال، ونشاطات بعض قناصل الدول الأوربية، وهذا يعني أن القوى الأوربية الكبري كانت قد فتحت أعينها على كردستان، وكانت تضعها في حساباتها وفي رسم سياساتها، وكان لها من ثَم دور فاعل في إسقاط الثورات الكردية، وتمكين قبضة السلطات الفارسية والعثمانية من خناق الشعب الكردي، وبعبارة أخرى: إن القوى الأوربية الكبري كانت أحد المساهمين في المؤامرة على الكرد.

إن هذه الظروف والعوامل أنهكت المجتمع الكردي، وأوصلته الى بداية القرن العشرين وهو في حالة يرثي لها من التمزق والجهل والتخلف، ولم تقتصر خطورة هذه الحالة على حرمان الكرد من المرجعية السياسية والمرجعية الدينية فقط، وإنما حالت أيضاً دون تشكّل طبقة بورجوازية كردية، ذات حضور اقتصادي وثقافي فاعل داخلياً وإقليمياً، وقادرة على الاندماج في حركة الاقتصاد والثقافة على الصعيد العالمي، وكان ذلك من أهم أسباب تغييب الكرد عن خريطة العالم السياسية، وحرمانهم من حقوقهم القومية، وتعرّضهم طوال القرن العشرين لمختلف أشكال القهر والصهر والإبادات الجماعية.

## كلمة أخيرة:

إن السياسات في جوهرها ثقافات، والسياسات الخاطئة تجسيدٌ لثقافات خاطئة، وكي تتغير السياسات لا بد من تغيير الثقافات. تلك حقائق ينبغي أن نأخذها- نحن مثقفي غربي آسيا- بالحسبان حينما نقرأ تواريخ الشعوب، وحينما ندقّق التفكير في حاضرها ونخطط لمستقبلها، وقد درجت العادة على الإسراع الى تحميل الساسة وحدهم أوزار ما قد حلّ بشعوب منطقتنا العريقة من خصومات تزرع الأحقاد في القلوب، وصراعات تدمّر البلاد والعباد، وتقذف بنا بعيداً عن مسارات الحضارة.

والحقيقة أن المثقف الغرب آسيوي هو المسؤول في الدرجة الأولى عن جميع هذه البلايا؛ لأنه هو الذي يهيّئ المناخ النفسي والفكري لنشأة الخصومات، وتوتير العلاقات، وتفجير الصراعات، ولأنه هو الذي أنتج الثقافات الخاطئة طوال قرون، ثم جمّلها وبَهْرَجها، وأحرق لها البخور، وروّج لها صباح مساء، وربّى عليها الأجيال عاماً بعد عام، وهذا يعني ضمناً أن المثقف الغرب آسيوي هو المسؤول الأول عن تصحيح المسار الثقافي لشعوب هذه المنطقة، وعن العمل بجدّ وإخلاص ونبل لإحلال ثقافة (التكامل مع الآخر) بدل ثقافة (إلغاء الآخر).

ويمكنك- عزيزي القارئ- أن تمد يدك الى أقرب كتاب عن الحضارة، وتكتفي بقراءة الصفحات الأولى منه فقط، ستجد أن منطقة غربي آسيا كانت من الحواضن الأولى للحضارة في العالم، هنا تمّ ابتكار الزراعة، وهنا ظهرت صناعة التعدين، وهنا اختُرعت الكتابة، وهنا نشأت المدن، وهنا قامت مؤسسات الدولة.

بلي، وهنا - في غربي آسيا- ظهرت الديانات الكبري، وهنا أُحرقت أطنان من البخور للآلهة الكبرى والصغرى، وهنا كان أبو البشرية الأول (آدم)، وأبو البشرية الثاني (نوح)، وأبو الأنبياء (إبراهيم)، وخاتم الأنبياء (محمد)، فما السر في أن شعوب هذه المنطقة باتت متخلفة عن ركب الحضارة؟ وما السر في الحديث عن أسمى المبادئ وأنبل القيم على المنابر وصفحات الكتب، وتجسيد بعض أكثر المبادئ توحّشاً، وبعض أكثر القيم همجية، في ميدان الممارسة؟ أما كان جديراً بهذه الشعوب أن تكون في مقدمة حَمَلة المبادئ الإنسانية؟

وفي هذا الإطار نقول: إن المؤامرة على الكرد دليل صريح على أن مشكلتنا الكبرى-

نحن شعوب غربي آسيا- ليس في السياسات فقط، وإنما هو -بالدرجة الأولى- في الثقافات، وتحديداً في ثقافة (إلغاء الآخر)، ثقافة (أنا الموجود وغيري هو المعدوم)، ثقافة (أنا السيد وغيري هو التابع)، ثقافة (أنا الأنبل وغيري هو الأنذل)، ثقافة (أنا المقدس وغيري هو المدنّس)، ثقافة (أنا الإلهي وغيري هو الشيطاني). وكي ترفرف رايات الوئام والسلام والإزدهار على بيتنا الكبير هذا، ينبغي أن نعيد النظر في ثقافاتنا، فنطرح منها ما يدغدغ غرائز العصبية والعنصرية، وما ينشّط الفكر الظلامي وضيق الأفق، ونطوّر ما يعزّز التعارف والتكامل، ونعدّ لأجيالنا القادمة الجسور التي توصلهم الى مستقبل آمن ومشرق.

# فهرس المصادر والمراجع


٠١ أبراهام مالمات، حاييم تدمور: العبرانيون وبنو إسرائيل في العصور القديمة، ترجمة وتعليق دكتور رشاد عبد الله الشامي، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، الطبعة الأولى، ٢٠٠١ .

٠٢ الآبي: نثر الدُّر، كتاب إلكتروني، موقع الوَرّاق، www.alwarraq.com

٠٣ ابن الأثِير (عز الدين) أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق محمد إبراهيم البنّا، محمد أحمد عاشور، محمود عبد الوهاب فايد، دار الشعب، القاهرة، ١٩٧٠ .

٠٤ ابن الأثير (عز الدين): الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م.

٠٥ ابن الأثير (عز الدين): اللباب في تهذيب الأنساب، دار صادر، بيروت، ١٩٨٠ .

٠٦ أحمد أمين: ضحى الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة العاشرة، ١٩٨٠ .

٠٧ أحمد عادل كمال: الطريق الى المدائن، دار النفائس، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٧ .

٠٨ أحمد عَدْوان: الدولة الحَمْدانية، المنشأة العربية، ليبيا، الطبعة الأولى،١٩٨١ .

٠٩ أحمد فخري: دراسات في تاريخ الشرق القديم، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٠ .

١٠٠ أحمد محمود الخليل: تاريخ الكرد في الحضارة الإسلامية، دار هيرو، بيروت، ٢٠٠٧ .

١١٠ أرشاك سافراستيان: الكرد وكردستان، ترجمة أحمد محمود الخليل، دار هيرو، بيروت، ٢٠٠٧ .

١٢٠ إسرائيل فنكلشتاين، نيل أشر سيلبرمان: التوراة اليهودية منكشفة على حقيقتها، ترجمة سعيد رستم، الأوائل للنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥ .

١٣٠ إسماعيل عبد العزيز الخالدي: العالم الإسلامي والغزو المغولي، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٩٨٤ .

١٤٠ ابن أبي أُصَيْبِعَة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨١ .

١٥٠ ألبرت كيرك كريسون: الكتابات الملكية لآشور ناصربال الثاني، ترجمة صلاح سليم علي، دار ادي شير للنشر والإعلام، أربيل، ٢٠٠٤ .

١٦٠ الآلوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨ .

١٧٠ إيمانويل فلايكوفسكي: عصور في فوضى (من الخروج الى الملك أخناتون)، ترجمة الدكتور رفعت السيد، سينا للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٥ .

١٨٠ الدكتور أمين عبد المجيد بدوي: جولة في شاهنامة الفردوسي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٦ .

١٩٠ البُخاري: صحيح البخاري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٢ .

٢٠. البَغَوي: معالم التنزيل في التفسير والتأويل، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٥ .
٢١. البَلاذُري: فتوح البلدان، راجعه وعلق عليه رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨ .
٢٢. بونغارد – ليفين (إشراف): الجديد حول الشرق القديم، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٨ .
٢٣. البَيْضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، شركة مكتبة ومطبعة مصطفي البابي الحلبي وأولاده بمصر، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٥٥ .
٢٤. التَّنُوخي: الفرج بعد الشدة، تحقيق عبود الشالجي، دار صادر، بيروت، ١٩٧٨ .
٢٥. الدكتور توفيق سليمان: دراسات في حضارات غرب آسية القديمة من أقدم العصور الى عام ١١٩٠ ق.م، دار دمشق للطباعة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٥ .
٢٦. توماس طُمْسُن: الماضي الخرافي (التوراة والتاريخ)، ترجمة عدنان حسين، قَدْمُس للنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠١ .
٢٧. ابن تَيْمِيَة: الفتاوي الكبري، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفي عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧ .
٢٨. ابن تيْمِية: مجموع فتاوي ابن تيمية، كتاب إلكتروني، موقع الإسلام،
www.al-islam.com
٢٩. إبن تَيْمية: مجموع: مجموع فتاوي ابن تيمية، كتاب إلكتروني، موقع الإسلام،
www.al-islam.com
٣٠. الثَّعالِبي: يتيمة الدهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٣ .
٣١. الجاحظ: الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة مصطفي البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٨ .
٣٢. الجاحظ: رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧٩ .
٣٣. حازم صاغيّة: قوميّو المشرق العربي من درايفوس الى غارودي، رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠ .
٣٤. ابن جُبَيْر: رحلة ابن جبير، دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٤ .
٣٥. جرنوت فيلهلم: الحوريون تاريخهم وحضارتهم، ترجمة فاروق إسماعيل، دار جدل، حلب، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠ .
٣٦. ابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، دمشق– بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٤ .

٣٧٠جيمس ميلارت: أقدم الحضارات في الشرق الأدني، ترجمة محمد طلب، دار دمشق للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٠ .

٣٨٠جين بوترو، أوتو إدزاد، آدام فاكنشتاين، جين فيركوتر: الشرق الأدني الحضارات المبكّرة، ترجمة عامر سليمان، جامعة الموصل، ١٩٨٦ .

٣٩٠ابن أبي حاتم: تفسير القرآن العظيم، تحقيق أسعد محمد الطيّب، مكتبة نزار مصطفي الباز، مكة المكرمة- الرياض، الطبعة الأولى، ١٩٩٧ .

٤٠٠حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، جامعة إستانبول، ١٩٤١ .

٤١٠الإمام أبو حامد الغَزالي: إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٢ .

٤٢٠ابن حَبِيب: المُحَبَّر، رواية أبي سعيد السكّري، تصحيح إيلزة ليختن شتيتر، منشورات المكتب التجاري، بيروت.

٤٣٠حبيب بدر، سعاد سليم، جوزيف أبو نهرا (تحرير): المسيحية عبر كنائسها في المشرق، مجلس كنائس الشرق الأوسط، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٢ .

٤٤٠ والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٣ .

٤٥٠ابن حَجَر العَسْقَلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق على محمد البجاوي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٧٠ - ١٩٧٢ .

٤٦٠الدكتور حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي

٤٧٠الحُصْري القَيْرَواني: زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق على محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٧٠ .

٤٨٠ابن حمدون: التذكرة الحمدونية، تحقيق إحسان عبّاس، بكر عبّاس، دار صادر، بيروت، ١٩٩٦ .

٤٩٠ابن حَيّان الأندلسي: التفسير الكبير المسمّي البحر المحيط، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٠ .

٥٠٠ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون دار الكتاب المصري، القاهرة ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٩٩ .

٥١٠ابن خلِّكان: وَفَيات الأعيان، تحقيق الدكتور إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٩ .

٥٢٠خير الدين الزِّرِكْلي: معجم الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٦ .

٥٣٠أبو داود: سنن أبي داود، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر. (نسخة إلكترونية).

٥٤٠ياكونوف: ميديا، ترجمة وهبية شوكت، دمشق.

٥٥٠ذهبي: تجريد أسماء الصحابة، دار المعرفة، بيروت، ١٩٦٠ .

٥٦٠الذَّهَبي: سِيَر أعلام النبلاء، تحقيق شُعَيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٢ .

٥٧٠الذَّهَبي: العِبَر في خَبر مَن غَبَر، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب

العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٥ .
٥٨. الذَّهَبي: ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق على محمد البجاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٣.
٥٩. الرازي (فخر الدين): مفاتيح الغيب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطباعة الأولى، ١٩٨١ .
٦٠. الراغب الأصبهاني: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء، د. م، د. ن، ١٩٧٠ .
٦١. زاهية قدّورة: الشعوبية، وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٢م.
٦٢. الزَّبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، المطبعة الخيرية، القاهرة، ١٣٠٦ هـ.
٦٣. الزَّمَخْشري: ربيع الأبرار وفصوص الأخبار، تحقيق الدكتور عبد المجيد دياب، والدكتور رمضان عبد التوّاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢ .
٦٤. الدكتور سامي سعيد الأحمد: السومريون وتراثهم الحضاري، منشورات الجمعية التاريخية العراقية، بغداد، ١٩٧٥ .
٦٥. سبتينو موسكاتي: الحضارات السامية القديمة، ترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر، دار الرقي، بيروت، ١٩٨٦ .
٦٦. أبو السعود: تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٩٤ .
٦٧. سيّد قطب: في ظلال القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٦٧ .
٦٨. الدكتور سيّد محمود القمني: إسرائيل التوراة التاريخ التضليل، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٨ .
٦٩. الدكتور سيّد محمود القمني: النبي إبراهيم والتاريخ المجهول، سينا للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٠ .
٧٠. السيُوطي: تفسير الدُرّ المنثور في التفسير المأثور، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٣ .
٧١. شرف خان بَدْليسي: شرفنامه في تاريخ الدول والإمارات الكردية، ترجمة محمد على عوني، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٦ .
٧٢. الشنْقيطي: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، عالم الكتب، بيروت، ١٩٦٣ .
٧٣. الشوْكاني: فتح القدير الجامع بين فنّي الرواية والدراية وعلم التفسير، تحقيق الدكتور عبد الرحمن عميرة، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، مصر، الطبعة الثانية، ١٩٩٧ .
٧٤. صالح أحمد العلي: تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠ .
٧٥. الصفوري (عبد الرحمن): نزهة المجالس ومنتخب النفائس، (نسخة إلكترونية).

٧٦. صمويل كريمر (نشر وقدم له): أساطير العالم القديم، ترجمة دكتور أحمد عبد الحميد يوسف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤ .

٧٧. صمويل كريمر: من ألواح سومر، ترجمة الأستاذ طه باقر، مكتبة المثنّي، بغداد، ومؤسسة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٠ .

٧٨. الأستاذ طه باقر، الدكتور فوزي رشيد، الأستاذ رضا جواد هاشم: تاريخ إيران القديم، مطبعة جامعة بغداد، بغداد، ١٩٧٩ .

٧٩. الشيخ الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، دار سَحْنون للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٩٧

٨٠. الطَّبَري: تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧, والطبعة الرابعة، ١٩٧٩ .

٨١. الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، شركة مكتبة ومطبعة مصطفي البابي الحلبي وأولاده بمصر، القاهرة، ١٩٦٨ .

٨٢. دكتور عامر سليمان، أحمد مالك الفِتْيان: محاضرات في التاريخ القديم، موجز تاريخ مصر وسوريا وبلاد اليونان والرومان القديم، بغداد، ١٩٧٨ .

٨٣. عبّاس إبراهيم صباغ: تاريخ العلاقات العثمانية– الإيرانية، دار النفائس، بيروت، ١٩٩٩ .

٨٤. عبّاس العزّاوي، عشائر العراق، (نسخة إلكترونية).

٨٥. دكتور عبد الحميد زايد: الشرق الخالد (مقدمة في تاريخ وحضارات الشرق الأدني من أقدم العصور حتى عام ٣٢٣ ق.م)، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٧ .

٨٦. عبد الحكيم الذنون: الذاكرة الأولى (دراسة في التاريخ السياسي والحضاري القديم لبلاد الرافدين)، دار المعرفة، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٨ .

٨٧. الدكتور عبد العزيز صالح: الشرق الأدني القديم، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٠ .

٨٨. الدكتور عدنان الحديدي، الدكتور معاوية إبراهيم: تاريخ الشرق الأدني القديم، جامعة القدس المفتوحة، عمّان، الطبعة الأولى، ١٩٩٤ .

٨٩. ابن عبد ربّه: العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٢ .

٩٠. ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، تحقيق محب الدين أبو سعيد عمر بن غرامة العَمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ١٩٩٥ .

٩١. العماد الأصفهاني: خَرِيدة القَصر وجريدة العصر (قسم شعراء الشام)، تحقيق الدكتور شكري فيصل، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٩٥٩ .

٩٢. عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، مكتبة المثني، بيروت، ودار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٥٧ .

٩٣. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٠ .

٩٤. الفِرْدَوْسي: الشاهنامة، ترجمة سمير مالطي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة،

. ١٩٨٦

٩٥. فرنسس دافدسن، آلان م. ستبز، أرنست ف. كيفن: تفسير الكتاب المقدس، دار منشورات النفير، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٦ .

٩٦. الفَيْروزأبادي: القاموس المحيط، مؤسسة الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٩٧٠ .

٩٧. دكتور فيليب حِتّي، دكتور أدوَرد جرجي، دكتور جبرائيل جبّور: تاريخ العرب، دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثامنة، ١٩٩٠ .

٩٨. ابن قُتَيْبَة الدِّيَنَوَري: المعارف، تحقيق دكتور ثروت عكاشة، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١ .

٩٩. القُرْطُبي: الجامع لأحكام القرآن، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧ .

١٠٠. القَزْوِيني: (زكريا بن محمد بن محمود): آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠

١٠١ . القَلْقَشَنْدي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧ .

١٠٢ . القنوجي البخاري: فتح البيان في مقاصد القرآن، إدارة إحياء التراث الإسلامي، قطر، ١٩٨٩

١٠٣ . ابن كَثير: البداية والنهاية، دار أبي حيّان، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٦ .

١٠٤ . ابن كَثير: تفسير القرآن العظيم، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم البنّا، محمد أحمد عاشور، عبد العزيز غنيم، الشعب، القاهرة، . ١٩٧١

١٠٥ . ابن كَثير: قصص الأنبياء، تحقيق الدكتور مصطفي عبد الواحد، دار الكتب الحديثة، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٨ .

١٠٦ . الكتاب المقدس، العهد القديم: دار الكتاب المقدس في العالم العربي.

١٠٧ . الكُلِيني: الكافي، نقلاً من: سيد حسين الحسني الزرباطي: الكورد الشيعة في العراق، ط ٢، ٢٠٠٧، موقع . www.gilgamish.com

١٠٨ . مأمون بط بن بيطه بك: مذكرات مأمون بط بن بيطه بك، تعريب محمد جميل الروذبياني وشكور مصطفي، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٨٠ .

١٠٩ . مجموعة من الباحثين: كركوك (بحوث الندوة العلمية حول كركوك) ٣-٥ نيسان ٢٠٠١، دار آراس للطباعة ولنشر، أربيل، كردستان العراق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢ .

١١٠ . محمد شمس الحق العظيم آبادي: عون المعبود شرح سنن أبي داود، نسخة إلكترونية.

١١١ . الدكتور محمد عمارة: فجر اليقظة العربية، دار الوحدة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٤ .

١١٢ . الدكتور محمد قَدُّوح: الكتابة (نشأتها وتطورها عبر التاريخ)، دار الملتقي للطباعة والنشر، قبرص – لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠ .

١١٣ . المُرادي: سلك الدُّرَر في أعيان القرن الثاني عشر، مكتبة المثني، بغداد، ١٩٦٨ .

١١٤ . المَقْدِسي: البدء والتاريخ، مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٧٠ . (الكتاب منسوب الى أبي زيد أحمد

بن سَهْل البَلْخي).
١١٥ . المَسْعودي: التنبيه والإشراف، دار التراث، بيروت، ١٩٦٨ .
١١٦ . المَسْعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، الطبعة الخامسة، ,١٩٧٣ وطبعة دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٢ .
١١٧ . المُطَرِّزي: المُغرِب في ترتيب المُعَرَّب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٠ .
١١٨ . المَقْريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، نشره محمد مصطفى زيادة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٥٧ .
١١٩ . المَقْرِيزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط المقريزية)، دار صادر، بيروت، ١٩٧٤ .
١٢٠ . المِناوي: فَيض القدير في شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير، تحقيق حمدي الدمرداش محمد، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٩٩٨ .
١٢١ . الدكتور مُنْذِر عبد الكريم البكر: دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام (تاريخ الدول الجنوبية في اليمن)، جامعة البصرة، البصرة، ١٩٨٠ .
١٢٢ . ابن مَنْظور لسان العرب المحيط، دار الجيل- بيروت، دار لسان العرب - بيروت، ١٩٨٨ .
١٢٣ . النابغة الذُّبياني: ديوان النابغة الذبياني، تحقيق الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع- والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٦ .
١٢٤ . ابن النَّديم: الفِهْرِسْت، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٨ .
١٢٥ . أبو نَعيم الإصبهاني: ذكر أخبار إصبهان، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٩٣٤ .
١٢٦ . هارڤي بورتر: موسوعة مختصر التاريخ القديم، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩١ .
١٢٧ . هاملتون جِب: دراسات في حضارة الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٩ .
١٢٨ . هـ. ج. ولز: معالم تاريخ الإنسانية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧- ١٩٧٢ .
١٢٩ . ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩١ .
١٣٠ . الهَمَذاني (ابن الفقيه): البلدان، تحقيق يوسف الهادي، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٦ .
١٣١ . هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ترجمة عبد الإله الملاح، المجمّع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠١ .
١٣٢ . الواقِدي: كتاب المغازي، تحقيق الدكتور مارسدن جون، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٠ .
١٣٣ . ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، زكي نجيب محفوظ، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٥٧- ١٩٥٨ . والطبعة الرابعة، ١٩٧٣ .

١٣٤ . وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، أشرف على الترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٩ .

١٣٥ . ياقوت الحموي: معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٠ .

١٣٦ . اليَعْقوبي: البلدان، كتاب إلكتروني، موقع الوَرّاق،
www.alwarraq.com









مطبعة

أربيل - كردستان
Aras Press
Kurdistan - Erbil


ISBN 978-9933-487-09-6
9 789933 487096
السعر ٤٥٠٠ دينار